

مكتبة الإسكندرية

روح الشرق الجديد

الأستاذ الدكتور

ماهر عبد القادر محمد

جامعة الإسكندرية

2004

مكتبة الإسكندرية
روح الشرق الجديد

مكتبة الإسكندرية

روح الشرق الجديد

الجزء الأول

الدكتور

ماهر عبد القادر محمد

2004

جميع الحقوق محفوظة

للمؤلف

لايجوز طباعة أو

تصوير أو استنساخ

أى جزء من هذا

الكتاب

بدون إذن مسبق من

المؤلف

رقم الايداع القانونى

بدار الكتب والوثائق

2003 / 11569

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إننا نعتبر احياء مكتبة الإسكندرية حدثا ثقافيا عالميا لا
تستأثر به مصر وحدها ، بل ستكون له أصدأؤه وأثاره
فى كل الأوساط العلمية المهمة بالتراث الثقافى بأبعاده
الدولية وخصائصه الإنسانية . ثم إن المعرفة والفن
والفكر والثقافة هى مادة هذا الصرح الحضارى
وهذه الروافد جميعا هى دعائم السلام الذى هو هدفنا
الأسمى وحلمنا جميعا .

من خطاب فخامة الرئيس محمد حسنى مبارك
باعت النهضة الثقافية فى مصر الحديثة
(لقاء أسوان 12 فبراير 1990)

إهداء

إلى

السيدة الفاضلة

سوزان مبارك

تقديراً وعرفاناً على كريم رعايتها

لمكتبة الإسكندرية

روح الشرق الجديد

ستكون مكتبة الإسكندرية مركز إشعاع للفكر ومنتدى
للمناقش والحوار فى كل ما يتعلق بالفكر والعلوم والفنون
والثقافة وملقى بين الشمال والجنوب والشرق والغرب
وبذلك فدور المكتبة هو تشجيع الحوار بين الحضارات
وليس التصادم بين الثقافات .

السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك

3 مايو 2001

تقديم

هناك أحداث وظواهر كبرى تحدث فى حياة البشرية، بعضها قد يتكرر فى صورة أو أخرى، وبعضها الآخر لاسبيل إلى تكراره. ومكتبة الإسكندرية الحديثة من حيث التذكر التاريخى ، تمثل صورة من صور استرجاع لتلك المكتبة القديمة الأسطورية... الظاهرة الحضارية الخلاقة تجعل منها المثال والأنموذج، وكما يقول أفلاطون كل شىء وله مثال ؛ إلا أن المثال هذه المرة يأتى من خلال عطاء وصنع بشر يملكون التكنولوجيا والتقنيات الفائقة ، ويأتى من خلال تضافر جهود العديد من المنظمات الإقليمية والدولية ، ويأتى بفضل سواعد رجال نذروا أنفسهم لإعادة إنتاج الظاهرة الأسطورية.

والكتاب الراهن يقع فى ثلاثة أقسام ، ويتناول بالدراسة والتحليل المعرفى مكتبة الإسكندرية عبر الزمان ومدرستها الفكرية ويحاول أن يبين أبعادها وتواصلها جيلاً بعد جيل:

القسم الأول: ويتناول المكتبة ومنظومة التأسيس ، حيث يتحدث عن الصلات المصرية اليونانية القديمة . ويتناول المشروع الثقافى عند البطالمة ، ثم ينتقل إلى الحديث عن تأسيس المكتبة والرؤية الفلسفية ، ويتناول كاليماخوس مصنف المكتبة والفهرست ، ثم يتناول بالحديث علماء الإسكندرية .

وأما القسم الثانى فيتابع الحديث عن مكتبة الإسكندرية حيث يتناول الدراسات العربية الكلاسيكية وتتبع فتح الإسكندرية . ثم يتناول الدراسات العربية فى القرنين السادس والسابع الهجريين ونقد هذه الكتابات . وأخيرا يتجه إلى الحديث عن يحيى النحوى وقصته المزعومة مع عمرو بن العاص .

وأما القسم الثالث فقد جاء فى الجزء الثانى ويدور حول السؤال : كيف نظر علماء الإسكندرية والأدباء والكتاب - الذين عاشوا فى هذه المدينة التاريخية - إلى الإسكندرية عشقا وحبا وتراثا وكيانا وفكرا ؟ وكيف تصوروا مستقبل مكتبتهم الجديدة فى عصر جديد ؟

هذا التناول يأتى من خلال التعامل مع، القصة المشهورة عن مكتبة الإسكندرية وتحليل هذه القصة ونقدها، لبيان كافة جوانبها ، والأدلة والوثائق- إن وجدت - التى قدمت عبر التاريخ الطويل لتغطية هذه القصة ، وشرح أبعادها ، وتحليل جوانبها الخفية وبيان نصيب الخرافة والأسطورة فيها.

وربما كان من المناسب فى هذا المقام أن نذكر للقارئ ، ونذكره فى الوقت نفسه ، أن ما سوف يقال على هذه الصفحات ليس خاتمة المطاف فى قصة مكتبة الإسكندرية القديمة ، مما يعنى أن هناك إسهامات أخرى سوف تتوالى فى المستقبل عن الموضوع نفسه ، وهذا يشير بالضرورة إلى أن مكتبة الإسكندرية القديمة تمثل مشكلة ولغزاً

حقيقياً بالنسبة للمفكرين، ويعنى أيضا أن دلالتها تتضح من أنها تجسد لنا مشكلة معرفية قبل أن تكون لغزاً حضارياً. ومعنى هذا القول أن المشكلة المعرفية تبقى مفتوحة أمام الباحثين لتناولها من خلال زوايا ورؤى مختلفة تتسق أو لا تتسق مع طبيعة الظاهرة الحضارية ذاتها ودلالاتها .

وانطلاقاً من الفكرة السابقة فإن الإبقاء على لغز مكتبة الإسكندرية القديمة مشكلة معرفية مفتوحة ، يعنى أن فكرتنا الأساسية تتخذ شكل الحجة ذات المقدمات والنتائج ، كما تتسم بالطابع المنطقي الذي يخضع بالضرورة لأعمال قانون عدم التناقض لبيان مواضع الاتساق والاتساق أيضا . كما يعنى من الجانب الآخر أن تخضع الأدلة التاريخية والحجج التي سبقت من جانب المؤرخين أو المفكرين لأعمال منهج النقد والتفنيد الذي نتعامل به مع جوانب المشكلة المعرفية ومفرداتها.

وتأسيساً على الفكرة السابقة فإن هذه الدراسة معرفية منطقية تاريخية عن مكتبة الإسكندرية القديمة وسريان روحها فى المكتبة الحديثة لتكشف عن روح جديد فى الشرق . ومن ثم يبدو من الملائم هنا أن نشير إلى أن الدراسات السابقة على اختلاف درجاتها ، ودرجات القبول أو الرفض لها ، تعاملت مع ظاهرة مكتبة الإسكندرية القديمة بصفاتها حدثاً تاريخياً فحسب ، كما تناولتها كظاهرة فى نتائجها

من حيث تصديق أو عدم تصديق نهايتها ، ولم تتعامل مع ما تمثله هذه الظاهرة من مشكلات معرفية، وكأن التاريخ توقف عند هذا الحدث الأسطورة وأغلقت تلك الظاهرة أبواب مشكلاتها .

وعلى خلاف التصورات السابقة ، سوف نعمل على إعمال المنهج العلمي فى القصة والظاهرة برمتها (وسيعرف القارئ أثناء تتبعه لهذه الدراسة أننى أعنى بالقصة شيئاً ، وبالظاهرة شيئاً آخر ، برغم ما بينهما من اتصال) لتأسيس نتيجة تفيدنا فى الحكم على الدراسات السابقة بطريقة موضوعية ، وفى الإبقاء على جوانب القصة والظاهرة معا ملكا لأجيال المفكرين الجدد.

وما أعنيه بالقصة فى هذا السياق يتمثل فى الروايات التى سبق أن صدرت فى الدراسات العربية الكلاسيكية بصفة خاصة أو الغربية ، من روايات تروى لتصوير الطابع المأسوى لمصير مكتبة الإسكندرية القديمة، ولبيان الأحكام التعسفية التى رسمتها حدود تلك الروايات باعتبارها لم تكن واعية بأحداث التاريخ . وهذا البيان لا يخلو بطبيعة الحال من الطابع الأسطورى الذى يقف على نقيض العقلانية التى يجب أن يتسم بها التحليل المنهجى للحدث . وأما ما أعنيه بالظاهرة فيمكن أن نلتمسه من خلال أن مكتبة الإسكندرية مثلت عبر تاريخها ، وحتى قبل أن تبعث من جديد ، أضخم حدث علمى فى تاريخ الإنسانية عبر قرون طويلة ، وتلك مسألة تستحق تحليلاً

سسيولوجيا وسيكولوجيا من الباحثين على اختلاف توجهاتهم . وهذا الجانب الذى قد يستوقفنا لابد وأن تتسم تحليلاته بالعقلانية والفهم الدقيق لطبيعة السياق التاريخ الذى اختلط فى كثير من الأحيان لدى المؤرخين بعناصر ليست من طبيعة مكونات الظاهرة .

نشير أيضا إلى أن تعاملنا مع القصة والظاهرة سوف يتخذ طابع التحليل التكاملي ، وهذا هو خيط الاتصال بينهما ، بمعنى أننا سوف نتعامل مع جوانبهما المختلفة بصورة معرفية منطقية تاريخية فى الوقت نفسه ، من غير فصل بين الجوانب المختلفة لتطبيق هذا المنهج. إن الحقيقة التى تجمع عليها الآراء المختلفة تتمثل فى أن مكتبة الإسكندرية القديمة قامت وتأسست كمنازة ثقافية وحضارية يندر أن نجد مثيلا لها فى العالم القديم ، رغم وجود مكتبات قديمة متعددة انتشرت فى بقاع كثيرة من العالم القديم ، التى ربما كان من أبرزها المكتبات الفرعونية القديمة بتنظيمها داخل المعابد وهيكلها الثقافى العام، وربما يرجع السبب فى هذا إلى أن مكتبة الإسكندرية القديمة كانت ذات توجهات جديدة لم تكن مألوفة من قبل فى المكتبات الأخرى التى انكفأت على نفسها ولم تتواصل مع غيرها من المكتبات العالمية الأخرى .

والواقع أن هذه الحقيقة على الرغم من أنها بادية للعيان ، إلا أن امتداد هذه المكتبة من القديم إلى الحديث شكل بعدا حضاريا متناميا

مما جعل هذه القيمة تتواصل ثقافيا وحضاريا عبر الزمان ، خاصة وأن المكتبة القديمة حين تأسست بعثت روحا جديدا فى الشرق .

ومن ثم فإنه إذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة حدثا ثقافيا عالميا فإن ذلك يرجع إلى العوامل المتعددة التى جعلتها تحتل مكانتها المرموقة عبر الزمان. خاصة وأن العقول التى قامت على أمر المكتبة منذ البداية كانت تتمتع بتصورات ورؤى متفتحة اكتسبتها من طبيعة المناخ الثقافى القائم على المناقشات الثقافية والحوار والجدل الذى كان سائدا فى دوائر الفكر الفلسفى والسياسى مما توافر فى بيئة صحية تعلى من قيمة العقل والفكر. وقد شكلت هذه الخاصية البعد الأساسى للروح الجديد والعقل المفتوح على كافة الثقافات والروافد الأخرى إن فى الشرق أو الغرب . وقد مثل هذا الروح والإنتفاع الشريان الرئيسى الذى تنفست منه المكتبة، وهو ذاته الذى زودها بطاقات خلاقة لتتواصل به قدرتها على الإبداع والعطاء فى مجالات العلم المختلفة أو الأدب أو الفن أو الشعر أو غيرها من المجالات التى اتصلت بعالم الفكر والثقافة . هذا إلى جانب أن خاصية الإنتفاع الفكرى التى نتحدث عنها سمحت للمفكرين والمبدعين أن يتواصلوا من خلال العطاء المبدع بصورة سمحت لهم بتشكيل البنية المعرفية لرؤيتهم للعالم وقتئذ من خلال منظومة حوارية تواصل فيها القديم والحديث معا ، وتفاعلت فيها الخبرة مع العلم مما جعل المكتبة بأروقته العلمية المختلفة تراث الروح

الفلسفى والعلمى المتكامل الذى ساد فى مدارس الفكر الأثنىة والتقاليد العلمىة والأخلاقىة التى سادت فى مصر القدىمة وغيرها من المدارس الفكرىة التى ربما كانت سائدة فى ذلك الوقت . ولاشك أن هذه الخاصىة وضحت تماما فى ظهور عدد كبرى من المفكرىن والعلماء الأفذاذ الذىن وفدوا إلى مصر من شتى أنحاء المعمورة واعتبروا الإسكندرىة وطنهم الثانى.

أضف إلى هذا طبقىة التكوين الثقافى الذى شكل مهارة المفكرىن والعلماء وجعلهم يقبلون على العالم شرقه وغربه بعقل متفتح جدىد ، فهم وقد تربوا وتعلموا فى مدارس أثىنا الفلسفىة ، اكتسبوا من الأدوات الفكرىة ما يؤهلهم لرىادة أى عمل ثقافى أو فكرى يوكل إليهم. وهذا ما لاحظناه فعلا فى كثر من الحالات وبصفة خاصة المفكر والفىلسوف والسىاسى الأثنى دىمتريوس الفالىرى الذى تحمل العبء الثقافى الأكبر وقت تأسيس المكتبة وجمع الكتب والمخطوطات الأصلىة من كافة أنحاء العالم على قدر الطاقة ، وبقى الكثر ، ثم فى حالة كالىماخوس الشاعر المرفه الحس الذى سجل تراث المكتبة الفكرى والثقافى لكى يحفظ للانسانىة عبر الزمان منظومة عمل فكرى وثقافى ، تباهى مصر به العالم بأسره ، فكان أن أنجز فهرست مكتبة الإسكندرىة القدىمة الذى يعد عملا ابداعىا ورىادىا من الدرجة الأولى افتتح به عصر البىبلىوجرافىا ، وأثر فى كثر من الأعمال التالىة التى حاولت أن

تقدم رؤى مماثلة ، وبصفة خاصة ابن النديم الذى جاء بعد كاليماخوس بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، والذى ربما يكون قد استفاد منه فى تدوين كتاب الفهرست ، الذى شكل حلقة جديدة من حلقات الازدهار الثقافى فى الشرق الجديد .

وربما جازلنا فى هذا التقديم أن نشير إلى وجود ثمة روابط وعلاقات فكرية ربطت بين ديمتريوس الفاليرى وكاليماخوس وامتدت إلى ابن النديم فيما بعد لتؤسس منظومة عمل متكاملة يكمل الواحد منهما الآخر نظراً وعملاً. ومن ثم فقد اتجهت أنظارنا إليهم لمعرفة انجازاتهم وبيان أثرها فى الأجيال . وأولى هذه الروابط الفكرية أن هؤلاء الثلاثة يشتركون سوية فى الاهتمام بالتراث العقلى والفلسفى والأدبى للأجيال التى سبقتهم ، وقد جاءت هذه النظرة برهاناً على الانفتاح العقلى على ثقافات الآخر ، وهذه ميزة تحقق لنا رؤية معرفية تشير إلى أهمية التواصل مع القديم بكل ما يحمله من معان ومضامين فكرية . والقديم والحديث هنا له أكثر من معنى ودلالة لأنه يعبر عن مرحلتين متواصلتين تتداخل أحدهما فى الأخرى لتبين الفوارق الجوهرية فى التحديث ، خاصة إذا علمنا أن فهرست كاليماخوس عبر عن مرحلة الحداثة الأولى التى تجاوزت مرحلة مكتبات المعابد الفرعونية القديمة التى اقتصر العلم فيها على الخاصة ، ومرحلة المعرفة بالمكتبات الأثينية ، ومرحلة التأسيس التى عبر عنها

ديمتريوس الفاليري في مبدأ الأمر عند تأسيس المكتبة . وأن فهرست ابن النديم جاء ليعبر عن مرحلة مابعد الحداثة، أى مابعد كاليماخوس ، إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح من مفكرى عصرنا الراهن .

ومن جانب آخر فإن العلاقة بين هؤلاء المفكرين الثلاثة تكمن فى اهتمامهم بالتصنيف كعلم من الناحية الأكاديمية البحتة ، ورغم أن هذه المسألة قد لا تكون واضحة للعيان فى حالة ديمتريوس الفاليري ، إلا أنه فى عصره كان لابد من وجود فهرست أو على الأقل سجل أو ما أشبه بذلك لسهولة التعامل مع الكتابات والمخطوطات التى وفدت إلى المكتبة من كافة أنحاء المعمورة . إذ كيف يمكن عقلا أن نتصور استقبال المكتبة لكتابات جديدة دون أن تسجل فى سجل خاص بها لمعرفة الكتب التى وردت ، وأماكن وجودها ، وتاريخ الاضافة إلى المكتبة ، وهو ما يقوم به أمناء المكتبات فى عصرنا الراهن .

ومن جانب ثالث تبدو النزعة العقلانية واضحة بصورة كبيرة فى انجازات هؤلاء العلماء الثلاثة رغم ما بينهم من تباين ، ورغم أن كاليماخوس يعد أحد شعراء عصره المهمين .

إن وجود قواسم مشتركة من الناحية المعرفية والمنهجية بين هؤلاء المفكرين الثلاثة مسألة مهمة تجعلهم يستحقون دراسة مستقلة تبين أهدافهم الثقافية والفكرية ، خاصة وأن الأعمال التى قاموا بها ظلت خالدة على مر الأجيال واسترعت النظر والتوقف لدراستها . وهذه

الأعمال وما تنطوى عليه من توجهات تساعدنا عند دراستها على رؤية المستقبل الذى نحاول استشرافه لمكتبة الإسكندرية العملاقة التى تأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة فى ثوبها الجديد ، وهى من العوامل المهمة التى سوف تتضافر مع غيرها من العوامل لتبعث الروح الجديد فى الشرق .

وكما بدأنا مفتتح حديثنا فإن واجب المفكر أن يبدى إعجابه وإعزازه بالعمل الذى تم على أرض الإسكندرية لإعداد هذه المدينة التاريخية كعاصمة ثقافية لدول حوض البحر المتوسط والعالم بأسره فى الألفية الثالثة . ومن ثم فإن الواجب علينا أن ننحني إعزازا وإكبارا لأولئك الرجال الذين تحملوا عبء التفكير والتخطيط والتنفيذ لإهرام ثقافى جديد يضاف إلى الحضارة الإنسانية من خلال إنجاز هذا الصرح الحضارى الضخم فى مصر المعاصرة. إن بعث مكتبة الإسكندرية من جديد ينطوى على دلالات متعددة من بين أهمها أن مصر الحضارة والثقافة أصبحت تحتل مكانتها الرائدة بين الشعوب ، ومن هذا المنطلق يمثل هذا المشروع الجديد شريان الأمل لأجيال سوف تأتى فى المستقبل وتقرأ على صفحات التاريخ مدى ما قدمه هذا الجيل من بذل وعطاء من أجل مصر الحبيبة . وبهذا المعنى أيضا سوف تبعث فيهم شرارة متوقدة تدفعهم دائما للنهوض بأماتهم . وسوف

تدرك الأجيال القادمة قيمة الثقافة والفكر فى عالم يسوده الحب والسلام بين البشر جميعا .

والذى لاشك فيه أيضا أن هذا المشروع سيزيد الاهتمام بمصر بين دول العالم ، وبأهمية دورها الثقافى على الساحة العالمية من خلال تواصل المثقفين والمفكرين مع منظومة الفكر العالمى من خلال التفاعل الايجابى مع المتغيرات الثقافية العالمية .

إن مكتبة الإسكندرية الجديدة التى قامت فى عصر الثقافات المفتوحة إنما قامت بفضل جهود مضيئة من شخصيات وهيئات من جميع أنحاء العالم لابرار دورها المنشود ، استطاعت أن تجذب أنظار العالم أجمع وأن تجعل القاصى والدانى يرتقب الدور الذى سوف تؤديه المكتبة على الساحة الثقافية عالميا ومحليا خاصة مع مطلع الألفية الثالثة ، وهى مهمة نرجو لها التوفيق بإذن الله .

إن هذا المشروع والانجاز الحضارى والثقافى الضخم الذى يعد حدثاً بارزاً ومعلماً مهماً من معالم هذا القرن ، هو بكل المقاييس علامة بارزة ، مشرقة ومضيئة ، فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك باعث النهضة الحديثة فى مصر المعاصرة الذى جعل من مشروع المكتبة هدية الإسكندرية ومصر للإنسانية جمعاء، ليرمز به إلى روح الإنسانية ذاتها ، وإلى تطلع شعب مصر إلى سلام دائم تبنى أسسه على العدل والحب بين كافة البشر. ويكفينا فخراً أن عادت الريادة الثقافية

إلى ربوع الإسكندرية تمارس دورها التاريخي الرائد كما كانت دائما ،
وتقدم عطاء ثقافياً بلا حدود لأمة تتطلع إلى غد مشرق بعقل منفتح
ومتفتح وروح جديد .

الإسكندرية

فى

أول مايو 2004

دكتور

ماهر عبد القادر محمد

القسم الأول

مكتبة الإسكندرية

ومنظومة التأسيس

الفصل الأول: الصلات المصرية اليونانية القديمة:مدخل تاريخي

الفصل الثاني: حلم البطالمة : المشروع الثقافي

الفصل الثالث: تأسيس المكتبة ورؤية فيلسوف

الفصل الرابع: كاليماخوس والفهرست

الفصل الخامس : علماء الإسكندرية

الفصل الأول

الصلوات المصرية اليونانية القديمة

مدخل تاريخي

كانت مصر دائما محور تفكير أهل اليونان الذين وفدوا إليها بأعداد كبيرة قبل أن يأتي إليها الإسكندر الأكبر الذي أسس الإسكندرية عاصمة لمجده . ونحن نجد إشارات قوية لهذا الاتصال التاريخي بين الطرفين في كتابات المؤرخين العرب ، وربما كان من أبرزهم جميعا ابن أبي أصيبعة مؤرخ الطب العربى فى القرن السابع الهجرى .

يصور لنا ابن أبي أصيبعة أهمية عامل الاتصال بين الشعوب فى اطار دراسة تاريخ العلم العام ، إذ الاتصال يسمح بانتقال الأفكار من حضارة إلى أخرى ، وإلى هذا العامل أيضا تعزى التغيرات والتطورات التى يمكن أن تبرز كخاصية حضارية عبر التاريخ ، على ما يرى ماسون¹.

والذى لا شك فيه أن الاتصال يأخذ طرقا مختلفة من أهمها الاتصال الشخصى ، حين يلتقى الأفراد بعضهم ببعض ويتبادلون الحوار والنقاش . هذا فضلا عن أن عامل الاتصال يأخذ بعدا آخر على درجة كبيرة من الأهمية حين يأخذ شكل الملاحظة بالمشاركة التى تفرض على المرء أن يعيش فى مجتمع ما لفترة من الوقت يشارك فيها الناس كل حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم وتصرفاتهم . وربما استطعنا أن

¹ Mason, S. F., A History of the Sciences, Collier Books, New York, 1962 , p . 599

نخرج بفكرة مهمة عن الاتصال بين الإغريق والمصريين القدماء من خلال وصف ابن أبي أصيبعة لهذا العامل الذي لعب دورا محوريا في انتقال العلوم المصرية القديمة إلى أهل اليونان . نصف في هذا الصدد بعض جوانب هذا الاتصال لنرى إلى أي حد لعب هذا العامل المعرفي دورا مهما في تشكل الأبعاد الحضارية.

سجل مؤرخ العلم العربي ابن أبي أصيبعة في كتابه الموسوعي "عيون الأنباء" أن فيثاغورس بعد أن تعلم على انكسمندريس الهندسة والمساحة والنجوم " اشتد حبه للعلوم والحكمة فسافر إلى بلدان شتى طالبا لذلك ، فورد على الكلدانيين والمصريين وغيرهم، ورابط الكهنة وتعلم منهم الحكمة ، وحقق لغة المصريين بثلاثة أصناف من الخط : خط العامة ، وخط الخاصة وهو خط الكهنة المختصر ، وخط الملوك"¹ ، وكان ذلك بعد عدة امتحانات اجتازها على يد الكهنة الذين قبلوه على مضض، خاصة وأنهم لم يعتادوا أن يطلعوا أحدا على علومهم . وبعد أن أجاد العلوم والفنون مضى " من مصر راجعا إلى بلاده ، وبنى له بمدينة أيونية منزلا للتعليم ، فكان أهل ساموس يأتون إليه ويأخذون من حكمته"². ولاشك أن سقراط الحكيم، الذي ذاع

¹ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ، 1970 ، ص 64
² المرجع السابق ، ص 65

اسمه فى بلاد اليونان وفى عالم الفكر قاطبة ، نهل من حكمة
فيثاغورس لأنه تتلمذ عليه ¹.

إن تعرف فيثاغورس على علوم المصريين القدماء ، خاصة الهندسة
والرياضيات ، جاء عن طريق الاتصال المباشر ، وعن طريق
الملاحظة المباشرة للقياسات التى يقومون بها فى الواقع العملى. ولا
شك أنه كان يتمتع بقدرة تنظيرية رائعة أدت به إلى ابتكار نظرياته
المبدعة التى لازالت تدرس حتى الآن للطلاب فى مراحل حياتهم
الدراسية الأولى ، وهذا يعنى أن فيثاغوراس أفاد البشرية من الناحية
المعرفية . وفى ذلك العصر أيضا جاء إلى مصر الفيلسوف والعالم
اليونانى ديموقريطس صاحب النظرية الذرية حيث تلقى علومه على يد
الكهنة المصريين والعلماء داخل المعابد ². كل هذا يعنى أن بلاد مصر
القديمة كانت مقصدا لعلماء ومفكرى اليونان الذين نهلوا من العلوم
المزدهرة التى سادت فى ذلك الوقت وادهشت كل من جاء إلى مصر
زائرا . كما يعنى أيضا أن التكوين المعرفى لعلماء اليونان فى ذلك
العصر استمد فى أساسه من منظومة التعليم المصرى التى كانت متألفة
ومزدهرة وتستند إلى أسس منهجية قوية فى تحصيل المعرفة
بالصورة التى أدت إلى نمو المعرفة ذاتها ، وربما كانت الشواهد

¹ المرجع السابق ، ص 70

² سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ، ج 14 ، ص ص 281-282

الأثرية التي نراها الآن في ربوع مصر أبلغ دليل على مدى ما أحرزته مصر القديمة من تقدم .

ولا يقل عن هذا الأثر ما خلفه لنا أفلاطون في كتاباته ومحاوراته . لقد بلغ أفلاطون " أن بمصر قوما من أصحاب فيثاغورس ، فسار إليهم حتى أخذ عنهم ، وكان يميل في الحكمة ، قبل أن يصحب سقراط ، إلى رأى ايراقليطس ، ولما صحب سقراط زهد في مذهب ايراقليطس وكان يتبعه في الأشياء المحسوسة ، وكان يتبع فيثاغورس في الأشياء المعقولة ، وكان يتبع سقراطيس في أمور التدبير . ثم رجع أفلاطون من مصر إلى أثينيه ، ونصب فيها بيتي الحكمة ، وعلم الناس فيها " ¹ . ولنا أن نلاحظ في هذا الصدد أن هيراقليطس هو صاحب مذهب التغير الذي يرتبط بالمحسوس ، وقد ساد هذا المذهب في الفكر اليوناني فترة طويلة ، ولكن طبيعة العقلية اليونانية كانت أميل دائما للناحية العقلية .

كان من الطبيعي إذن أن يحاول أفلاطون معرفة أسرار العلوم المصرية القديمة ، وأن يقف على بنيتها وسر تقدمها ، وهي نفس المسألة التي شجعت فيثاغورس من قبل على محاولة فهم علوم المصريين الذين حرموا معرفة هذه الأسرار على الأجانب . ومع أنه في عصر متأخر ، وإبان حكم البطالمة ، سمح لأعداد كبيرة من اليونانيين بالنزوح إلى مصر والإقامة فيها لتلقى التعليم؛ إلا أن الذي

¹ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء، ص 80

لأشك فيه أيضا أن المرحلة السابقة شكلت كتابا مغلقا أمام اليونانيين ، لأنه من المشكوك فيه أن يكون الكهنة في مصر القديمة قد ائتمنوا اليونانيين على علومهم السرية . وقد أكد استرابون هذا بقوله أثناء رحلته مع ايليوس جالوس وهو بصدد الحديث عن الكهنة المصريين بقوله: " وعلى أي حال فقد أطلعونا هناك على بيوت الكهنة ومدارس أفلاطون ويودوكسوس ، ذلك أن يودوكسوس صاحب أفلاطون إلى هناك ، وأمضيا كلاهما هناك مع الكهنة ثلاثة عشر عاما فيما ذكر البعض ، إذ إن لما كان هؤلاء خبيرين بعلوم الأجرام السماوية ، وبالرغم أنهم كانوا صموتين ويصعب عليهم بذل العلم ، فقد استطاعا بمرور الزمن وباسترضائهم أن يتعطفاهم حتى سمحوا لهما بتلقن بعض نظرياتهم ، ولكن البرابرة قد أخفوا أكثر العلم ."¹ وهذا يعنى أن استرابون يسجل لنا موقفا غريبا في ثنايا رؤيته للأجناس وهو ما جعله يصف المصريين بالبرابرة ، ولذا فإنه يبدي حسرته على بخل الكهنة بالعلم على الغرباء ، وفي الوقت نفسه يصف المصريين بالبرابرة مما يكشف عن عنصريته وتعصبه لبنى جلدته. ولكن يجب علينا أيضا أن نفهم هذا التقرير والحكم على المصريين بصورة أخرى ، إذ أن أهل

1 استرابون في مصر ، نقله من اليونانية د . وهيب كامل ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1954 ، ص 91

اليونان القدماء كانوا ينظرون إلى أنفسهم وبلادهم على أنهم مركز العالم ، وعلى أنهم السادة وكل شعوب الأرض عبيد لهم .
لقد كانت الأسرار المصرية فى ذلك الوقت متصلة بعدد من العلوم المهمة والمتقدمة ، ومن بينها الفلك والطب . ومن بين أهم كتب الأسرار كتب تحوت السئة التى تتضمن معلومات عن الجسد والأمراض والأجهزة الطبية ، وهذه الكتب كانت تحفظ فى مكتبات المعابد.

هنا نلمح بعدا آخر لاتصال اليونانيين بالعلوم المصرية والطب المصرى القديم . فمن المعروف أن ابقراط الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد تعلم " فى سراديب المعابد المصرية والأهرام على بعض تلك الأسرار التى لم تكن تفتشى لغير الكهنة "¹. ونستنتج من هذا أن المعابد كانت ذات وظيفة تعليمية ، وفيها كانت بيوت الحياة Houses of Life . وبطبيعة الحال كان لهذا التعليم الكهنى شروط محددة خضع لها ابقراط ، حتى يطلع على هذه العلوم والأسرار .

وتكشف الدراسات التاريخية أن نشأة أولى مدارس الطب على سبيل المثال ، فى مصر الفرعونية يرجع إلى عهد الأسرة الأولى². وقد عرفت هذه المدارس بأنها بيوت الحياة " حيث يلتقى فيها العلماء

¹ بول غليونجى ، الطب عند قدماء المصريين ، الإسكندرية ، 1974 ، ص 98
² المرجع السابق، ص 97

والفلاسفة والأطباء وطلبة العلم ليتبادلوا الآراء"¹ ، وهذا يعنى أن فن المناقشة والجدل كان سائدا فى هذه المدارس مما أدى إلى تواصل حلقات العلم داخل أروقة المعابد ذاتها وإلى تقدم العلوم بصورة أساسية. وقد بلغت هذه المدارس مكانة رفيعة داخل المجتمع وانتشرت تعاليمها ، واكتسبت شهرة واسعة ، مما جعل الطلاب يقبلون عليها ، ومن بينها مدرسة فتحت فى سابيس للمولدات اللاتى كن يقمن بتدريس أمراض النساء للأطباء أنفسهم ، ومدرسة هليوبوليس ، ومدرسة امحوتب بمنف التى زاد شهرتها مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات التى كان يتردد عليها الأطباء حتى عهد جالينوس² ، مما يدل على أن تقاليد هذه المدارس استمرت عدة قرون بفاعلية ، واستطاعت خلال القرون أن تجتذب عددا كبيرا من الطلاب الذين نبغوا كأطباء شهد لهم العالم القديم بالكفاءة والفاعلية. وأن هذه التقاليد كانت من الناحية العلمية متقدمة ومتماسكة وتستند إلى أسس منهجية .

ولما كانت بيوت الحياة هى المدارس التى أقيمت فى المعابد ، فمن الطبيعى أن يقوم الكهنة بالإشراف عليها والتدريس فيها ، وهؤلاء كانوا متخصصين فى العلوم والفنون والطب . ومن الطبيعى أن يؤدى الكهنة وهم المؤتمنون على الأسرار دورا مهما فى عملية التعليم ، إذ أن

¹ المرجع السابق ، ص 62

² المرجع السابق ، ص 97

تكوين طبيب المستقبل مسألة تحتاج دائما لوقفة وانتباه ، لأنه سوف يؤتمن على حياة الناس ، لذا جاء التمهيد لاعداد طبيب المستقبل ، ابتداء من اختيار المدرس ذاته . ومن ثم تحقق أول شرط منهجى فى تأسيس مدارس الطب ابتداء من اختيار الأشخاص " الموثوق بعلمهم وبفضيلتهم ، ومن ذوى الحنان والرفقة بالضعفاء"¹. وكان للكهنة الأطباء ملامح مميزة عن غيرهم من الكهنة . وأغلب رواد هذه المدارس كان من أبناء الملوك والكهنة والأطباء .

وأما الشرط المنهجى الثانى الذى اختير على أساسه الأطباء فى هذه المدارس فيتمثل فى أنهم " أمناء من قبل الخالق على حياة الناس ، ولا ينبغى أن تكون أرواح الناس العوبة فى أيدي أشخاص غير أمناء لم يزينوا علومهم بالاستقامة النفسية "². وفكرة الأمانة على أرواح الناس تذكرنا بامتداد هذه التقاليد المصرية القديمة من جيل إلى جيل حتى القرن التاسع الميلادى وظهور المدارس الطبية الإسلامية .

ومن الملاحظ أن تعليم الطلاب كان يخضع بالضرورة إلى شروط أساسية لابد من أن تستوفى ، وبصفة خاصة لكل المطلعين على أسرار العلوم المصرية القديمة من المصريين أو الأجانب . إذ قد حتمت التقاليد الدينية فى مصر القديمة ضرورة اجراء عملية إعذار الذكور،

¹ د. نجيب رياض ، الطب المصرى القديم ، الكرنك للنشر، القاهرة 1970 ، ص 41
² المرجع السابق ، ص 41

ونشأت هذه الفكرة فى أروقة المعابد المصرية القديمة ، وانتقلت من المصريين إلى اليهود ، كما يذكر هيرودوت. وقد استدل المؤرخون على ضرورة إجراء هذه العملية من تمثال للكهنة Anisakha من الأسرة الخامسة (2563-2423 ق م) عارى الجسم مختونا (وهو محفوظ فى المتحف المصرى). وهناك رسوم متعددة لعمليات الإعذار تجرى على الكبار الذين لم تجر لهم فى الصغر .

ومن ثم ارتبط الشرطان السابقان بشرط دينى مهم ، إذ حتمت تقاليد هذه المدارس على كل من يلتحق بها من الأجانب أن تكون عملية الإعذار قد أجريت له ، ولذا منعوا قبول " الأجانب غير المختنتين إذا رفضوا أن تجرى لهم هذه العملية " ¹. ولما كان فيثاغورس ومن بعده الطبيب اليونانى أبقرات فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ومن بعده أفلاطون، قد زاروا مصر وتعلموا ودرسوا فى سراديب المعابد المصرية ، ووقفوا على أسرار العلوم المصرية القديمة ، فإنه يمكننا أن نستنتج أن تكون قد أجريت لهم عملية الإعذار (طهارة الذكور) التزاما بالتعاليم والأوامر الدينية .

وربما كان من الواجب أن نقف قليلا عند مثال واضح فى الفكر الفلسفى اليونانى القديم وهو أفلاطون الذى تأثر بالعلوم المصرية القديمة ، والذى لابد أن يكون قد أتقن اللغة المصرية القديمة ، وبخاصة

¹ د. نجيب رياض ، الطب المصرى القديم، ص 98

أن الفترة التي قضاها مقيما في مصر ليست قصيرة . وهذا ما انعكس بدوره على العناصر الأساسية التي شكلت نظرية المعرفة عنده ، التي يمكن أن نتبين أنها استمدت من ثلاثة مصادر أساسية هي :

الأول : فكرته عن خلود النفس التي استمدتها من أستاذه سقراط الذي تعلم على فيثاغورس وعرف تعاليمه ، وفهم موقف المصريين القدماء من فكرة خلود النفس التي ارتبطت عندهم بمسألة التحنيط وتكريم الميت وتزويده بالطعام والمعدات اللازمة في حياته الآخرة. وهو ما يعنى الاعتقاد في فكرة عودة الروح من عالم إلى عالم آخر¹.

الثاني : أن أفلاطون استمد مذهبه الرياضي وفكرته عن المعقول من فيثاغورس . ونعلم أيضا أن أفلاطون جعل للرياضيات منزلة عالية ، وهو ما يبدو من مقولته المشهورة التي كتبها على باب الأكاديمية " لا يدخل هنا إلا من كان رياضيا " .

الثالث : العناصر الحسية التي استمدتها أفلاطون من أفكار هيراقليطس ، صاحب فلسفة التغير ، وهي عناصر سابقة على صحبته لسقراط . ومن ثم شكل المحسوس عنده قوام العالم الحسى، الذى اكتشف فيما

¹ A. Rosalie David, *The Ancient Egyptians: Religious Beliefs and Practices*, Routledge & Kegan Paul, London and New York, 1986, p . 153.

بعد، أنه أدنى مرتبة ومكانة من العالم المعقول ، الذى احتل منزلة مقدسة عند قدماء المصريين .

هناك جانب آخر من التأثير بالمصريين القدماء يبدو بوضوح فى فلسفة أفلاطون ، وهو فكرته فى الجمهورية عن الطبقات . ويمكن أن نتبين هذا الجانب مما يذكره استرابون الذى يؤكد أن المصريين " قسموا الشعب إلى ثلاث طبقات وسموا إحداها طبقة الجند والثانية طبقة الفلاحين والثالثة طبقة الكهنة . ووكلت لهذه الطبقة الأخيرة رعاية الأشياء المقدسة وللطبقتين الأخريين العناية بأمور الناس ، فكان على طائفة أن تعنى بشؤون الحرب ، وعلى أخرى أن تعنى بشؤون السلم من فلاحه الأرض وممارسة الحرف ، ومن هذه المصادر كان يجبى دخل الملك . أما الكهنة فكانوا يتعاطون الفلسفة والفلك وكانوا رفقاء الملوك ¹ . وبطبيعة الحال لما كان أفلاطون قد أقام فى مصر سنوات طويلة فقد عرف عن المصريين هذا التقسيم الذى لا شك أنه ترجمه نظريا فى الجمهورية .

إنه إذا كان علماء اليونان قد أطلوا على الدنيا بعلمهم ومنهجهم العقلانى ، مما أثر بصورة مباشرة وفاعلة فى حياة البشرية ، فإنهم أنفسهم يعدون حلقة اتصال مهمة عن طريقهم تسربت علوم المصريين القدماء إلى العالم .

¹ استرابون فى مصر ، ص 45

والواقع أن الصلات المستمرة بين اليونانيين والمصريين القدماء تفسر لنا عدة ظواهر ، بل تفسر أهم ظاهرة حدثت فى تاريخ هذه الصلات على الإطلاق والمتمثلة فى قدوم الإسكندر الأكبر إلى مصر . فالكتابات المختلفة تفسر المسألة على أنها كانت عبارة عن غزو وفتح لبلاد جديدة ، وربما كان هذا التصور من بين معطيات فكرة الصلات بين الطرفين ، لكننا إذا نظرنا للأسباب والنتائج أمكن لنا أن نكتشف بعدا حضاريا وثقافيا على درجة كبيرة من الأهمية .

لقد كان للازدهار الحضارى والثقافى والعلمى الذى ساد فى مصر القديمة أثره المهم فى جذب اليونانيين ، كشعب متطلع للرقى، للقيام بزيارات مستمرة للاستفادة من علوم المصريين ، فضلا عن الاستفادة من الناحية الاقتصادية ، لأن مصر كانت مزدهرة اقتصاديا فى تلك الآونة . ومن الطبيعى أن المراكز الاقتصادية المزدهرة تعمل على جذب من هم خارج المركز . هذا فضلا عن الاستقرار والأمن الذى توفر فى مصر القديمة ، فى الوقت الذى شهدت فيه بلاد اليونان اندلاع الحروب العديدة التى أدت إلى زعزعة الاستقرار الاجتماعى ، وتقويض الاستقرار الأسرى الأمر الذى ترتب عليه أن قام أهل اليونان القدماء برحلات وهجرات متعددة إلى مصر القديمة التى اعتبرها أهل اليونان واحة الأمن والأمان بالنسبة لهم .

ويترتب على هذا أن فتح الإسكندر الأكبر لمصر جاء مختلفا عن فتحه لبلاد فارس أو غيرها من البلدان الأخرى . ذلك أن الإسكندر الذى تعلم على يد أرسطو ، فهم أول درس من دروس هذا الأستاذ العظيم فى النظر إلى الأشياء وهو المتمثل فى : كيف أنظر للأشياء نظرة مختلفة عن الآخرين . ولهذا السبب فإن الإسكندر الأكبر حين جاء إلى مصر فاتحا كانت لديه صورة مشرقة لمصر ، سبق أن سمع عنها من أقرانه وزملائه من اليونانيين . ومن ثم فإن هذه الصورة التى تكونت فى الوجدان اليونانى عبر قرون وقبل مجيء الإسكندر إلى مصر ، جعلته ينظر إلى فتحه لمصر على أنه رحلة إلى الأراضى المقدسة¹ وهذا ما تكشف عنه رحلته إلى واحة سيوه لزيارة معبد آمون، وكأنه جاء حاجا إلى هذه البقعة من العالم .

نستنتج من كل ما تقدم أن هناك إتصالا بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة المصرية القديمة ، وأن هناك مظاهر للالتقاء والتأثر فى شتى النواحي الفلسفية والعلمية ، وسوف ينصهر كل هذا عبر أجيال طويلة فى مدرسة الإسكندرية التى سوف تطل بعلموها على العالم لتشع الثقافة والعلوم قديما ، ثم لتبعث من جديد عملاقة شامخة ، ومنارة لكل شعوب الدنيا .

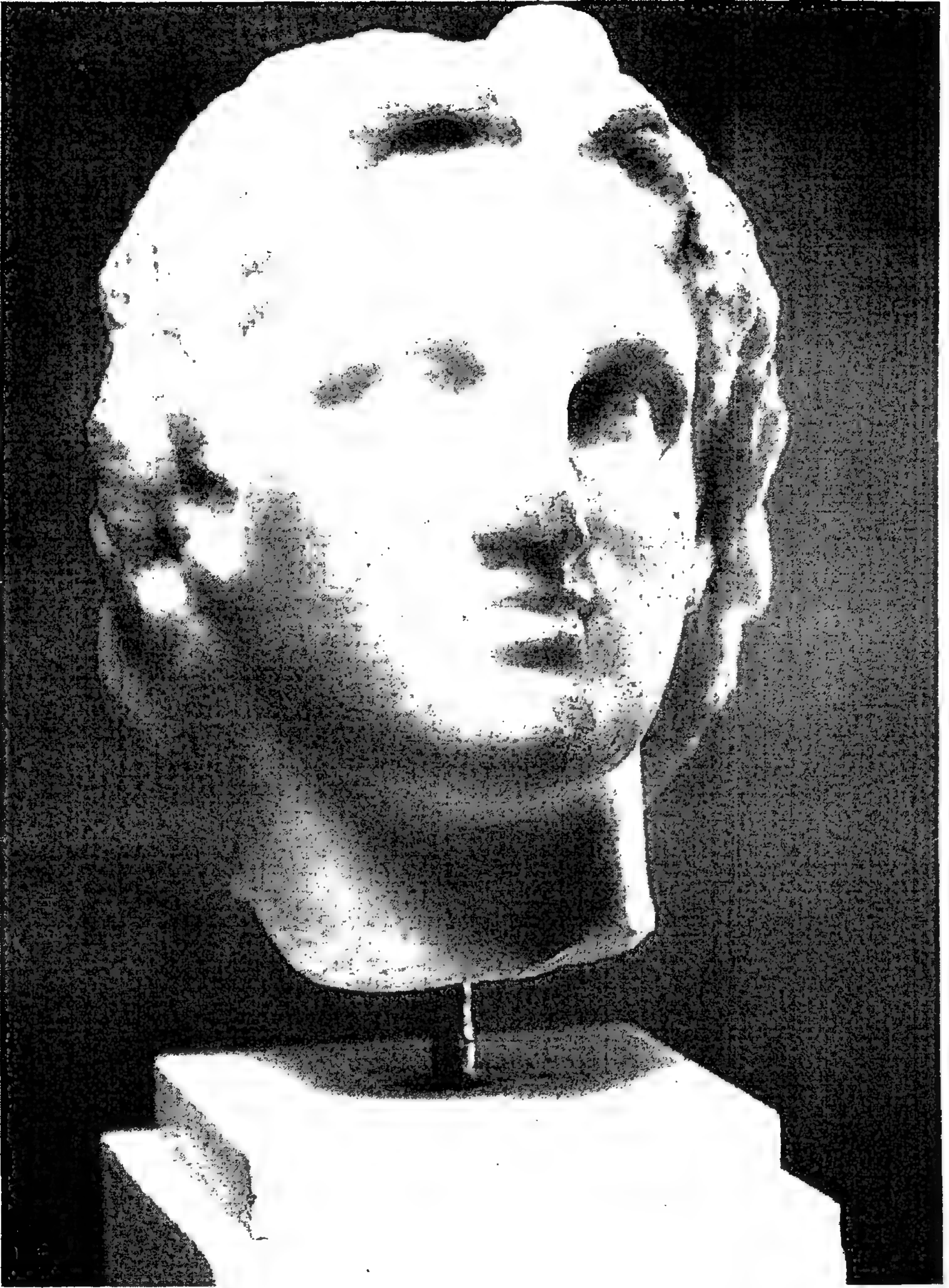
¹ د. نبيل راغب ، عصر الإسكندرية الذهبى : رؤية مصرية علمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993 ، ص 32

جاء الإسكندر الأكبر إلى مصر فاتحاً ليبدأ مسيرته مع تأسيس الإمبراطورية التي أراد لها أن تتسع لتشمل بلدان الشرق المعروفة في ذلك الوقت . وقد احتلت مصر في عقل الإسكندر مكانة خاصة جعلته يهتم بتنظيمها بصورة دقيقة قبل أن يبرحها لاستكمال فتوحاته.

وفى هذا الصدد يرى الدكتور ابراهيم نصحي أن مسألة تنظيم بلاد مصر كانت محور اهتمام الإسكندر الأكبر قبل أن يبرح هذه البلاد ، وجاء تنظيمه دقيقاً . ولما كان المصريون قد رحبوا به بصفته محرر بلادهم ، وكان الكهنة المصريون قد أولوه تأييدهم فمنحوه لقب ابن آمون ، فإن الإسكندر لم ير داعياً لاتخاذ تدابير خاصة لتأمين سلطانه ضد المصريين في نظام الإدارة الذي وضعه لهم ، بل كان كل همه منحصراً في منع كل أولئك الذين عهد إليهم بمقاليد الحكم من الشطط في حكمهم ، أو من الفتنة ضده . ولذلك منح الإسكندر مصر استقلالاً داخلياً¹ . وعلى هذا الأساس فإن النظم التي طبقت في مصر وأقرت من قبل الإسكندر امتازت بمظهرين : أحدهما أن الإسكندر وضع قاعدة بموجبها تقسم السلطة بين عدد من الأفراد لتفادى خطر الانفراد بالسلطة مما يؤثر على مصلحة الإمبراطورية استراتيجياً . وأما المظهر الآخر فيتمثل في روح العطف التي أبدتها الإسكندر تجاه

¹ د. ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976 ، ج 1 ، ص 17

المصريين . ومن هذا التصور يمكن لنا أن نستنتج أن الاسكندر الأكبر أراد للامبراطورية الجديدة أن تستمر في الوجود ، وأن تمثل الرافد المهم لامتزاج الثقافات والتقاء الحضارات ، وهي الفكرة التي سعى إليها والتي حاول من خلالها أن يجعل الثقافة والحضارة اليونانية هي البوتقة التي تتصهر فيها الحضارات الأخرى . وهذا يعنى أنه كانت لديه فكرة عن عالمية الثقافة من خلال سيطرة الثقافة والفكر اليونانى ، على اعتبار أنه يمتلك أسباب القوة .



رأس الإسكندر الأكبر

إذن جاء الإسكندر إلى مصر وهو على يقين تام بأن الحضارة الإغريقية لها الصدارة والتفوق على غيرها من الحضارات المعاصرة لها، وهذا ما جعله ينشد نشر هذه الحضارة في البلاد التي فتحها وأصبحت جزءا من الإمبراطورية اليونانية ، ومن ثم كان لابد للإسكندر أن يؤسس مركزا حضاريا للعالم المتأغرق ينشر من خلاله الحضارة اليونانية في الشرق¹. وما أن فتح الإسكندر مصر عام 332 ق.م حتى عهد إلى مهندسه اليوناني دينوقراطيس بتخطيط الإسكندرية². وكان من الطبيعي أن يختار دينوقراطيس النمط الهيبودامي الشبيه بلوحة الشطرنج لتخطيط المدينة ، فقد شاع استخدام هذا النمط في ذلك العصر ، ثم قام بمد جسر يرتبط بجزيرة فاروس ، ونتج عن هذا الميناء الشرقي الكبير والميناء الغربي الذي عرف بميناء العود الحميد ، وكان الميناء الشرقي أكثر أهمية في العصرين الروماني والبطلمي .

ويصف لنا استرابون الإسكندرية في القرن الأول بعد الميلاد قائلا " إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال في الطول وميلا في العرض "³ كما

¹ المرجع السابق ، ج 1 ، ص 13

² د. مصطفى العبادي ، تاريخ الإسكندرية ، مطابع الاهرام التجارية ، 1999 ، ص 21

³ راجع في ذلك: ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الرابع، 8، ص 73

يذكر بليني أن طول أسوارها يقدر بخمسة عشر ميلا. وجاء تخطيط المدينة بتأسيس شارع رئيسي يبلغ عرضه مائة قدم يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر في مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال " وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضئان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمدة . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدا نحو الغرب حتى راكوتيس وكانت كثرة سكانه من المصريين ، وكان الحي الشمالي الشرقي حتى اليهود ، والجنوبي الشرقي أو البركيوم يحتوى على القصر الملكي والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية ، وكثير من الحدائق الفسيحة ¹. ويذكر العالم والمؤرخ المصري الدكتور جمال الدين الشيال أحد أعلام مدرسة الإسكندرية المعاصرة أن عصر الإسكندر لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المباني ، أما عصر الإسكندرية المزدهر فهو عصر البطالمة ، وقد اتخذها بطلميوس الأول بعد استقلاله بمصر عاصمة له ، ونقل إليها جثمان الإسكندر ، وفي عهد بطلميوس الثاني أنشئت المدينة وأقيمت معظم المؤسسات العامة . وقد ازدهرت الإسكندرية في عهد البطالمة واتسعت

¹ المرجع السابق ، ص 73

مرافقها ، ونمت عمائرها وأصبحت تفوق غيرها من المدن اليونانية والرومانية .¹ ولكن ما هي قصة جثمان الإسكندر ؟

هنا يجب أن نتوقف عند ما يذكره الأستاذ آلان ويس حيث يذكر أن الإسكندر كان يرغب في أن يدفن في معبد الإله أمون بواحة سيوة ، لكن بطلميوس الأول قرر دفنه بالإسكندرية ليكسب لعاصمته دعابة سياسية وقداسة كان في حاجة إليها لتدعيم ملكه وتدعيم مركز البطالمة في مصر . ويذكر أن العديد من الرحالة الذين زاروا الإسكندرية في العصر البطلمي والروماني قد شاهدوا قبر الإسكندر وكتبوا عنه ، ومنهم استرابون . كذلك فقد زار الإمبراطور أغسطس قبر الإسكندر عند دخول الرومان إلى مصر بعد موقعة اكتيوم البحرية 31 ق.م كذلك فمن الثابت زيارة كليوباترا السابعة لهذا القبر في الإسكندرية. كذلك يذكر المؤرخ اليهودي جوزيفوس أن الإمبراطور كاليغولا قد زار القبر في الإسكندرية وأعجب بأكفانه الذهبية . لقد كانت المقبرة قائمة في عصر الإمبراطور الروماني سبتيميوس سيفيروس . وفي عصر الإمبراطور كاركلا. وتذكر المصادر أن الإمبراطور قدم عدة تقديرات في قبر الإسكندر منها عباءة أرجوانية اللون . ولكن تظل معضلة مكان قبر الإسكندر قائمة ، وتشكل لغزاً يستعصي علي الحل ،

¹ د. جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، 1967

ويرجح آلان ويس بعض الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها ، ومنها
مسجد النبي دانيال ومسجد العطارين وكوم الدكة .

التركيب السكاني للإسكندرية

كذلك يمكن لنا من خلال الكتابات العلمية المختلفة أن نعرف طبيعة
التركيب السكاني لمدينة الإسكندرية . وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ
سليم حسن¹ أن سكان الإسكندرية في العهد الأخير من عصر البطالمة
وصل إلى حوالي أقل من مليون نسمة ، ويذكر أن ديودور يقرر أن
عدد المواطنين في الإسكندرية بلغ في أواخر عهد البطالمة ثلثمائة ألف
نسمة، ولكن سليم حسن يؤكد وفقا لهذه التقديرات أنه يحتمل أن اليهود
الذين كانوا يسكنون في الإسكندرية لا يعدون من سكان الإسكندرية
الأصليين . وفي هذا الصدد نجده يشير إلى أن المؤرخ بوليبيوس
Polybius ذكر أن الإسكندرية في الأيام الأخيرة من عهد أسرة
البطالمة كانت تحتوى على ثلاثة عناصر من الناس هي :

1- العنصر المصري الوطنى ، وكان حاد الذكاء طيعا للحياة
المدنية.

2- الجنود المرتزقة الذين كانوا عصاة وعلى استعداد لفرض
إرادتهم على الحكومة .

¹ سليم حسن ، ج 14 ، ص 229-230

3- الإسكندريين وكانوا يميلون بعض الشيء للخروج على حدود النظام المدني .

ويلاحظ سليم حسن أن تقسيم بوليبيوس هذا لم يذكر اليهود من بين هذه الطبقات ، ويرى أن ذلك يمكن تفسيره بأن اليهود قد صبغوا بالصبغة الإغريقية ولم يعد من السهل تمييزهم¹ .

لكن الدكتور هنرى رياض يرى أن التكوين السكانى لمدينة الإسكندرية كان يتألف من ثلاثة عناصر أساسية هي:

1- المصريين

2- اليونانيين

3- اليهود

أما المصريون وهم أصحاب البلد الأصليون فكانوا " مغلوبين على أمرهم يعملون بالحرف الصغيرة أو بالزراعة ، وقد ظلوا محافظين على صبغتهم الوطنية رغم كونهم محرومين من كافة الحقوق السياسية والاجتماعية² التى كان يتمتع بها غيرهم من العناصر الأخرى . والصفة الوحيدة التى اكتسبوها تتمثل فى أنهم رعايا الملك وحكومته المركزية بشكل أساسى .

¹ المرجع السابق ، ص 230

² هنرى رياض وآخرين ، دليل آثار الإسكندرية ، مراجعة د. داود عبده داود ، ص 10 - 11 وإيضاد. إبراهيم نصحي ، ص 312 وما بعدها

وتذكر الكتابات المختلفة أن أهل الإسكندرية كانوا أهل جد ، وأنهم لم يشغلوا أنفسهم كثيرا بالأحداث السياسية ، يعيشون ليومهم في مسرح وجبور. وفي هذا الصدد يذكر بريتشيا أن الإسكندرية " موطن رخاء و ثراء وانتاج غزير ، لا يوجد وقت لدى أحدهم ، فالبعض يصنع الزجاج والبعض الآخر يصنع أوراق البردى ، وفريق ثالث يصنع النسيج ، وكلهم ذوي مهارة فنية عالية يشعرون بها ، ولديهم نقرص في أقدامهم من رقصهم في العمل ، فهم يعملون ولا يتركون العمل اليدوي إلا عند الفجر"¹ أضف إلى هذا أن الروح التجارية كانت من أبرز صفاتهم ، وأن الإسكندرية في ذلك العهد كانت أكبر مركز غلال في العالم القديم لوفرة ما كانت تنتجه مصر من هذا المحصول، وكانت تتجمع عندها التجارة الآتية من الهند كما كانت تربطها بالبحر قناة تنقل فيها المتاجر الآتية من الشرق ثم تنقل إلى أوروبا². وسوف نتحدث عن هذه النقطة فيما بعد .

أما اليونانيون فقد عدوا من ناحية التنظيم السياسي والاجتماعي الرسمي في أعلى درجات التنظيم ، مما أكسبهم كثيرا من الحقوق

¹ Breccia , Alexandria ad Aegyptum , p.41

والنص نقلا عن :

محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية في العالم القديم ، الطبعة الأولى ، 1943 . هامش ص 4 ، وهو مذكور باللغة اللاتينية نقلا عن كلييل. والأستاذ محمد أحمد حسين كان يعمل مديرا لمكتبة بلدية الإسكندرية وقت صدور كتابه وقد نادى باحياء مكتبة الإسكندرية،

² محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية ، ص ص 4-5

والميزات التى لم تكن لغيرهم من عناصر السكان . واندراج العنصر اليونانى فى طبقتين هما:

الأولى ، وهى طبقة المواطنين الكاملين أو الإسكندريين الذين يتمتعون بحقوق المواطن الكامل السياسية والإدارية والاجتماعية، هذا إلى جانب الامتيازات الأخرى التى من بينها الإعفاء من أعمال السخرة والضرائب. وهذه الطبقة هى الطبقة الممتازة من المواطنين.

الثانية ، وتمثل أنصاف المواطنين وهؤلاء لا يتمتعون بجميع حقوق المواطن الكامل ، وأمثال هؤلاء هم من وفدوا إلى البلاد سعيا وراء الرزق.

وأخيرا نجد العنصر اليهودى ، و أن هؤلاء جلبهم بطلميوس الأول بكثرة من الخارج ، لكنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الكاملة داخل البلاد ، وكان لهم دستورهم ، كما كان لهم تنظيمهم الملى الخاص بهم. لكن هناك كتابات أخرى تقدم لنا تقسيما أوفى لأحياء الإسكندرية، إذ يذهب الدكتور ابراهيم جمعة فى كتابه " جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى والنقل عنها وتأثر العقل العربى بعلومها" الذى صدر فى طبعته الأولى عام 1944 ، إلى تقسيم أحياء الإسكندرية فى أواخر حكم البطالمة إلى خمسة أحياء ، وهذه الأحياء تبينها الخريطة الآتية:



خريطة توضح أشهر معالم الإسكندرية في عهد البطالة الأولى

وهذه الأحياء هي¹ :

- 1- حي البروكيوم ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية الناعمة ،
الرافلة في الدمقس ، وفي هذا الحي كانت تقع قصور
البطالمة مشرفة على الميناء الشرقى على طوال المنطقة
الممتدة من السلسلة حتى الأنفوشي .
- 2- الحي الوطنى ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية المكدودة،
الدائبة الحركة ، وهذا الحي كان يقع خلف ميناء العود
السعيد ويمتد من رأس النين إلى الوردیان ، وكانت قرية
راقودة تحتل مكانه قبل انشاء المدينة .
- 3- حي اليهود ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية الممولة ، وكان
يقع خلف الميناء الكبير إلى الداخل فى أول طريق البوليفار
المؤدى إلى كانوب (أبى قير) .
- 4- ضاحية نيقوبوليس ، وكانت تمتد على ساحل البحر فى
موضع الرمل الحالى ، وفيه كانت تتمثل الإسكندرية
العابثة اللاهية .
- 5- الإسكندرية الجادة ، الغارقة فى بطون الكتب ، المتهاككة
على البحث فى المتحف الإسكندرى والمكتبة الملحقة به ،

¹ د . ابراهيم جمعة ، جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى ، الطبعة
الثانية، 1981 ، ص ص 30-31 . وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1944

وكانت تقع بعيداً عن جلبة الحياة في حي راقودة الوطنى ،
ونعيمها ودعتها في الحي الملكى ، ومجونها واستهتارها
في نيقوبوليس ، بعيدا عن شرور المال في حي اليهود .
والواقع أن بعض الكتابات حاولت الترويج لبعض القصص عن
اليهود ودورهم في الإسكندرية وكيف أن اليهود لما تشبهوا بالإغريق
في ذلك العصر وخشى عليهم من ضياع تمسكهم بالدين تم ترجمة
التوراة من العبرية إلى اليونانية فيما يعرف بالترجمة السبعينية . فما
هي قصة اليهود في مصر ؟ وماهى قصة الترجمة السبعينية ؟ وكيف
صورتها لنا الكتابات المختلفة ؟ هذه الأسئلة لابد من الاجابة عليها لأنها
تشكل ركنا مهما في تمام القصة التى روجت للدعاية بأن العرب
والمسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة . لاسبيل لنا لاستجلاء
الحقيقة إلا من خلال الصبر على متابعة تحليل النصوص والوقوف على
مافيها من حقائق من خلال التحليل النقدى المقارن ، إذ النقد وحده هو
الذى يكشف لنا حقيقة ما غاص في أعماق التاريخ وغمض .

الترجمة السبعينية

يشير الدكتور نجيب بلدى¹ إلى أن اليهود فى الإسكندرية نتيجة
لانشغالهم بالامتيازات التى حصلوا عليها أصبحوا يجهلون لغتهم العبرية

¹ د. نجيب بلدى ، التمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية ، ص 50

ويتحدثون اليونانية فحسب ، فخشى رؤساؤهم عليهم ، وعمل حكام البطالمة على احضار أكبر أخصار اليهود إلى الإسكندرية من فلسطين وعددهم اثنين وسبعين حبرا لترجمة التوراة، فعرفت بالترجمة السبعينية. ويرى الدكتور نجيب بلدى أن هذه الترجمة تعد " من أهم الأعمال التى تمت فى العصر السكندرى وفى مدينة الإسكندرية ". ولكن إذا كان هذا هو الرأى الفلسفى الذى ذهب إليه الدكتور بلدى مشايخا رآى جورج سارتون¹ ، فما هى صحته تاريخيا ؟

يقدم الأستاذ محمد أحمد حسين² فى كتابه "مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم" الذى صدر فى عام 1943 تقنيـدا لهذه الرواية مؤكدا أن يوسفوس هو الذى نشر هذه الرواية ، وهى محض اختلاق إذ أنه من الثابت أن يهود الإسكندرية كانوا أكثر ثقافة من يهود فلسطين ، كما كانوا أكثر دراية منهم باللغة اليونانية . وأن ناشر هذه الرواية من المرجح أنه كان يريد أن يكسب الترجمة التى قام بها اليهود فى مصر صفة أصلية محترمة ، ووفق رآى متر³ فإن ترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقية تمت فى عصور مختلفة.

¹ سارتون ، العالم القديم والمدنية الحديثة ، ص 48-50

² محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، ص 15

³ Matter, Essai Historique Sur l'Ecole d'Alexandrie, Tome 1 , pp.74-79

والواقع أن مؤرخ العلم والحضارات ويل ديورانت¹ برغم ميوله الواضحة لليهود وذكره لهذه القصة أيضا فإنه قبل أن يذكر هذه القصة كتب عبارة تقول "وتقص إحدى القصص الخرافية.." ، مما يدل على عدم ثقته في القصص التي تروى في هذا الصدد.

أما مايرويه جورج سارتون من أن ديمتريوس الفاليري هو الذى عرض على بطلميوس الثانى (فلادلفيوس) ضرورة نقل التوراة إلى الإغريقية ، لأن الجماعة اليهودية القوية النفوذ فى الإسكندرية كانت قد ضعف امتلاكها للغة العبرية ، ومن جهة أخرى كان يحتمل أن تجتذب التوراة فى النسخة الاغريقية اهتمام الناس من غير اليهود، مما أدى بالملك بطلميوس الثانى أن يرسل مبعوثين إلى رئيس الكهنة فى أورشليم للحصول على لفائف عبرية للعهد القديم ، ومن ثم " حظى المطلب الملكى بالقبول وسرعان ما استقر فى جزيرة فاروس 72 حبرا يهوديا عكفوا على ترجمة الكتاب المقدس . وربما أطلق على الترجمة أولا Septuaginta duo (نسبة إلى الاثنتين والسبعين عالما) ثم اسقطت الكلمة الأخيرة duo². وعلى هذا الأساس فإن سارتون ينظر إلى الترجمة السبعينية على أنها أهم الأعمال فى ميدان الأدب

¹ ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، الترجمة العربية ، مجلد 8 ، ص 77

² جورج سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة الدكتور عبد الحميد صبره، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، 1959 ، ص 49

والدين العالمى ¹. لكن من جانبنا نرى أن رأى العلامة جورج سارتون بجانبه الصواب لأن ديمتريوس الفاليري فقد مكانته فى القصر الملكى بعد رحيل زميله وصديقه بطلميوس الأول سوتير ² ، ونفى خارج الإسكندرية ولم يتعاون مع فلادلفيوس على ما يرى جمهرة من المؤرخين الحديثين.

وفى هذا الاطار ذهب الدكتور حسن عون فى مقالته عن الإسكندرية فى عصر البطالمة التى صدرت عام 1948 إلى إنه لمن "حديث الخرافة أن يقال أن هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطلميوس الثانى ، والحق أنها صدرت تدريجيا كما ينتفع بها يهود الإسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيلينى وكانوا أعرف باللغة الإغريقية منهم بلغتهم الأصلية . وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة عدة قرون ومنها ترجمت إلى القبطية والسريانية والأرمينية واللغات الأخرى- وكانت الإسكندرية أحد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة وادمج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية

¹ جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج 4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى مذكور وآخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص 194

² Fraser, P.M., *Ptolemaic Alexandria* , vol. I , Oxford University Press , Oxford, 1972 , p .320

واحدة هيأت عصب النزاع بين الوثنية والمسيحية"¹. وهذا يعنى أن الترجمة تمت على مراحل.

على حين ترى كتابات أخرى² أن السبب فى هذه الترجمة يرجع إلى عدة أمور أهمها أن كثيرا من اليهود كانوا قد تأغرقوا وأصبحت اللغة اليونانية هى لغتهم الوحيدة هذا من جانب . وأن اليهود فى ذلك العصر اتخذوا الزى اليونانى وتسموا بأسماء إغريقية مثل بطلميوس وسوتير وغيرها من الاسماء ، ولم تكن هناك صفة مميزة لهم ، هذا من جانب آخر.

اليهود ودور مأسوى

لكن يبدو من المناسب أيضا فى إطار هذه المنظومة التاريخية أن نشير إلى طبقة اليهود الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية فى عصر البطالمة . كيف رسمت صورتهم فى الكتابات التاريخية المختلفة ؟ وهل يفيدنا هذا فى التعرف على الدور الذى لعبه اليهود تاريخيا فى أصل القصة والرواية المزعومة عن نسبة حريق مكتبة الإسكندرية إلى العرب ؟

¹ د. زكى على ، الإسكندرية فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فاروق الأول ، الإسكندرية، المجلد الرابع 1948 ، ص ص 121-140

² د. مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، مكتبة الأنجلو ، 1980 ، ص 112

الذي لاشك فيه أن بعض المؤرخين المعاصرين فطنوا إلى الدور الخسيس الذي لعبه اليهود في حرب الإسكندرية أيام يوليوس قيصر، خاصة وأن حيهم كان قريبا من الحى الملكى . يصور لنا المؤرخ المصرى المعاصر الدكتور إبراهيم نصحى هذا الجانب أبلغ تصوير بقوله : وإذا كان من الجائز أن يكون اليهود في الإسكندرية قد ساعدوا قيصر فى أثناء (حرب الإسكندرية) ، إذ أن حيهم كان يجاور الحى الملكى الذى حوصر فيه قيصر ، وأن يكون قيصر قد كافأهم لقاء ذلك بتوكيد تمتعهم بالامتيازات التى منحها البطالمة إياهم، فإننا نشك فى أن يكون قيصر قد ذهب إلى حد منحهم حقوق المواطنة، لأنه كان من شأن ذلك أولا إثارة عواطف الإسكندرانيين فى وقت كان قيصر ينشد فيه تهدئتهم ، وثانيا أن تحترم كليوباترة ومن بعدها أغسطس إرادة قيصر .

ويقوم الدكتور إبراهيم نصحى كل هذه الجوانب، ولكننا نعرف أنه عندما كانت الإسكندرية تعاني قحطا وأمرت كليوباترة بتوزيع منح من القمح على مواطنى الإسكندرية لم يكن لليهود نصيب من هذه المنح لأنهم لم يكونوا فى عداد هؤلاء المواطنين.¹ ومن جانب آخر قد يكون ، وهذا فى رأينا، عقابا لهم على خيانتهم للبلد الذى استضافهم على أرضه ، والذي لم يشعروا بالانتماء إليه ومن ثم كانت خيانتهم .

¹ د. إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 1 ، 317-318

إن أول نتيجة مهمة يمكن أن نستخلصها من التحليل السابق أن أيدى اليهود الأئمة امتدت بالمساعدة الفعلية للقائد الرومانى يوليوس قيصر الذى أضرم النيران فى الأسطول المصرى والميناء أثناء حرب الإسكندرية عام 48 ق . م ، وهذا يفسر لنا السر وراء انتقال كتاب ابن العبرى اليهودى الأصل والجذر إلى العالم اللاتينى وترويجه للقصة فى الأصل السورىانى أولا وهو ما حفظ فى الترجمة العربية فيما بعد . وهذه نتيجة مهمة وسوف تفيدنا فى متابعة التحليل الأساسى لقصة مكتبة الإسكندرية القديمة .

الحياة النيابية فى الإسكندرية

لكن ماذا عن الحياة النيابية فى الإسكندرية ؟ إنه إذا كانت الإسكندرية قد أسست كمدينة يونانية فإن هذا يعنى أن الإسكندرية قد شهدت حياة نيابية راسخة ، انطلاقا من حرص حكامها الذين أرادوا لها التفوق على أثينا ذاتها ، بل أرادوا لها أيضا أن تسود مدن العالم المتحضر وقتئذ.¹

يذهب هنرى رياض إلى أنه " كان لمدينة الإسكندرية فى العصر البطلمى مجلس تشريعى أو مجلس شيوخ ، يتكون من المواطنين المستوفين لشروط خاصة من ناحية السن والثروة والمكانة ، وقد بقى

¹ د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية عهد البطالمة ، مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول ، المجلد الخامس ، 1949 ، ص ص 83-101

قائما طوال العصر البطلمي حتى أصبحت مصر جزءا من الإمبراطورية الرومانية ، فرأى الإمبراطور أغسطس ، أول أباطرة الرومان ، أن يلغى هذا المجلس وأمر أهل المدينة أن يديروا شئون مدينتهم بأنفسهم دون أن يكون لهم مجلس تشريعى¹. وعلى هذا الأساس بقيت الإسكندرية بغير مجلس تشريعى لأكثر من مائتى عام، الأمر الذى انعكس بالضرورة على حالة المدينة ومكانتها ، مما أدى إلى تدهورها اقتصاديا . ولكن ينبغى علينا أن نتوقف عند هذه النقطة قليلا، إذ أن مسألة وجود المجلس التشريعى فى مدينة الإسكندرية مهمة لمكانته المعنوية ، كما يذكر ذلك الدكتور لطفى عبد الوهاب الذى يؤكد أن " مجلس المقدونيين ومجلس السكندريين لم يكونا المجلسين الوحيدين اللذين عرفتهما مدينة الإسكندرية ، فقد كان هناك كذلك مجلس الشورى Boule . حقيقة لقد ثار الخلاف حول وجود هذا المجلس أو عدم وجوده"². ويعرض الدكتور لطفى عبد الوهاب للأراء التى تنفى وجود المجلس التشريعى فى الإسكندرية ويرفضها على أساس بعض الشواهد المهمة التى من بينها " الخطاب الذى وجهه الإمبراطور كلاوديوس إلى السكندريين، والذى يقول فيه ، فى أثناء مناقشته لالتماسهم بخصوص

¹ هنرى رياض ، المرجع السابق ، ص 11

² د. لطفى عبد الوهاب، دراسات فى العصر الهلينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1999 ، ص 285

إقامة مجلس للشورى " أما عن أنكم كنتم تتمتعون بمجلس للشورى فى عهد ملوكم الأقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه " ¹. وبطبيعة الحال هناك شواهد أخرى على وجود المجالس التشريعية ، إلا أن أهمية هذه المسألة تأتي من خلال التدليل على عمق الممارسة السياسية لدى أهل الإسكندرية وأهمية هذا فى التدليل على البعد الديمقراطي لديهم ، وهذا ما جعل ممارستهم الشعبية تكتسب بعداً تاريخياً له دلالاته فى تأصيل الفكر الشعبى الديمقراطى.

وهناك نظرة أخرى ذهب إليها جرينوج فى مجموعة المحاضرات التى ألقاها عام 1946 بعنوان مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى التى نشرت عام 1954 حيث يؤكد فى نص مهم عن مجلس الشورى فى الإسكندرية : وكان يعيش فى الإسكندرية منذ البداية خليط من السكان فى مقدمتهم مجموعة المواطنين المتمتعين بكافة حقوق المواطنة ، وهم الاغريق أو من تجرى فى عروقهم دماء اغريقية . وكان هؤلاء كمواطنى المدن الاغريقية الحرة ينقسمون إلى قبائل Phylae وأحياء Demoi، ولهم مجلس للشورى Boule وجمعية شعبية، وفيهم الموظفون المعروفون فى المدن الاغريقية الحرة . ولم يكن بالإسكندرية مجلس للشورى تحت حكم الرومان حتى اعتلى العرش

¹ المرجع السابق ، ص 286

الامبراطور سبتيميوس سيفيروس¹ Septimius Severus ولا يزال
الجدل محتدماً حول مسألة مجلس الشورى ، وهل وجدته أغسطس قائماً ،
وهل هو الذى ألغاه؟². ويعتمد جريجينيوج على الدليل العكسى فى فهم
طبيعة الأشياء وفى تفسيره لوجود مجلس الشورى حيث يقرر فى نص
له " وعندى أن الإسكندرية لم يكن بها مجلس للشورى عندما فتحها
الرومان، لكن من العسير علينا أن نتصور أن الإسكندر قد شيد مدينة
اغريقية بدون مجلس للشورى "³. وهذا يعنى أمرين هما: الأول ، أن
الإسكندر فى تأسيسه للإسكندرية إنما أسسها على ذات النمط السياسى
الذى كان سائداً فى المدن الإغريقية التى كانت الممارسة السياسية أهم
ما يميزها. والثانى ، أن السيطرة الرومانية على الإسكندرية أدت إلى
تأخرها بصورة كبيرة ، وأبرز ما يظهر هذا التأخر تراجع الممارسة
السياسية الشعبية .

لكننا الآن نريد أن نتوقف عند الجوانب الثقافية المهمة بالنسبة
لإسكندرية التاريخية لنربط كل هذا بالإسهام المعاصر والنهضة الشاملة
التي تشهدها هذه المدينة ووضعها على الخريطة العالمية، وأهمية هذا

¹ حكم فى الفترة من 193-211

² جريجينيوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، محاضرات العام 1946 ،
ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، د. محمد عواد حسين ، القاهرة ، 1954 ، ص ص

99-100

³ المرجع السابق ، ص 100

الوضع بالنسبة لمصر وللشرق بأسره وانعكاساته على مسار الحضارة
والفكر العالميين . ولن يبدو لنا هذا إلا من خلال تتبع المظهر الثقافى
الرائد للإسكندرية كمدينة عالمية، من خلال المتحف والمكتبة لنعرف
إلى أى حد ساهمت الإسكندرية وأعلام الفكر والعلم فيها عبر العصور،
فى التكوين الثقافى العالمى وفى مسيرة الحضارة بصفة عامة.

الفصل الثانى

علم البطالة

المشروع الثقافى

تعتبر الإسكندرية من أهم دول العالم تاريخيا نظرا لما حازته من شهرة عالمية عبر التاريخ انطلاقا من سمعة مكتبتها، والأهمية التي احتلتها بين الباحثين العرب وغير العرب على السواء . وربما طغت هذه الشهرة على المتحف ؛ وأدت أيضا إلى الخلط بين المكتبة $\beta\iota\beta\lambda\iota\omicron\theta\eta\kappa\eta$ والمتحف Mouseion في كثير من الأحيان . والسؤال : أيهما أسبق إلى الوجود ، المتحف أم المكتبة ؟ سؤال له أهمية معرفية مباشرة تتصل بطبيعة النشاط الذي نتج عن المتحف والمكتبة. وهذا السؤال لا يقل أهمية عن مؤسس المتحف والمكتبة . هل هو شخص واحد ؟ أم أنه أكثر من شخص ؟ وما طبيعة التوجهات التي أدت إلى اختيار شخص بعينه في كلتا الحالتين ؟ إن مثل هذه الأسئلة تؤدي بالضرورة إلى محاولة التعرف على المتحف والمكتبة ، انطلاقا من تصور ثابت بوجود دور فاعل لكل منهما في الحياة الثقافية المصرية .

وحتى نعرف الإجابة على كل هذه التساؤلات نتناول في هذا الصدد بالتحليل والفهم دور المتحف ثم المكتبة لنعرف الخريطة العامة للفكر الثقافي في أوائل عصر البطالمة .

أما المتحف كما يصفه استرابون، فإنه يشكل كيانا متكاملا ، وهو جزء من حي القصور الملكية . يقول استرابون في هذا الصدد "والقصور على أية حال متصلة بعضها ببعض وبالميناء . والمتحف

أيضا جزء من القصور الملكية وهو يضم ممشى ورواقا خارجيا وبيتا كبيرا فيه منتدى العلماء والمشاركين فى المتحف وأموال هذه الجماعة مشتركة بينهم ولهم أيضا كاهن يشرف على المتحف ، كان الملوك يعينونه فيما مضى ويعينه قيصر الآن¹.

وهنا لابد لنا أن نتوقف عند ما يذكره استرابون Strabo خاصة وإنه كاتب له مكانته الفكرية ودوره البارز فى ذكر أحداث كثيرة مهمة ، هذا فضلا عن إنه كان أول كاتب ومفكر يزور الإسكندرية بعد قرابة ربع قرن من الحريق الذى أصاب الميناء والمكتبة على يد يوليوس قيصر ، هذا من جانب . كما أنه أقام فى الإسكندرية لمدة خمس سنوات متواصلة، ومن وصفه ، ربما يكون قد أقام فى المتحف مع علماء عصره متمتعاً بكل المزايا التى كان يتمتع بها العلماء ، هذا من جانب آخر . والأمر الذى يستوقفنا فى عبارة استرابون اغفاله ذكر المكتبة ، وهذا الأمر ربما يدل على أن المكتبة لم تكن موجودة على الأرجح وقتئذ ، إذ لو كانت موجودة ما تردد استرابون عن وصفها ، وذكر مكوناتها وما بها من كتب مختلفة ، وهنا أيضا نجد مسألة أخرى جديرة بالملاحظة وهى التساؤل عن المصدر الذى من خلاله حصل استرابون على الكتابات التى أعانته على تأليف موسوعته التى أمضى فى كتابتها قرابة الخمس سنوات . هل كانت هناك مكتبة أخرى داخلية

¹ استرابون فى مصر ، ص 60

فى المتحف بخلاف المكتبة الأم التى نعرفها؟ أم أنه أحضر ما يحتاجه من كتابات معه عند قدومه إلى الإسكندرية ؟ لنرى إذن فى التحليل التالى أهمية عبارة استرابون من الناحية المعرفية فى شقها الأول ثم نحاول تعقب مسألة حصوله على الكتب .

تشير عبارة استرابون إلى أن المتحف كان داخل القصور الملكية، وربما أقام فيه العلماء ، وهذا ما جعل بعض المفكرين يؤكد أن المتحف، أى دار العلم " كان يقيم فيها على نفقة الحكومة عدد من العلماء والأدباء لا تجنى منهم ضرائب " ¹ ، لأنهم كانوا يقدمون للدولة خدمات علمية جليلة تدفع البحث العلمى قدما إلى الأمام . وكان استرابون يريد أن يقول لنا إن الدولة حرصت فى الزمن القديم على تقديم كافة التسهيلات للعلماء والمفكرين بلا حدود، لأنهم بمثابة العقل من القلب ، ولأنهم الواجهة الثقافية والعقلية للدولة . ويترتب على هذا أن الدولة استطاعت أن تجنى من وراء جهدهم ثمار نهضتها .

لكن لنا أن نتساءل أيضا : إذا كان العلماء يقيمون فى المتحف ويتمتعون بكافة الامتيازات ، أليس من الطبيعى إذن أن تكون لهم مكتبة يلجؤون إليها للحصول على ما يلزمهم من الكتابات أثناء إجراء بحوثهم العلمية ؟ وهل إذا كانت هناك مكتبة فى المتحف ، هل هى المكتبة الأم التى يشار إليها عادة بأنها احترقت ؟ أم أن المقصود أنه كانت توجد

¹ جريجيينوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص 103

مكتبة صغيرة تخدم أغراض البحث العلمى للعلماء داخل المتحف ،
وفى هذه الحالة تصبح مكتبة المتحف قاصرة على العلماء دون
الجمهور ؟

يستوقفنا فى كلام استرابون الذى أشرنا إليه بعض العبارات التى
تحمل دلالة تاريخية فيما يتعلق بالمتحف ، وسعينا وراء معرفة
تفاصيله. ومن أهم ما تركز عليه عبارة استرابون قوله " والمتحف
أيضا جزء من القصور الملكية" ، وأن العلماء داخل المتحف يشكلون
جماعة علمية فيما بينهم ، وهذه الجماعة " مشتركة ولهم أيضا كاهن
يشرف على المتحف " ، وهذا الكاهن " كان الملوك يعينونه فيما
مضى". إن هذه الإشارات تتطلب منا بعض التحليل للوقوف على
المزيد من المعلومات عن المتحف ودوره كدار علم.

وأول ما يسترعى الانتباه فى هذا الشأن فى هذا الشأن ذلك التحديد
الذى يشير إليه الأستاذ جورج سارتون من أن المتحف (الموسيون)
هو مركز البحوث العلمية¹، وهو معهد العلوم بالإسكندرية، وقد ألحق
به معبد لربات الفنون والعلوم² Musae على غرار ماكان متبعاً فى

¹ سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 257

² جريجينيوج ، المرجع السابق ، ص 103

المدارس الفلسفية اليونانية¹، بخاصة أنه أسس على نمط لوكيون أرسطو.²

والجدير بالذكر أن بطليموس الأول (سوتر) القائد العسكرى والمفكر اليونانى ، رأس الأسرة البطلمية ومؤسسها فى مصر ، هو الذى أنشأ " مركز الأبحاث المعروف بالمتحف (الموسيون) " ³، الذى عهد به فى أول الأمر إلى الفيلسوف الأثينى ستراتون ليضع أفكاره وتصوراته الأساسية خاصة وأن الملك بطليموس الأول سوتر كان يرغب فى أن يقوم ثيوفراسطس بهذه المهمة لكنه لم يوفق ، وهذا يعنى أن الدور الذى أنيط بالمتحف منذ البداية ارتسمت معالمه على هيئة مشروع ثقافى يضارع المشروع اليونانى فى أثينا . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ سارتون فى نص مهم عن المتحف " ويرجع الكثير من الفضل فى نموه إلى أنصاره الملوك . وهذه الإشارة مهمة لأننا نستطيع أن نربط بين النهضة الشاملة التى تشهدها الدولة وبين توجهات الحاكم ، لأن الحاكم المستتير الذى يعرف قيمة الثقافة والمعرفة يهتم بالواجهة الثقافية لبلده ويأتى اهتمامه هذا من منطلق إيمانه بأن الثقافة والفكر مكونان رئيسيان فى النهضة.

¹ د. نجيب بلدى ، التمهيد ، ص 36

² د . حسين الشيخ ، العصر الهلينستى ، ص 112

³ El- Abbadi , M ., *The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria* , p . 41

ولكن أكثر من هذا الكثير يرجع إلى ستراتون Straton تلميذ ثيوفراسطس وأحد أبرز علماء الطبيعة في عصره . جاء ستراتون من أثينا إلى الإسكندرية تلبية لدعوة صديقه الملك بطليموس الأول (حوالي سنة 300 ق م) ، ولنا أن نعدّه المؤسس الحقيقي للمتحف لأنه نقل إليه الطابع العقلي الذي انطبعت به مدرسة اللوقيون ، وإليه يرجع الفضل في تحول المتحف إلى معهد للبحث العلمي بدلا من تحوله إلى مدرسة للشعر والخطابة¹. وفي هذا الإطار وجدنا سارتون يعقد مقارنة بسيطة بين المتحف في بلاد اليونان والمتحف في الإسكندرية . أما المتحف عند اليونان فلم يكن إلا معبدا لربات الشعر والتاريخ والفلك التسع ، على حين أن متحف الإسكندرية "كان معهدا من نوع جديد بلغ من أهميته أن تغلغل اسمه في كثير من اللغات فاحتفظت به"². ويبدو أن طبيعة تكوين ستراتون أثرت على الطابع العام للمتحف فقد كان مهتما بدراسة الطبيعة تحت تأثير التعاليم غير المباشرة لأرسطو والتعاليم المباشرة لأستاذه ثيوفراسطس ، ويذكر الأستاذ سارتون أنه ظل في مصر سنوات طويلة "حتى دعى إلى أثينا عند وفاة الفيلسوف ثاوفراسطوس أحد أكبر تلامذة أرسطو وشراحه سنة 288 ، وهناك

¹ سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة وتقديم الدكتور عبد الحميد صبرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1959 ، ص 32

² سارتون ، المرجع السابق ، ص 31

عين زعيما أو رئيسا على مدرسة اللوقيون (فكان ثالث زعمائها)
وأشرف على إدارتها نحو ثمانية عشر قدما عاما (من حوالى سنة 288
إلى حوالى سنة 270)¹. ويبدى سارتون إعجابه الشديد بأن يكون
المسؤول عن تنظيم المتحف فى بدايته تلميذا متخرجاً من مدرسة
اللوقيون ثم صار زعيماً للمدرسة فيما بعد . وهذا يدلنا على أن
ستراتون هو مؤسس المتحف وأنه قد أنيطت به هذه المهمة أصلاً.
يبقى علينا أن نميز فى عبارة استرابون ما أشار إليه من أن العلماء
داخل المتحف كانوا يشكلون "جماعة" ، وهذه الجماعة لها "كاهن"
يشرف على شئونها . إن هذه الأفكار التى يشير إليها استرابون إنما
تبين أن العلماء فى ذلك العصر كانوا ينخرطون فى جماعات علمية ،
وفكرة الجماعات العلمية على هذا النحو إنما تكون قديمة جداً ويكون
القدماء قد تنبهوا لها قبل أن يعرفها المعاصرين من مؤرخى العلم أمثال
توماس كون وغيره . ومن ثم تصبح الجماعة العلمية بالصورة المشار
إليها ذات تنظيم علمى ديناميكى يميزها عن غيرها من الجماعات
العلمية الأخرى التى قد تكون موجودة تاريخياً فى أماكن أخرى فى تلك
الفترة . وفكرة وجود تنظيم وهيكـل للجماعة العلمية يعنى أيضاً أن مثل
هذه الجماعة ذات تدرج طبقي تتمايز فيه الأجيال العلمية ، وتصبح
مقاليد الأمور متدرجة بين الأجيال العلمية داخل الجماعة ، ويمسك

¹ المرجع السابق ، ص 32-33

بخيوط التماسك بين الأجيال جميعا شخص قادر على ادارة شئون الجماعة ، وعارف ببواطن الأمور فيها ، ويتمتع بمقدرة علمية وثقافة ومعرفة واسعة وفوق ذلك تكون له وظيفة ضابطة من الناحية الدينية ، وهذا هو الكاهن الذى كان يتمتع بنفوذ قوى وثقل علمى داخل المؤسسة ككل . وما نفهمه أيضا من العبارة التى أوردها استرابون أن تعيين "الكاهن" من قبل الملك يعنى أن أوامره نافذة المفعول وأن لديه الصلاحيات لتوفير كل ما يحقق للجماعة العلمية الاستقرار العلمى والنفسى والاجتماعى ، وما يتطلبه هذا الاستقرار من الاتصال بأجهزة الدولة المختلفة لتوفير احتياجات جماعة العلماء حتى يتفرغوا للابداع العلمى أو الفنى أو الأدبى أو غيره من صور الانتاج الفكرى . وربما كشف كل هذا عن بعد آخر مهم يتمثل فى أن الكاهن بما أنه كان معيناً بأمر ملكى فإنه بالتالى يمكنه الاتصال بالملك مباشرة لحل المشكلات التى قد تقف أمام مطالب العلماء ، أو قد يدعو الملك لحضور اجتماعات الجماعة العلمية أو الندوات التى تعقدها . لكن لاينبغى أن نتصور أن وظيفة الكاهن امتدت لتشمل المكتبة التى كان أمينها يعين بمرسوم ملكى أيضا ، وله وظائف تختلف عن وظائف الكاهن فى المتحف ، وهذه بطبيعة الحال مسألة تسترعى الانتباه: وظيفة الكاهن تقوم على أمر العلماء ، ووظيفة أمين المكتبة تقوم على رعاية عقل العلماء .

إننا إذا وثقنا فى نص سارتون ، وليس هناك ما يدعونا لغير ذلك،
لوجب أن نمسك عن النصوص التى لا تميز بين المتحف والمكتبة:
المتحف هو مركز البحوث العلمية وفيه منتدى العلماء ، والمكتبة مركز
الدراسات الإنسانية، وهى عقل الموسيون ، على ما يذهب الأستاذ
سارتون . وهذا يعنى أن أول فكرة علمية منهجية وصحيحة نشأت
فى عقل الذين فكروا فى الأمر تمثلت فى ضرورة وجود مركز
للأبحاث العلمية بجوار المكتبة ، وهى فكرة تجعل للمكتبة حيثيتها
ووجودها الفاعل . فمن المعروف أن مراكز البحث العلمى لا تستغنى
عن مكتبة يلجأ إليها رجال البحث العلمى بين الحين والآخر ليحصلوا
منها على المادة العلمية التى يحتاجونها فى كتابة أبحاثهم ، وحتى
يمكنهم توثيق دراساتهم أيضا ، وهذا ما جعل دراسات توثيق الكتب
وملحقاتها تزدهر فى الإسكندرية لتشكل الارهاصات الأولى لعلم
متكامل.

لكن ربما قابلتنا فى هذا الصدد بعض التساؤلات ، وبخاصة أن
استرابون، وهو من أقدم المصادر التاريخية التى لدينا ، يقول
"والمتحف أيضا جزء من القصور الملكية " ، على حين أن الأستاذ
سارتون لا يأخذ بهذا الرأى ، ويذهب إلى حد القول " والشئ المؤكد
هو أن الموسيون والمكتبة ، كليهما - مع أنه لم تضمهما أرض
القصور الملكية - كانتا على الأقل فى البركيون ، وهو الحى المقدونى

- اليونانى فى الإسكندرية، وأنهما خضعا معا للأوامر الملكية¹. لكن الأستاذ سارتون يؤكد فى موضع آخر عبارة أخرى أكثر احتمالا إذ يقول "ولكن يحتمل أن المكتبة كانت جزءا مكملًا للمتحف (كما يكون لكل معهد من معاهد البحث مكتبة خاصة به)؛ والمعهدان كلاهما كان قائما فى المدينة أو الحظيرة الملكية ، وكلاهما كان معهدا ملكيا على نحو يقربهما من المعاهد الحكومية فى أيامنا ، لأن الملك كان هو الدولة، ولم يكن شىء من الأشياء التى يقصد بها الصالح العام ينشأ إلا بأمره وعلى نفقته . وقد كان المتحف والمكتبة من المرافق العامة² وهما معا يخضعان للأوامر الملكية . إن هذا النص والنص السابق مباشرة يتعارضان تماما مع نص استرابون ، ولكن مع هذا التعارض نجد أن سارتون يعلق فى الهامش على عبارته السابقة بقوله " كان البروخيون هو الحى الأرستقراطى فى مدينة الإسكندرية القديمة ، وموقعه من جنوبى الميناء الكبير إلى رأس لوخيلاس الواقع شرق الميناء، واشتمل هذا الحى على القصور الملكية ، ومصالح الحكومة ودور السادة من المقدونيين واليونانيين ، فضلا عن الضريح الملكى والموسيون والمكتبة³ .

¹ سارتون ، المرجع السابق ، تاريخ العلم ، ص 257

² سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ، ص 37

³ المرجع السابق ، تاريخ العلم ، ص 283

إن هذه العبارة الأخيرة بادية التعارض مع العبارة السابقة ، إذ كيف يتسنى القول أن الموسيون والمكتبة لم تضمهما أرض القصور الملكية، وأنها تشتمل عليهما في الوقت ذاته .

لقد وصف لنا الأستاذ بتلر أرض القصور الملكية ، أو البروكيون، موضحا أنها كانت فخمة ورائعة الجمال . وفى هذا الصدد نجده يقول " وكان أفخم أحياء أنحاء المدينة فيما مضى جهة اسمها (البروكيون) وكان إلى شمالها ميناء الإسكندرية وإلى جنوبها الشارع الأعظم الآتى من باب الشمس إلى الحدائق الوسطى بالمدينة"¹. وحى البروكيون هو أكثر أحياء المدينة سكانا وأعظمها فخامة ، وكان محاطا بالأسوار المنيعة . هذا وكما يذكر الأستاذ بتلر "كانت فيه قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الإسكندر فى غشاء الذهب"². أضف إلى هذا ما تؤكدته الكتابات التاريخية الحديثة من أن المتحف والمكتبة كانا جزءا من منطقة القصور الملكية ، وأن هذه المنطقة بالنسبة لاسترابون تؤلف ربع أو ثلث المدينة³.

وأيا كان الأمر ، وجد المتحف ووجدت المكتبة ، داخل أو خارج القصور الملكية ، وكانا يخضعان مباشرة للأوامر الملكية .

¹ بتلر ، فتح العرب ، ص 390

² المرجع السابق ، ص 390

³ د. مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ص 41-42

إذن عبارة استرابون السابقة بينت لنا كيف أن التقاليد التى أرساها ملوك البطالمة فى الإسكندرية البطلمية كانت تمثل امتدادا طبيعيا لتقاليد مصر القديمة الفرعونية فى العلم ، وهى تلك التقاليد التى انتقلت إلى اليونانيين عبر الصلات التى تمت بين مصر القديمة واليونان ، خاصة وأن اليونانيين قد جاءوا إلى مصر القديمة فى رحلات اثر رحلات ليقفوا على علومها وأسرار تقدمها ، وقد شكل كل هذا فى فترة من الفترات نقطة انطلاق للعلوم اليونانية ، وفى الوقت نفسه أدى بصورة أساسية إلى أن يفهم العالم الغربى القديم ممثلا فى اليونان كدولة عظمى فى ذلك الوقت ، أهمية مصر كدولة مفتاحية فى الشرق ودورها الرائد فى حركة العبور من الغرب إلى الشرق ، وربما فسر لنا كل هذا اهتمام الإسكندر الأكبر بفتح مصر وإظهار علامات الولاء للديانة المصرية القديمة .

إلا أن هناك نقطة أخرى لابد وأن ننتبه إليها فى حديث الأستاذ سارتون وهى المتمثلة فى تأكيده على أن المكتبة وما يتم بداخلها ، وحتى العلماء يتم الانفاق عليهم من قبل الملك . وهذا يعنى أن الملك كان يدرك المكانة الرفيعة التى يشغلها العلماء فى دولته ، كما يدرك أيضا أن فى رعايتهم ثقافيا وعلميا ازدهار للدولة وعملا على تقدمها . ونحن نعلم من خلال النصوص التى وصلتنا عن النهضة التى ازدهر من خلالها العالم الإسلامى أن خلفاء المسلمين اهتموا بالعلماء وأغدقوا

عليهم وأنزلوهم منزلة عالية ، مما وفر لهم أسباب الحياة الحرة الكريمة التى دفعتهم بالتالى إلى بذل قصارى جهدهم لتقدم الأمة . وربما توارث الحكام والخلفاء العرب هذا التقليد عن الإسكندرية القديمة وتقاليد ملوكها .

لكن يجب علينا قبل أن نبين جوانب النهضة والازدهار الذى عاشته الإسكندرية ، أن نتساءل عن المكتبة : كيف تأسست ؟ ذلك لأن مثل هذا السؤال سوف يبين لنا إلى أى حد يتواصل الحاضر مع الماضى ، وكيف يمكن للأجيال والحضارات أن تتواصل معا وتتجاوز عبر الفهم المشترك لطبيعة المنظومة الثقافية للماضى والحاضر .

اجتهد البطالمة فى تحقيق مشروعاتهم وحلمهم الفكرى والثقافى المتمثل فى المكتبة الذى ينافس أثينا ومكانتها الفكرية التى احتلتها عبر القرون، وهنا بدأت تبرز على السطح ، ولأول مرة ، فكرة المنافسة العلمية والثقافية والريادة فى ميادين الفكر ، خاصة وأن الإسكندرية كمدينة جديدة كانت بيضاء الثوب لم تتلوث بعد بالمفاسد السياسية أو الفكرية التى كانت قد بدأت فى الانتشار فى أثينا ومعاقلة الفكر اليونانى التى انصرف روادها إلى الطمع فى السلطة والتناحر عليها وهو ما يبدو واضحا ، على سبيل المثال فى حالة ديمتريوس الفاليريى الفيلسوف والخطيب السياسى الأثينى الذى جاء فارا إلى مصر فى أعقاب الانقلاب الذى أطاح به طمعا فى السلطة.

كانت مكتبة الإسكندرية هي نقطة تحقيق هذا الحلم الثقافي ومحوره الأساسي . ولذا عمل ملوك البطالمة على اقتناء المخطوطات والمؤلفات العلمية والإنسانية من أنحاء المعمورة ، مما أدى إلى ازدهار المكتبة ونموها بصورة تسترعى الانتباه في فترة وجيزة. وقد تطلب هذا انفاقا على المكتبة بلا حدود فقد " بلغت مكتبة الإسكندرية بفرعيتها من الثروة العلمية ، ومن دقة النظام ، ومن حسن الإدارة ، ومن كثرة النفقات درجة لاتقارن في ذلك العالم القديم ، حتى لقد اتهم الكاتب المشهور سينكا Seneca وهو أحد أدباء الرومان ومن أكبر فلاسفتهم، الغاية من تلك المكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهرا من مظاهر البذخ والثراء لملوك الإسكندرية ¹

وفي هذا الإطار نلتقى بالتفكير العقلي الواعي الذي انطلق ابتداء من شرارة تأسيس المكتبة في عهد بطليموس سوتر، واستمر إلى أن أصبحت المكتبة ذات شهرة عالمية في كل أنحاء العالم القديم، وحتى عصرنا هذا الذي أعيد فيه إحياء المكتبة وبعثها من جديد. فقد أدرك ملوك البطالمة قيمة مهمة الاشراف على المكتبة فاختاروا لإدارة شئونها والاشراف عليها أكبر أساتذة العلم وأئمة الأدب كي يزيديا في ثروتها العلمية بما ينتجونه من مؤلفات ، وفي ثروتها الأدبية بما كان

¹ د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية ، ص 93

لهم من شهرة ومكانة بين المعاصرين.¹ وهذا هو السر الأكبر وراء فكرة المنافسة التي استشرت بين المفكرين والعلماء فى المكتبة للنهوض بها وجعلها أعظم مكتبة فى العالم القديم على أسس عقلانية .

ويجدر بنا أن ننتبه إلى ما مثلته مفردات العقلانية من منطلقات حيوية فى سبيل نهضة المكتبة بصورة شاملة ، خاصة حين وضعت الأقدار مشروع المكتبة ككل منذ اللحظة الأولى للتأسيس بين يدى فيلسوف له رؤية معرفية ومنهجية مثل ديمتريوس الفاليري الذى تخرج فى مدرسة الفكر الأرسطى وعرف مكونات الفكر الأرسطى وتوجهاته. وهذه النقطة بطبيعة الحال شكلت كل ما اختاره ديمتريوس الفاليري من كتابات ومخطوطات تم انتقاؤها لتسهم فى إثراء الحوار الفكرى بين القديم ، الذى جاء من الحضارات الأخرى ومن أثينا ذاتها، وبين الوليد الحديث فى الإسكندرية المتمثل فى مكتبتها التى لعبت دورا ثقافيا وعلميا مهما عبر التاريخ.

إن هذه التوجهات كانت تعنى فى الوقت ذاته أن الإسكندرية بدأت تتألق وتأخذ دورها الرائد كعاصمة ثقافية جديدة ذات روح جديدة وعقل متفتح جديد ، ينظر ويتأمل وينتج فى إطار انفتاح مطلق على العالم بنظرة ملؤها الأمل فى مستقبل مشرق . وهنا يبدو السؤال والطرح الجديد : هل تعيد المكتبة فى ثوبها الحديث نزعتها الحوارية والعقلانية

¹ المرجع السابق ، ص 94

مرة أخرى ؟ وهل تصبح الإسكندرية عاصمة للثقافة العالمية كما كانت من قبل ؟ كل هذه التساؤلات تطرح نفسها علينا وعلى المفكرين والمتقنين في الشرق والغرب على السواء ؟ وكيف يمكن تصور منظومة التفاعل الثقافي التي سوف تأخذ مسارها في المكتبة بين المفكرين ؟ إن هذه المسألة لا بد وأن تكون موضع تفكيرنا واهتمامنا ونحن نستقبل هذا الحدث الثقافي . وهذا يعنى أن استقبال هذا الحدث الثقافي سيشغل المفكرين لسنوات طويلة ، يتطلعون فيها إلى تفعيل منظومتهم الفكرية والثقافية لتواكب ما يدور حولنا في هذا العالم من أفكار وتيارات ثقافية جديدة .

ومن جانب آخر فإن الدور الثقافي لمكتبة الإسكندرية الحديثة اتساقا مع روح الشرق الجديد ، لا بد وأن يأتى واعيا بالمتغيرات الثقافية العالمية ، وانعكاسات العولمة على المنطقة ككل باعتبارها أحد المعطيات الثقافية المهمة في عالم اليوم . ومن هذا المنطلق أيضا لا بد لنا من التفكير في تأثير التيارات الثقافية العالمية على الهوية الوطنية ، ومدى الأثر الذي سوف تخلفه هذه الثقافات ايجابا وسلبا .

إن كل هذا يجعلنا نفكر أيضا في لغة الحوار التي سوف تستتجها الحلقات النقاشية في المكتبة ، خاصة إذا عرفنا أن الدور الحوارى سوف يشكل بعدا مهما من أبعاد روح الشرق الجديد . هل ستكون لغة الحوار لغة أحادية ؟ أم أنها سوف تتطوى على التعددية وما يستتبعها

من معطيات ؟ ربما كان من المناسب أن نسأل كل هذه الأسئلة وفي ضوءها أيضا نتصور ما يمكن أن نقدمه نحن للمكتبة ، وما يمكن أن تقدمه المكتبة لنا على كافة المستويات الفكرية والثقافية . هل هناك علاقة بين كل هذا والأمن الثقافي المصري ؟ هل ستشهد المكتبة تزاوجا بين الجنسيات ؟ المسألة إذن تحتاج من المفكرين والمتقنين أن يقدحوا أذهانهم لتصور كيفية مواكبتنا لهذا الحدث الثقافي المهم استيعابا وابتداعا لنبين إلى أى مدى تشكل مكتبة الإسكندرية الجديدة نافذة مهمة على المستقبل ، ولتأسيس قاعدة للتفاهم الثقافي بين الشعوب ولتوطيد أركان السلام والقضاء على أفكار الحروب المتخلفة التي تنشأ بين البشر لأسباب يجهلها من تشن عليهم الحروب .

الفصل الثالث

تأسيس المكتبة

ورؤية فيلسوف

لقد نشأت الإسكندرية فى أور عهدها عندما قدم إليها الإسكندر الأكبر نشأة يونانية ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف التى حتمت أن تكون قيادة المدينة يونانية ، وبالتالى مؤسساتها ، أن تنشأ المدينة على غرار أثينا فى عهدها الزاهر ، وأن تحتل الثقافة فيها درجة رفيعة، وأن يصبح العلم منارة حقيقية للمدينة .

فى ذلك العهد أيضا كانت شهرة أثينا الثقافية والعلمية قد بدأت فى الذبول خاصة بعد أرسطو ، وكانت المدارس الفكرية والفلسفية قليلة التأثير فى المجتمع اليونانى ، بعد أن كانت أكاديمية أفلاطون قد طبقت شهرتها الآفاق ، وبعد أن احتلت مدرسة أرسطو الليسيوم مكانة رفيعة . ومن ثم كان من الطبيعى أن الذبول والانكسار الذى بدأ ينتشر فى أثينا قابله تألق وازدهار فى الإسكندرية الوليدة التى بدأت تبرز ككيان ثقافى عملاق . ولكن كيف يكون التألق والإبداع ؟ وكيف تكون معطيات الازدهار ومكوناته المعرفية ؟ إن هذه الأسئلة وغيرها لابد أن تشغلنا ونحن بصدد تناول مكتبة الإسكندرية. وغياب هذه الأسئلة يفقد الموضوع ركنا أساسيا من أركانه المعرفية. ومن ثم فإن تتبع محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة يؤسس شكلا مهما من أشكال المعرفة العلمية بأسباب الازدهار والتألق الذى بدأ يأخذ مكانه فى الشرق بصورة يونانية.

من الواضح أن تأسيس مدينة الإسكندرية أخذ فى بدايته شكل المشروع الثقافى لحكام البطالمة، كما سبق أن ذكرنا، ومن المعروف أن لكل مشروع ثقافى أبعدياته ومفرداته وتوجهاته . ولا يعقل بحال من الأحوال أن يتم تأسيس مدينة كالإسكندرية منافسة لأثينا - وهذا هو مشروع البطالمة الحقيقى- دون أن تتوافر للمدينة أسباب النهوض الثقافى ، وأسباب الحرية الفكرية الحقيقية. ومن هذه الزاوية فإنه لابد لمن يقصد الإسكندرية زائرا كان أو تاجرا أو مقيما ، أن يجد فيها كل ما يحتاج إليه لتغطية الجوانب الثقافية والفكرية والسياسية التى ينشدها. وهنا لابد من التفكير فى تأسيس وتشيد مؤسسة ثقافية تغطى هذا الجانب ، وتلبى حاجة من يقصد الإسكندرية ، المدينة الجديدة، لأى غرض من الأغراض . ولا يغيب عنا أن أصحاب الفكر والثقافة والعلم حين ينزل أحدهم بلدا من البلدان فإن أول ما يسأل عنه هو المكتبة . من هنا كانت المكتبة أحد أبعديات تأسيس مدينة الإسكندرية كمشروع ثقافى.

ومن الناحية المعرفية والتاريخية فإن مكتبة الإسكندرية القديمة اكتسبت شهرتها الواسعة عبر التاريخ اعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادى (السادس الهجرى) بعد أن بدأت بعض كتابات المؤرخين العرب تتحدث عن حريق مكتبة الإسكندرية. ومن ثم اعتبرت تاريخيا

أشهر مكتبات العالم القديم بأسره ، رغم أنها لم تكن المكتبة الوحيدة فى العالم القديم¹ ، وربما لم تكن أقدم المكتبات أيضا .

وتذكر الدراسات التاريخية بعض المكتبات التى وجدت فى الشرق قديما² مثل مكتبة اوجاريت التى تقع على الساحل السوري، التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد التى أمكن العثور بها على عدة آلاف من اللوحات المكتوبة التى تحتوى على كثير من النصوص الدينية والعقائدية التى تكشف عن عقائد الفينيقيين حوالى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وفى الشرق³ أيضا وجدت مكتبات

¹ جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الرابع ، ص 257

² د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 7 وما بعدها

³ تشير بعض الدراسات الحديثة عن المكتبة المصرية فيما قبل مكتبة الإسكندرية إلى أن المصريين عرفوا مكان حفظ لفائف البردى فى مكان يفيد اسمه الفرعونى معنى دار الكتب ، أو دار لفافات الكتب ، وقد يعنى أحيانا دار الوثائق ، وذلك إذا كانت المواد المحفوظة فى الأرشيف ذات اهتمام خاص ، مثل أرشيف تل العمارنة ، وأرشيف مكتبة الشئون الخارجية فى الرعامسة . وترجع هذه الكتابات الفضل إلى المصريين فى اختراع ورق البردى الذى استخدم فى الكتابة ، إلى جانب استخدام الألواح الخشبية . ونظرا لطبيعة الكتب التى كان معظمها على هيئة لفافات البردى ، وبعضها مسجل على لوحات فخارية ، فقد كان يتم حفظ الكتب فى ملفات وخزانات . وتشير هذه الدراسات أيضا إلى أن الأدلة الأثرية أثبتت توصل المصريين إلى عمل بطاقات للكتب سجل عليها اسم الكتاب واسم صاحبه ، وكانت هذه البطاقات تثبت على الصناديق التى تحوى ملفات الكتب . وقد قسمت دور الكتب فى مصر الفرعونية حسب طبيعة المكان الملحقة به إلى نوعين رئيسيين هما : (1) المكتبات المدنية التى تعددت فى مصر ، وكان منها ما ذكر دون تخصص مما يشير إلى أنها كانت مستقلة بذاتها . ومنها ما كان ملحقا بالقصور الملكية ، وكذلك دور الحياة . وربما ارتبط بهذا الدور مسمى فى الدولة الحديثة باسم مقر المخطوطات ، أو ديوان الكتب . وتوجد العديد من الأدلة النصية التى يستدل منها على وجود مكتبات كانت

أخرى فى أنطاكية وغيرها من المناطق المجاورة . ومع كل هذا ظلت مكتبة الإسكندرية أكثر هذه المكتبات جميعا شهرة، ونعلم عنها أكثر مما نعرفه عن أية مكتبة أخرى فى العالم القديم¹ .

إن نحن أمام حدث ثقافى مهم وهو مكتبة الإسكندرية ، وهذه المكتبة تشكل بطبيعة الحال ظاهرة ثقافية وتاريخية . وإذا كان الأمر كذلك فإن متطلبات التحليل المعرفى التاريخى تقتضينا التساؤل عن حجم هذه المكتبة ، ومن قام بالإشراف عليها ، وتنظيمها الداخلى ، ومقتنياتها، حتى نكون لأنفسنا فكرة عن أبعاد الظاهرة التى نتعامل معها ومؤثراتها وتداعيات هذه المؤثرات تاريخيا .

إن التصور المعرفى لآبد وأن يميز بين مرحلتين أساسيتين فى تاريخ مكتبة الإسكندرية فى العصر القديم هما:

ملحقة بالقصور الملكية ، مثل مكتبة الملك لمانحرب الثالث التى عثر فيها على بطاقات الكتب . (2) المكتبات الدينية التى تضمنت دور الكتب الإلهية ، ودور الكتب الملحقة بالمعابد . وتشير هذه الدراسات أيضا إلى أن الصفة الغالبة على هذه المكتبات هى الصفة الدينية ، إلا أنها تضمنت العديد من المعارف والعلوم فى الفلك والفنون والطب وغيرها . ومن مكتبات المعابد المهمة مكتبة معبد الإله أتوم فى عين شمس . ومن المعابد التى ألحق بها مكتبات معبد الرمسيوم الذى أقامه الفرعون رعمسيس الثانى ، وألحق بمعبد الفرعون سيتى الأول فى أبيدوس مكتبة تتكون من أربع حجرات يتوسطها بهو ، وقد زينت الحجرات الأربع بصناديق يرجح أنها كانت تضم بعض الوثائق وملفات الكتب . راجع فى ذلك : أحمد سليم ، المكتبة المصرية فيما قبل مكتبة الإسكندرية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،

¹ جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 258

(1) المرحلة الأولى وهى المرحلة التأسيسية المهمة التى تم فيها إسناد مهمة تأسيس مكتبة الإسكندرية إلى الفيلسوف والسياسى الأثينى ديمتريوس الفاليرى. وهذه المرحلة عبرت بصورة أساسية عن الأصول الأولى التى تم التأسيس وفقاً لها ، خاصة وأن الأفكار واللمسات الأولى خرجت من عقل فيلسوف وسياسى وحكيم نهل العلم فى مدرسة أرسطو، وعرف أهمية الكتاب معرفياً ، ودوره فى حياة الشعوب سياسياً وثقافياً .

(2) وأما المرحلة الثانية فتتمثل فى صدور أول فهرس عن مكتبة الإسكندرية من إعداد كاليماخوس ، وجاءت هذه المرحلة معبرة عن التوثيق الفعلى لمقتنيات المكتبة ، وهذه المرحلة لم تأتى فى فترة مبكرة وإنما جاءت متأخرة نسبياً .

ومع أن هناك جوانب أخرى مهمة فى حياة وتطور مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم، فإن اختيار مرحلة التأسيس والفهرس الذى أعده كاليماخوس ، قصد بهما أساساً أن تكشف إلى أى حد كانت مكتبة الإسكندرية القديمة معبرة عن روح الشرق الجديد ، وكيف أنها كانت أكاديمية علمية، أو مؤسسة علمية ذات تنظيم وبناء وروح جديد ، خاصة وأن معظم العلماء والمفكرين والأدباء السكندريين فى العالم القديم تخرجوا من هذه الأكاديمية العلمية (المكتبة)، واحتلوا مكانة مرموقة داخل المكتبة ذاتها باعتبارها مؤسسة علمية.

وكما نعلم ، فإن المؤسسة العلمية لابد وأن تتمتع بتنظيم إداري دقيق، بحيث إن هذا التنظيم يتخذ شكل هرم تتدرج فيه السلطات والمسئوليات ابتداءً من رئيس يحدد المهام والواجبات والالتزامات، متدرجا إلى سلطات ومستويات تنفيذية تأتي بعده في الدرجة والمكانة، تنفذ كل ما يوكل لها من مهام، بحيث تأتي منظومة العمل في نهاية الأمر معبرة عن وحدة كاملة متآزرة وكأنها معزوفة متناغمة، ليسهل العمل في كل القطاعات.

إن هذا الفهم يحدد لنا على وجه الدقة ماذا تم في مكتبة الإسكندرية القديمة منذ بداية تأسيسها، حيث كان من الطبيعي أن يعهد إلى شخص ما مهمة أن يتحمل عب العمل والتأسيس، ويدير العمل بها، ويضع التصورات الأساسية والمهام التي تنطلق منها خلية العمل في كل اتجاه لإنجاح العمل . وهذا يستلزم أن يستعين من تناط به هذه المهمة العلمية الدقيقة بعدد من الأفراد العلميين الذين يمكنهم فهم وتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم ، وفهم طبيعة التعامل مع مقتنيات المكتبة ، خاصة إذا علمنا أن المكتبة مقامة في الحى الملكى وأن الملك سوف يقصد المكان للقراءة واستخدام الكتب. لقد كان من الطبيعي أن يكون هذا العمل من نصيب الفيلسوف والمفكر اليونانى ديمتريوس الفاليرى الذى كانت له خبرات سابقة فى التعامل مع الكتب والمكتبة فى مكتبة أستاذه أرسطو . ومن ثم فقد أخذ ديمتريوس الفاليرى الأمر على

عائقه فأنجز أهم وأضخم حدث ثقافى عرف فى العالم القديم وهو مكتبة الإسكندرية ، فدخل التاريخ من بابها ، رغم أنه اشتهر بكتاباتة الفلسفية وأشعاره وكتاباتة السياسية ، التى من بينها أيضا كتاباته عن الحب والزواج ، والنظم والحروب والنقد والتاريخ ، ورغم أنه كان واحدا من أهم حكام اثينا قبل نزوحه إلى الإسكندرية .

إننا نعلم من خلال الوثائق والكتابات التاريخية أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى تحمل عبء تأسيس المكتبة ومهامها، وأن بطلميوس الأول (سوتر) هو الذى عهد إليه بهذه المهمة ، فقد كانت تربطهما زمالة العلم فى مدرسة أرسطو . كما نعلم أيضا أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى وضع النواة الأولى للعمل العلمى الذى جرى فى المكتبة. ونعلم أيضا أنه كان من الطبيعى أن يسعى ديمتريوس الفاليرى إلى الحصول على الكتب والمخطوطات من شتى البلدان وفى مقدمتها أثينا نفسها، وأدى هذا الأمر بطبيعة الحال -مع ازدياد نمو المكتبة وازدهار المعارف بها- إلى ضرورة وجود أمناء للمكتبة عبر عصورها المختلفة يتابعون ما يجرى بها من عمل، ويعملون على تطويرها فى الوقت نفسه. ويترتب على هذا أنه كان من الواجب على أحد هؤلاء أن يقدم تصورا عقلانيا للتعامل مع المكتبة يستند إلى أسس محددة، فيقدم لنا فهرساً للمكتبة ككل بحيث يسهل التعامل مع مقتنياتها، وهذه المهمة كانت من نصيب الشاعر والأديب كاليماخوس الذى وضع أول فهرس لمكتبة

الإسكندرية بحيث اعتبر نقطة تحول مهمة في حياة مكتبة الإسكندرية القديمة، وتأسست عليه علوم ودراسات مهمة فيما بعد كما سوف نعرض لهذا الجانب.

لكن ألا توحى إلينا الصلة العلمية القديمة بين بطلميوس الأول وديمترىوس الفاليري بأنه لابد وأن يكون ثمة حواراً نشأ بين الصديقين القديمين والفيلسوفين ... بطلميوس الأول رأس الأسرة البطلمية ومؤسسها في الإسكندرية وديمترىوس الفاليري حاكم أثينا، الذى جاء إلى مصر لاحقاً بعد انقلاب دبر للاستيلاء على السلطة، حول هذا المشروع الثقافى ترتب عليه أن يعهد بطلميوس الأول بحلمه إلى ديمترىوس الفاليري الذى يثق فيه ؟ إن الكتابات التاريخية التى بين أيدينا لم تزودنا بمثل هذا الحوار الذى ربما نشأ فى وقت ما فى التاريخ القديم بين بطلميوس الأول وديمترىوس. لكن العقل الفلسفى يمكن أن يتصوره فى إطار العلاقة بين المفكرين، خاصة وأن بطلميوس الأول يعد مفكراً وفيلسوفاً قبل أن يكون حاكماً وملكاً . ربما أمكن لنا أن نصور قدر الطاقة ما عساه لم يسجل من حوار بين الرجلين فى أمسية التقيا فيها داخل القصر الملكى .

فى مشهد رائع فى حديقة قصر الملك بطلميوس بن لاجوس المطلّة على البحر الهادى الذى تتساب مياهه بهدوء فى أمسية صيفية ،

يدور الحوار بين الملك بطلميوس بن لاجوس وصديقه القديم الفيلسوف والحكيم ديمتريوس الفاليري.

بطلميوس : ها قد التقينا مرة أخرى يا صديقي العزيز بعد غيبة طويلة.
ديمتريوس : أجل يامولاى ، وأنا أشكر على كرمك وعطفك الذى شملتني به بعد أن جئت إليك لاجئاً

بطلميوس : يا عزيزى ديمتريوس لا تسرف إلى هذا الحد . لقد تعلمنا معنى الصداقة والوفاء فى مدرسة معلمنا الأكبر أرسطو وكان ثيوفراسطس بارعا فى تصوير هذا المعنى بدقة . وأنا لا أنسى لك براعتك وحكمتك وقت أن كنا نتحاور فى أروقة المدرسة.

ديمتريوس : أجل أجل ... كانت أيام لا تنسى ... لقد مرت وكأنها حلم جميل أفقنا منه ، وليتنا لم نفيق ...

بطلميوس : لازال بوسعنا أيها الصديق أن نعيد هذه الأيام ... أجل ... بوسعنا هذا مادامت تعاليم وأفكار المعلم الأول مازالت فى رؤسنا، نتذكرها فى كل لحظة . تصور يا عزيزى ديمتريوس أكاد أتمثل الآن أستاذى أرسطو وهو يتكلم عن آرائه فى النفس وقواها ... كم كان رائعاً فى تصويره للعقل المنفعل والعقل الفعال ...

ديمتريوس : أجل ... أجل ... ولازلت أذكر اعجاب ثيوفراسطس بنظرية استاذنا أرسطو . لكن أروع ما فى هذه النظرية أن أرسطو يقرر بوضوح تام أن العقل قوة صرفة ، وأن الإدراك العقلى لا يكون

إلا بافتراض وجود عقل منفعل وعقل فعال وعقل بالفعل ، على اعتبار أن كل ما هو بالقوة يخرج إلى الفعل بتأثير ما هو بالفعل . وبهذه الصورة تميز فكر أرسطو عن الفكر السابق عليه .

بظلميوس : أجل يا صديقي ... ولذا رأى أن كل معرفة عقلية فإنما تستمد من الصور الخيالية المأخوذة عن الحس ، باعتبارها مادة التعقل ، وباعتبار أن العقل الفعال يجرد الصور المعقولة من الصور الخيالية ويقدمها للعقل المنفعل ليتحد بها ، فيخرج بذلك من القوة إلى الفعل ، ويصبح عقلا بالفعل . يعزى إن هذه النظرية سوف يكون لها شأن كبير عند الأجيال القادمة حين يتناولون بالشرح والدراسة نظرية أرسطو هذه .

ديمثريوس : أجل أيها الملك الحكيم ... ولكنى مندهش تماما ...

بظلميوس : وما سبب دهشتك يا صديقي العزيز ؟

ديمثريوس : كنت أتصور أن السنين الطوال التي خضت فيها العديد من الحروب ، والحملات العسكرية التي قمت بها هنا وهناك ، قد انتزعتك من عالم الفكر والفلسفة ورمت بك في أحضان ساحات القتال ، ولم تترك لك وقتا لممارسة الحوار الفلسفى العلى . ولكنى أراك الآن أكثر تمسكا بالحكمة من ذى قبل .

بظلميوس : ربما أخذتني الحروب لبعض الوقت يا صديقي ، لكن حروب الفلسفة وفتوحاتها أهم من حروب السيف . لقد أصبحت أمقت

الحرب ، وأصبحت أكثر اقتناعا بأن حل مشكلتنا فى هذا العالم طريقه العقل والرأى والحوار وهذا هو درس أرسطو العظيم . إننى أدرك الآن أن أرسطو كان على حق فى حوارهِ مع الإسكندر . لقد كان يريد أن يكسبه للفلسفة ولكن الإسكندر أراد أن يكسب العالم لأثينا . لقد انشغلنا جميعا بالحروب الخارجية .

ديمتريوس : أحسنت أيها الملك الفيلسوف . ولك أن تجد المثال متحققا فى شخصى . لقد بذلت ما فى وسعى للنهوض بأثينا ، وحاولت أن أقدم الفلسفة والحكمة ، كما عرفناها ، على السياسة . لكن هذا الأمر جر على ويلات وويلات ، وانقلب على انتيجونس ، وهو من أقرب المقربين إلى ، واستولى على الحكم الذى لم أكن حريصا عليه يوما من الأيام .

بظلميوس : لا تحزن يا صديقى ...

ديمتريوس : لست حزينا إلى هذا الحد أيها الملك الفيلسوف . إن ما يحزننى هو أن معنى الصداقة الذى كان يذهب إليه أستاذنا أرسطو قد أفقده السياسة فى أثينا مضمونه . ولكننى أشكر الآلهة على ما حببتى به من نعمة العقل لأننى سوف أعيش حياتى الفلسفية من جديد فى هذا البلد الجديد إن أنتم لى يا صديقى .. أعيش حياة فكرية هادئة لا أنازع فيها ساسة ولا ينازعنى سياسيون . لقد سئمت الحروب ،

وكرهت عالم السياسة الذى لم يترك لى فرصة تجديد فكر أثينا ... لم يبق فى العمر إلا القليل يا عزيزى .

بطلميوس : معك حق يا صديقى العزيز . ولكن السياسة تحتاج دائما إلى الفكر والعقل والحكمة . لقد كنت أفكر منذ وقت قريب مع صديقنا ستراتون لتأسيس موسيون فى الإسكندرية ...
ديمتريوس : رائع أيها الملك الحكيم ... وهل انتهيت إلى رأى فى هذا الأمر ؟

بطلميوس : ليس تماما يا صديقى ، ربما كان بوسعنا الآن أن نؤسس حديقة الحيوان ...

ديمتريوس : لكن أيها الملك الحكيم بالامكان أيضا أن تتوسع فى الفكرة ...

بطلميوس : كيف يا صديقى ومشغل ستراتون كثيرة ولا أكاد أجد الوقت الكافى لمثل هذه الأعمال الآن خاصة وأن الدولة فى مرحلة تأسيس وأنت تعلم أننى أريد أن أرسى دعائم حكم يشهد له التاريخ ؟
ديمتريوس : أليس الأجدر بنا أن نبني مكتبة تضاهي مكتبة أستاذنا أرسطو ، خاصة وانك تؤسس مدينة جديدة ؟

بطلميوس : إنها حقا فكرة رائعة . ولكن قل لى كيف ننفذها ؟ ...
وجدتها يا صديقى العزيز . أراك يا ديمتريوس أجدر من يستطيع القيام بهذا . كنا جميعا فى أثينا نعرف اهتمامك بالكتب ، وكيف كنت تشم

رائحتها من بعيد وكأنها لا تفارقك أبدا ، ولا أنسى أنك عرفت بيننا
بأنك الأثيني عاشق الكتب .

ديمتريوس : إنه لشرف كبير لى أيها الملك الحكيم أن أقوم بهذه المهمة
الجليلة اكراما لك ولصداقتك .

بظلميوس : ويسعدنى أن تكون أنت يا ديمتريوس من ينفذ هذا
المشروع الذى اعتبره حلم حياتى.

ديمتريوس : ولكنه مشروع يحتاج إلى أموال طائلة لشراء الكتب
والمكتبات من كل مكان

بظلميوس : كل ما تحتاجه يا صديقى ... كل ما تحتاجه ... سأوفر لك
كل الأموال اللازمة على أن تجعل هذه المكتبة بالقرب منى ، هنا فى
القصر ، أو قريبا منه .

ديمتريوس : ليس هذا بالأمر العسير علينا أيها الملك . ولكنى سوف
أحتاج بعض الأعوان الذين يساعدون فى هذا العمل

بظلميوس : لك كل ماتشاء يا صديقى العزيز . ولكن احرص على أن
نلتقى بصفة مستمرة فى عطلة نهاية الأسبوع لنتابع معا كل ما نتوصل
إليه من آراء.

ديمتريوس : أجل أيها الملك ، وإنى استئنك فى الإنصراف الآن فقد
أطلت عليك اليوم، ولكنى أراك فى قمة السعادة .

بظلميسوس : أجل ... أجل ... آه يا صديقى لو استطعنا أن نحقق هذا الحلم سيصبح مشروع العمر وسيخلد اسمنا على مر الأيام. وسوف لا تملأ كتب الفلسفة والحضارة فى يوم من الأيام من الحديث عنه حتى بعد آلاف السنين . حقا يا صديقى هذا ما أحلم به الآن .

وما أن ينتهى الحديث بين الملك بظلميسوس الأول وديمترىوس الفاليرى ، حتى ينطلق هذا المفكر والفيلسوف يدرس أبعاد الفكرة من جذورها ويضعها أمامه بكل تفاصيلها . وربما كان من الواجب علينا أن نتعرف عن قرب على التصورات التى كونتها الكتابات التاريخية المختلفة عن ديمترىوس الفاليرى ، ومقدمه إلى مصر واتصاله بالملك بظلميسوس (سوتر الأول) صديقه وزميله القديم ؟ كل هذا يستحق أن نفرّد مكانة خاصة لمؤسس المكتبة الأول .

أقول : كل هذا ينبهنا إلى أن بظلميسوس سوتير حين أعطى الضوء الأخضر للمفكر والفيلسوف ديمترىوس الفاليرى للمضى قدما فى تنفيذ مشروعه إنما كان يتمثل فى خلفيته العقلية - كحاكم وسياسى محنك وقائد عسكري من الطراز الأول - كل تراث اليونان الذى أراد أن يفوقه بمراحل ، ليجعل من مصر والإسكندرية واحة ثقافية تحمل أحلام وآمال العالم فى منظومة معرفية فريدة ولجعل من مصر بلدا آمنا مستقرا يغلب عليه الطابع الثقافى والحوار الفكرى . وهذا بطبيعة الحال ليس غريبا على بظلميسوس الأول فقد عاش هذا الجو الفكرى

بكل جوانبه فى أثينا ، وفهم من أستاذة أرسطو أن وظيفة المفكر أن ينشد عالما آمنا مستقرا تتحقق فيه السعادة . ومن هنا اكتسب هذا الحاكم شهرة واسعة حينما أقدم على هذا المشروع الثقافى الكبير فى العالم القديم . كما ينبهنا هذا من ناحية أخرى إلى أن ديمتريوس الفاليرى كان ينظر إلى مستقبل الإنسانية جمعاء ، وكيف يمكن للمكتبة أن تشكل الروح الجديد للفكر فى عالم جديد . وكيف يمكن للمكتبة أن تكون الملتقى الثقافى الرائد الذى تنطلق منه الآراء والأفكر الكبرى التى تحدث التغيير الثقافى الفاعل . فكانهما (بطلميوس الأول/ ديمتريوس الفاليرى) معا يمثلان الروح الجديد الذى يمكن أن تمثله وتعتبر عنه مكتبة الإسكندرية .

أضف إلى هذا أن الأسس الفكرية للمكتبة القديمة لا بد وأنها انطلقت من أسس فلسفية ، وهو ما يمكن أن نستنتج من وجود ديمتريوس الفاليرى على قمة الهرم فى المكتبة ، ولا بد أن يكون هذا قد انعكس أيضا على خطة العمل داخل المكتبة ، وهى مسألة لا بد وأن تأخذ فى الاعتبار عند تقييم هذا العمل الثقافى الضخم الذى شهدته المكتبة القديمة .

وما يجب علينا أن ندركه فى هذا الإطار أن المكتبة القديمة لعبت دورا مهما فى التنشيط الفكرى والثقافى الذى شهدته الإسكندرية لقرون عديدة ، وأن هذا الدور لم يقتصر على النخبة المثقفة فى

الداخل، وإنما امتد ليشمل العلماء الذين وفدوا إلى الإسكندرية من بلدان العالم القديم في تواصل علمي وفكري رائع شكل الروح الجديد في الإسكندرية بما جعلها روح الشرق القديم ، فهل تتطلق مكتبة الإسكندرية الجديدة لتعبر عن هذه الروح؟ هذا ما نتطلع إليه .



ديمتريوس الفاليري المؤسس الأول لمكتبة الإسكندرية

إن الحديث عن مكتبة الإسكندرية ممتد ويأخذنا إلى ضرورة التعرف على أول شخصية فى مكتبة الإسكندرية وهو ديمتريوس الفاليرى الذى حمل على كاهله عبء تأسيس المكتبة منذ كانت فكرة وتصورا بالقوة، إلى أن صارت كيانا بالفعل، على ما يقول الفلاسفة. من هو ديمتريوس الفاليرى ؟ وما الصورة التى رسمتها الكتابات المختلفة لهذا الرجل الفيلسوف العبقرى الذى برهن أن الفلسفة ليست مجرد كلمات وأقوال، وإنما الفلسفة قادرة على أن ترسم خطى مشروع ثقافى عقلانى يؤثر فى تاريخ وحياة البشرية بأسرها عبر مسيرة الإنسان على هذه الأرض؟ أترى وصلنا حديث الفاليرى من القديم عبر صفحات الكتب ؟ لقد بدأت نهضة الشرق من جديد ولن يوقفها أى عائق.

يذكر مؤرخ العلم جورج سارتون¹ أن مكتبة الإسكندرية هى أشهر المكتبات فى العالم القديم ، لكنها بطبيعة الحال ليست المكتبة الوحيدة ، وليست أقدم المكتبات جميعا ، لكنها بدون شك كانت أكبر المكتبات ، وطبقت شهرتها الآفاق ، وبذتها جميعا ، وهى أفخم مكتبات العالم اليونانى فى الأزمنة القديمة . وفى هذا الصدد يؤكد جورج سارتون أن أثينا شهدت وجود مكتبات أخرى، كما وجدت مكتبات فى إنطاكية وبرجامة وروفس وأزمير وكوس وغيرها من المناطق الأخرى المجاورة. ومع كل هذا ظلت

¹ جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج 4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى مذكور وآخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص ص 257-258

مكتبة الإسكندرية أكثر هذه المكتبات جميعا شهرة ، ونعلم عنها أكثر مما نعرفه عن أية مكتبة أخرى فى العالم القديم.

والواقع أنه قبل أن تتأسس الإسكندرية كمدينة يونانية الطابع ، عالمية الثقافة ، كانت المكتبات قد انتشرت فى مصر الفرعونية ، وبطبيعة الحال اتصل بانتشار المكتبات فى مصر القديمة كل ما من شأنه أن يساعد على ازدهارها مثل صناعة ورق البردى التى حظيت بشأن كبير واقتربت بعالم المكتبات . وربما وجدنا أدلة متعددة على أن برديات أدوين سميث ، وايبرس، وغيرها أقدم حتى من تأسيس مكتبة الإسكندرية .

وتذكر الدراسات التاريخية بعض المكتبات التى وجدت فى الشرق قديما¹ مثل مكتبة اوجاريت التى تقع على الساحل السورى ، التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد التى أمكن العثور بها على عدة آلاف من اللوحات المكتوبة التى تحتوى على كثير من النصوص الدينية والعقائد التى تكشف عن عقائد الفينيقيين حوالى منتصف الألف الثانى الميلادى . ومن جانب آخر فإن أقدم المكتبات الغربية التى نعرفها هى مكتبة أثينا التى أسست فى عهد بيزستراتوس فى القرن السادس قبل الميلاد . وبعد ذلك بقرنين ، أى فى القرن الرابع قبل الميلاد نلتقى بمكتبتى أفلاطون وأرسطو فى اللوقيوم .

¹ مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 7 وما بعدها

أما تاريخ نشأة مكتبة الإسكندرية تحديدا فيرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلى وجه التحديد أيام بطلميوس الأول (سوتر)¹ الذى يعرف بلقب المخلص²، الذى خلف الإسكندر الأكبر كحاكم لمصر وليس صحيحا ما يذكره بعض من لا يعرفون هذه الفترة التاريخية بصورة صحيحة من أن تأسيس المكتبة كان فى عهد بطلميوس فلادلفيوس . كان بطلميوس الأول (سوتر) حاكما مستتيرا . ولم لا وهو رفيق درب الإسكندر الأكبر وقد نهل علمه من مدرسة ارسطو . كما كان مثالا للعقل والحكمة ، فقد استطاع منذ أن استقل بحكم مصر أن يضع الأسس الراسخة لحكم البطالمة الذى اقترب من ثلاثة قرون متواصلة ازدهرت خلالها الحياة فى ربوع مصر ، وبصفة خاصة الجانب الثقافى والفكرى . ومن بين أهم الأحداث التى وقعت أثناء حكم بطلميوس الأول ذلك الحدث المشهود والذى تمثل فى تأسيس وإنشاء مكتبة الإسكندرية . ولما كان هذا الملك متفرغا لأمر السياسة والحكم فقد

¹ يذكر العالم الأثرى الأستاذ سليم حسن " أن كلمة سوتر الاغريقية قد ترجمت بطريقتين مختلفتين فى المتن الديموطيقى على حسب المكان الذى ألف فيه المتن ، ففى متن الوجه البحرى ترجم لنعت هكذا : (الذى يطرد الشر) ، وعلى حسب متن الوجه القبلى ترجم (الذى يصد) أى العدو " . راجع فى ذلك : سليم حسن ، مصر القديمة ، ج 14 ، ص 297

² الواقع أن ملوك البطالمة اطلقت عليهم بعض الألقاب المهمة التى عرفوا بها تاريخيا التى يمكن أن نتيبيناها على النحو التالى:

بطلميوس الأول (المخلص) ، بطلميوس الثانى (المحب لأخيه) ، بطلميوس الثالث (المصلح) ، بطلميوس الرابع (المحب لأبيه) ، بطلميوس الخامس (المتجلى) ، بطلميوس السادس (المحب لأمه) ، بطلميوس الثامن (المصلح الثانى) ، بطلميوس التاسع (المخلص) ، بطلميوس العاشر (الإسكندر) ، بطلميوس الحادى عشر (الإسكندر الثانى) ، بطلميوس الثانى عشر (الزمار) . هل هناك علاقة إذن بين هذه الألقاب وتلك التى اطلقت على الخلفاء العباسيين مثل الواثق بالله ، والمتوكل على الله ، هل انتقلت التقاليد البطلمية إلى الخلفاء العباسيين . إن هذه النقطة تستحق دراسة تحليلية مقارنة .

استعان بمن يستطيع أن ينجز هذه المهمة على خير وجه ، ويعرف عنه القدرة على تنفيذها ودفعها إلى الأمام ويوثق في رأيه. ومن ثم كانت المهمة من نصيب ديمتريوس الفاليري . فمن هذه الشخصية ؟ وكيف تصورها الكتابات المختلفة؟

يكاد ينعقد إجماع الكتاب ، على اختلاف نزعاتهم وتوجهاتهم الفكرية، على أن ديمتريوس الفاليري يعد المؤسس الحقيقي لمكتبة الإسكندرية القديمة، إذ يذكر نجيب بلدي " أن بطلميوس الأول كلف بالإشراف العلمى على (المتحف) ديمتريوس الفاليريونى Demetrius de Phalere الذى كان مقيما بأثينا وتلميذا لثيوفراسطوس خليفة أرسطو فى رئاسة المدرسة . وكان ديمتريوس قبل مجيئه إلى الإسكندرية من كبار الساسة بأثينا ، اضطر إلى تركها لمهاجمة خصومه السياسيين له ، والتجأ إلى الإسكندرية عند صديقه القديم بطلميوس. فعهد إليه هذا بالإشراف على المتحف" ¹ . يشير هذا النص إلى أن ديمتريوس الفاليري كان سياسيا فى أثينا ، وكان تلميذا لثيوفراسطس خليفة أرسطو . وأنه جاء إلى مصر لاجئا سياسيا نظرا للاضطرابات التى حدثت فى أثينا وقتئذ . لكن الإشارة الأخيرة التى يقدمها هذا النص تفيد أنه أشرف على المتحف فحسب، ولا تفيد أنه مؤسس المكتبة ، وهذه نقطة مهمة لا بد وأن تسترعى انتباهنا ونتوقف عندها لأهميتها فى التحليل البنائى للنص. ومن جانب آخر نجد هناك آراء أخرى تؤكد مشاركة الفاليري فى تأسيس المكتبة ، ومن بين هذه الآراء ما يذهب إليه العالم والفيلسوف السكندري

¹ د.نجيب بلدي ، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، ص 38

المعاصر الدكتور محمد على أبوريان فى رأيه القائل إن "ديمترىوس الفاليرونى تلميذ ثيوفراسطس وكان فيلسوفا شعبيا ، ترأس حكومة أثينا ويقال إنه كان من بين المجندين لإنشاء مكتبة الإسكندرية وتنظيم الدراسات العلمية فيها"¹، وهذا يعنى خلافا لما ذهب إليه نجيب بلدى ، أن الفاليرى عهد إليه بتأسيس المكتبة والإشراف على الدراسات العلمية بها ، وهى مسألة يتطلبها العمل فى أى مكتبة من طراز مكتبة الإسكندرية العريقة.

إلا أن بعض الكتاب الآخرين مثل فورستر على سبيل المثال يؤكد لنا وهو بصدد الحديث عن المتحف الذى يعتبره جامعة الإسكندرية، أن الذى أسسه هو "بطلميوس سوتر الذى استدعى ديمترىوس فاليروس تلميذ أرسطو وأمره أن يقيم معهداً على نسق المتحف الأثينى ، مؤسسة فلسفية تحتوى على مكتبة أرسطو"² وهذا الرأى يعنى أن ديمترىوس الفاليرى كان يعيش فى أثينا وأنه كان تلميذا لأرسطو ! وأن قدومه إلى مصر كان بناء على طلب بطلميوس الأول ، لأنه صديق قديم له ، وقد جاء لتأسيس المكتبة .

لكن هذا الرأى الأخير تقابله بيانات تاريخية أخرى تقلل من أهميته، إذ تذكر بعض الكتابات الأخرى أن بطلميوس الأول عندما بدأ فكرة التخطيط لمكتبة الإسكندرية فى عام 285 ق .م " كان حريصا طيلة مدة حكمه على استقدام أعداد كبيرة من الإغريق ليعتمد عليهم فى إقامة دولة جديدة ومن بين الشخصيات التى وفدت عليه أو لجأ إليه ديمترىوس الفاليرى الأثينى

¹ د.محمد على أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفى : أرسطو والمدارس المتأخرة ، ص 245

² إم . فورستر ، الإسكندرية : تاريخ ودليل ، ص 61

وهو من الشخصيات الفذة التي اشتغلت بالفلسفة والسياسة معا ، فقد أخذ الفلسفة عن أرسطو نفسه ، وله مؤلفات فلسفية وأدبية ، وكان قبل ذلك حاكما لأثينا وعندما سقطت أثينا في يد القائد ديمتريوس أنتيجونس اضطر ديمتريوس الفاليري إلى الفرار واللجوء إلى مصر عام 295 ق . م حيث أكرمه بطلميوس الأول . وقد أعجب ديمتريوس الفاليري حرص بطلميوس الأول على أن تصبح الإسكندرية مركزا للثقافة والعلم في العالم القديم فأشار عليه إنشاء مجمع علمي تلحق به مكتبة كبيرة ، وسمى هذا المجمع الموسيون ، وهي كلمة يونانية تعنى معبد ربّات الفنون والعلوم رحب بطلميوس بهذه الفكرة وشرع في تنفيذها وعين ديمتريوس الفاليري مشرفا ورئيسا للموسيون وسخر له من المال ما شاء من أجل شراء الكتب وجذب العلماء إلى الإسكندرية¹

إن هذا النص يشير إلى عدة أمور مهمة يجب أن نضعها في اعتبارنا ونحن بصدد تأسيس تحليلاتنا ، وهذه الأمور هي :

- 1- أن ديمتريوس الفاليري جاء إلى مصر لاجئا سياسيا ، وفارا من ديمتريوس أنتيجونس عام 295 ق . م
- 2- أنه كانت هناك صلات قديمة بين ديمتريوس الفاليري وبطلميوس الأول .
- 3- أن فكرة تأسيس المكتبة ترجع في الأصل إلى ديمتريوس الفاليري وهو الذي اقترحها على بطلميوس الأول .

¹ د. سعيد اسماعيل صالح ، حضارة الإسكندرية ، ص 113

لكن النص يطرح علينا أيضا بعض السلبيات والأخطاء التي غالبا ما يقع فيها المؤرخون أنفسهم رغم شدة حرصهم على تتبع الأحداث التاريخية. ومن بين السلبيات التي وقعت في النص السابق تأكيد صاحب النص أن ديمتريوس الفاليري "أخذ الفلسفة عن أرسطو نفسه"، وهي مقولة عارية من الصحة تماما إذ من المعروف أن أرسطو ولد عام 384 ق. م وتوفي عام 322 ق. م. بحسب تأكيد الكتابات التاريخية المختلفة¹. أما إذا رجعنا إلى البيانات التي يطرحها علينا النص فنجد أنها تتكامل مع بعض الآراء الأخرى التي يذهب إليها بعض الدارسين.

ويتفق الدكتور شعبان خليفة مع الآراء التي تذكر أن ديمتريوس الفاليري لجأ إلى مصر ، إذ يؤكد أن بطليموس الأول هو الذي جمع "حوله العلماء والأدباء والفلاسفة من كل حذب وصوب، وكان من أهمهم على الإطلاق ديمتريوس الفاليري الذي وصل الإسكندرية من أثينا كلاجئ سياسي"². لكن المشكلة الأساسية فيما يذكره الدكتور شعبان خليفة أنه إذا كان ديمتريوس الفاليري قد لاذ بالفرار من أثينا بعد أن أطاح به ديمتريوس أنتيجونس ، فلا بد أن يكون فراره بلا ترتيب ، وبلا متاع ، وهو ما يقرر خلفه شعبان خليفة إذ يقول في نص تال " وعلى الرغم من بعض الآراء التي ذكرت أن الهدف من إنشاء المكتبة كان جمع الإنتاج الفكري اليوناني فقط فإن تلك الآراء تدحضها آراء أخرى تقول بأن الإنتاج الفكري جمع من المكتبات

¹ د. محمد علي أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفي: أرسطو والمدارس المتأخرة ، ص 11

² د. شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات في العصور القديمة ، ص 284

المصرية القديمة ، سواء من مكتبات المعابد أو الأكاديميات والمدارس ، وحتى المكتبات الخاصة يضاف إلى ذلك ما أمكن جمعه من المكتبات اليونانية ، وخاصة مكتبة أرسطو التي يقال "أن ديمتريوس نفسه قد نقلها من أثينا إلى الإسكندرية"¹ . إن هذه العبارة الأخيرة لا تفسر لنا كيفية نقل مكتبة أرسطو من أثينا إلى الإسكندرية بواسطة الفاليري عند فراره ، خاصة وأن هذا النص يتكامل كما سبق أن أشرت مع النص السابق مباشرة . وربما كان من الممكن أن نقرر أيضا أن هناك عقبة أخرى تتمثل في أن مكتبة أرسطو لم تكن مكتبة صغيرة يسهل على من يلوذ بالفرار أن يحملها معه ، وهو ما يمكن أن نلمسه في تقرير جورج سارتون الذي يوضح فيه أن مكتبة أرسطو كانت مكتبة ضخمة وذلك في قوله "ونستطيع أن نقول بأن مكتبات خاصة وعامة كانت في العالم المتكلم باللغة اليونانية- فكان لأرسطو مكتبة كبيرة"². ومن ثم فإن المكتبة الكبيرة بهذا المفهوم ليست مما يمكن حمله أثناء تدبير عملية فرار من البلاد يخشى من فشلها في ظل انقلاب أطاح بالسلطة.

لكننا نلتقي هنا برأى مهم يقدمه جورج سارتون الذي يذكر في تعليقه على نص سترابون الذي دونه في كتاب الجغرافيا " وإذا نحن اعتمدنا على ما ذكره سترابون ، كان أرسطو نفسه هو الذي وضع أساس ترتيب المكتبة الملكية في الإسكندرية "³. لم يذكر سارتون بعد هذه الفقرة أية تعليق على رأى سترابون، ولكننا وجدناه في حاشية يقدمها لنا

¹ المرجع السابق ، ص 284

² جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 258

³ المرجع السابق ، ص 258

يذكر معلقا دون تفصيل " انظر جغرافية سترابون ج 13 فصل (1) ص 54 ، وهذه الإشارة إلى أرسطو بعيدة عن الإمكان ؛ فإن أرسطو مات في 321/322 ق.م ، مع العلم بأنه صاحب فضل غير مباشر على أمناء المكتبات¹ . ومعنى هذا أن جورج سارتون يشير من طرف بعيد إلى عدم دقة سترابون كمؤرخ فى أحكامه التاريخية . ومن المعروف أن سترابون، رغم المدة التى قضاها فى مصر ،لم يذكر مكتبة الإسكندرية ؛ وهذا يعنى أن سارتون ربما أراد بصورة سلبية أن يشكك فى حكم سترابون. ولسنا ندرى أيضا ما الذى جعل سترابون يذكر أن أرسطو " هو الذى وضع أساس ترتيب المكتبة الملكية فى الإسكندرية " ، رغم أن أرسطو كان معاصراً للإسكندر الأكبر، ولم تكن المكتبة قد أسست فى عهد الإسكندر ، وإنما جاءت فكرة تأسيس المكتبة فى عهد بطليموس الأول . ولا ندرى هل كان جورج سارتون يريد أن يلتمس العذر لرأى سترابون عندما ذكر فى الحاشية أن أرسطو " صاحب فضل غير مباشر على أمناء المكتبات"؟ أم أن المسألة ترجع إلى فكرة أرسطو عن تصنيف العلوم ؟ أضف إلى هذا أن كل هذه الآراء تصطدم مع موقف أرسطو ذاته من فتوحات الإسكندر الأكبر وضمه شعوبا عديدة إلى الهوية اليونانية ليؤسس إمبراطورية مترامية الأطراف ، ذلك أننا " نجد أرسطو فى رسالة (الإسكندر أو

¹ المرجع السابق ، ص 283

الاستعمار) يحذر تلميذه من النتائج السيئة التي تنجم عن معاملته للمتبررين على قدم المساواة مع اليونانيين "ومن ثم تكون نظرة أرسطو عنصرية في جوهرها. لا شك إذن أن المسألة متعددة الجوانب. لكن الدكتور إبراهيم نصحي الذي أفاض في وصف وتفصيلات عصر البطالمة ، يرى عكس ذلك مؤكداً أنه قد " وفد إلى الإسكندرية بعض الفلاسفة، كان أغلبهم من المشائين مثل ديمتريوس الفاليري في عهد بطلميوس الأول"²، وهذا يعنى أن ديمتريوس الفاليري لم يأت إلى مصر فاراً ولاجئاً سياسياً ، وإنما وفد هو وغيره نتيجة للاستقرار السياسى والرخاء والازدهار الذى شهدته مصر فى عصر البطالمة . وفى هذا الصدد يذهب الدكتور حسين الشيخ إلى أن الجامعة " أقيمت فى نهاية عهد بطلميوس الأول وبداية فترة حكم بطلميوس الثانى . وكان مؤسسها (ديمتريوس الفاليري) الأثينى الأصل "³. وهو فى هذا الصدد يؤكد فكرتنا عن الازدهار الذى نعمت به مصر ، حيث "شهدت الفترة الأولى من العصر السكندرى حدثاً ثقافياً هاماً هو دعوة الملك بطلميوس الأول (سوتر) للفيلسوف والسياسى الأثينى ديمتريوس

¹ د. محمد على أبو ريان ، أرسطو ، ص 13

² د. إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ص 800

³ د. حسين الشيخ ، مصر تحت حكم اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1997 ، ص 140

الفاليرى وما استتبع ذلك من تأسيس للموسيون¹. فكان الفاليرى لم يقد إلى مصر لاجئاً سياسياً وفاراً من بلاده ، وإنما وفد تلبية لدعوة من صديقه القديم بطلميوس الأول.

إلا أن هذه الآراء سرعان ما تصطدم برأيين آخرين أولهما رأى جورج سارتون ، وثانيهما رأى وليام ثورب تارن . لنقترب من الرأيين لنرى بقية الحلقات ولنقف على أبعاد أكثر حول فكرة مؤرخى العلم والحضارات عن شخصية ديمتريوس الفاليرى .

أما جورج سارتون فيبدو أنه يشك فى مسألة قدوم ديمتريوس الفاليرى إلى مصر فاراً ولاجئاً سياسياً ، وهو حين يضع أمامنا هذا الشك إنما يأتى رأيه بناءً على ما توافر لديه من وثائق وأدلة تاريخية، والمعروف أنه كان لا يألوا جهداً فى الحصول على الوثائق كلما أمكن ذلك لحسم قضية من القضايا . يقول سارتون " جمع ديمتريوس الفاليرى اليونانى نواة مكتبة الإسكندرية وهو فى بلاد اليونان ، ويمكن أن يطلق عليه مؤسس فكرة المكتبة ، ولو أن هذا الشرف أو أكثر منه ينبغى عدلاً أن ينسب إلى الملكين الأول والثانى من البطالمة، إذ كان بطلميوس الأول (سوتر) هو الذى أمر بتأسيس المكتبة وتنظيمها على نفقته ، ثم أكمل ذلك خلفه بطلميوس الثانى (فلادلفوس) . ومن ثم

¹ المرجع السابق ، ص 152

ينبغي أن نقول إن مكتبة الإسكندرية أسسها سوتر وفلادلفوس وديمترىوس¹.

إن هذا النص يشير ضمنا إلى ديمترىوس الفاليري الفيلسوف ، وليس السياسى ، ولكن هذا لايعنى أن الفاليري "ربما كان خطيبا أثينيا² لأن فلوطرخس يقرر أن المتعلمين أمثال ديمترىوس الفاليري كانوا يعتبرون الخطابة عملا حقيرا مهينا لا يتفق مع الرجولة الحقة³. ويستبعد النص فكرة قدومه لاجئا سياسيا إلى الإسكندرية ؛ بل يؤكد نص سارتون أن بطلميوس الأول هو الذى استقدم ديمترىوس الفاليري، وهو الذى طلب إليه أن يأتى بأعظم مكتبة فى عصره وهى مكتبة أرسطو الذى يعد " أول من أسس مكتبة خاصة على أى معيار من المعايير⁴، لأن بطلميوس الأول كان يزوده بالموارد المالية اللازمة لذلك . وفى هذه الحالة تصبح فكرة الدكتور شعبان خليفة التى يؤكد بموجبها أن ديمترىوس الفاليري نقل مكتبة أرسطو من أثينا إلى الإسكندرية صحيحة فى هذا الجانب ؛ ويستبعد منها فكرة قدومه لاجئا سياسيا إلى مصر لعدم اتساقها منطقيا مع النتيجة الأخيرة .

¹ جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 259

² د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى ، دار المعارف ، مصر ، 1961 ، ج 1 ، ص 27

³ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، 8/7 ، ص 420

⁴ السير وليام ثورب تارن ، الحضارة الهلنستية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة د. زكى على ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1966 ، ص 282

كان من الطبيعي أن يناقش الدكتور محمد على أبوريان متبعا تاريخيا مصير مكتبة أرسطو من بعده ، خاصة في كتابه عن أرسطو الذى يعد من أهم الكتابات الفلسفية التى دوت فى مدرسة الإسكندرية المعاصرة عن هذا الفيلسوف . يذكر الدكتور أبوريان أن سترابون أورد القصة الكاملة لمصير مكتبة أرسطو وما آلت إليه من بعده ويشير فى هذا الصدد أن أرسطو حين غادر أثينا سنة 322 ق.م أودع أوراقه عند ثيوفراسطس وأوصى بالآ تسلم للمدرسة فسلمها ثيوفراسطس لشخص يدعى نيلئوس وهو ابن كورسيكوس السقراطى، وكان أرسطو وثيوفراسطس قد تعرفا عليه فى أثينا سنة 348 ق.م ، وبعد وفاة نيلئوس باع ورثته قسما من هذه المؤلفات لبطلميوس الذى أودعها مكتبة الإسكندرية¹ لكن لم يذكر لنا الدكتور أبوريان ما إذا كان ما تسلمه بطلميوس من مؤلفات أرسطو كان عن طريق ديمتريوس الفاليرى أم لا. لكنه يشير إلى أن القسم الثانى من المخطوطات الأرسطية التعليمية أخفاه ورثة نيلئوس فى كهف وتعرضت للتعفن والبلى ، واشتراها فيما بعد أحد أثرياء أثينا وهو بليكون ، وعندما احتلت جيوش روما مدينة أثينا سنة 83 ق.م نقل سولا مجموعة بليكون إلى روما . وفى سنة 55 ق . م باع ابنه فوستوس هذه المجموعة

¹ د. محمد على أبوريان ، المرجع السابق ، ص20

الثانية من الكتب سدادا لديونه. ثم تابع الدكتور أبوريان قصة نشر هذه المؤلفات .

أما الرأي الثانى الذى يعارض رأى جورج سارتون فيمثله وليام ثورب تارن الذى يشكك فى وجود شخصية الفاليري ذاتها وصلته بمؤسس المكتبة ، حيث يقول " وفضلا عن المكتبة أسس بطلميوس الأول الأكاديمية بالإسكندرية. وسواء أكان ديمتريوس الفاليري هو الذى أعطاه الفكرة أم لم يكن ، فلقد كان إنشاؤهما متمشيا مع الروح التى أوجدها أرسطو"¹. ومتفقا مع الروح التى سادت مع فتوحات الإسكندر الأكبر التى ظهرت فى "التزاوج بين الثقافات اليونانية والحضارات الشرقية وتمثلت أبرز صور هذا التزاوج فى مصر وخاصة الإسكندرية التى أنشأها الإسكندر فى 332 ق . م لتصبح مركزا ثقافيا وحضاريا جديداً فى العالم اليونانى².

لقد نوقشت مكانة ديمتريوس الفاليري من أكثر من جانب ، وتوجد العديد من بيانات جديدة ، فإلى جانب كون ديمتريوس الفاليري مشائيا صميما ، فقد حكم أثينا لمدة عشر سنوات حتى أطيح به عام 307 ق.م. والنقطة المهمة فى هذا الصدد أن ديمتريوس الفاليري لم يكن سياسيا

¹ المرجع السابق ، ص 282

² د. حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ حضارة اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، 1987

بارعا فحسب ، وإنما كان كاتباً موهوباً فى الوقت نفسه . وهنا تجدر الإشارة إلى أن ديوجينيس لائرتى قد ذكر قائمة بأعماله . ونظراً لصلاته القوية بالملك بطلميوس الأول سوتر ، وخبراته الواسعة " فإنه ليس هناك شك فى أن ديمتريوس الفاليرى هو الذى اقترح على سوتر فكرة إنشاء مركز أبحاث عظيم فى الإسكندرية عرف باسم المتحف ملحق به مكتبة عالمية"¹.والذى لاشك فيه أن مثل هذا رأى كان موضع تقدير من جانب بطلميوس الأول (سوتر)، وقد التقى هذا الاقتراح مع رغبة سوتر فى أن يجعل من الإسكندرية ، ليس فقط مملكة قوية ، وإنما مركزاً للثقافة والحضارة .

ولكن هذه النقطة تثير العديد من التساؤلات المهمة التى تهمنى من الناحية المعرفية والتاريخية البحتة ، إذ من الطبيعى أن نتساءل : أيهما وجد أولاً ، المتحف أم المكتبة ؟ وإذا كانت المكتبة قد وجدت أولاً فما هو الدور الذى لعبه ستراتون بالنسبة لتأسيس المتحف؟

إننا نعلم أن سارتون الذى يتبنى رأى القائل بأن ستراتون قدم إلى مصر والتقى بطلميوس الأول (سوتر) قبل مجيء ديمتريوس الفاليرى يدعم بشدة أن المتحف وجد أولاً ، ثم جاءت فكرة المكتبة. وربما كان

¹ El - Abbadi , M., The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, p.81

من الواضح أن الفاليري جاء إلى مصر في تاريخ لاحق على تأسيس المتحف ، وهو ما نميل إليه أيضا في النظر إلى سياق الأحداث .

وفي هذا الإطار أيضا لابد وأن نبين أن نجاح سياسة البطالمة في مصر لفترة طويلة إنما جاء نتيجة طبيعية لنجاحهم في لفت أنظار العالم لمصر كعاصمة ثقافية. وقد ساعد هذا الوضع بصورة مباشرة على الدعاية السياسية للبطالمة انطلاقا من النشاط الثقافي وسمعته العالمية بين الدول، وهو ما جعل مؤرخا مثل اميانوس ماركليينوس يؤكد لنا "أن خير تركية كان في إمكان أى طبيب أن يحصل عليها هي أن يقال عنه إنه أتم دراسته في جامعة الإسكندرية".¹ وهذا ما جعل البطالمة وهم بصدد الدعاية السياسية لنظامهم أن يعتمدوا على الثقافة والنشاط الفكري للصفوة المثقفة ، على اعتبار أنها تحتل مكانة أدبية مرموقة على الصعيد العالمي.

ومن جانب آخر فإن الدكتور العبادي يستبعد فكرة التعاون بين ديمتريوس الفاليري وبطلميوس فلادلفيوس، إذ العلاقات بينهما لم تكن جيدة ومن المعروف أنه بعد وفاة بطلميوس سوتر فإن فلادلفيوس سرعان ما قبض على ديمتريوس ونفاه إلى الدلتا حيث مات هناك² . ويتفق هذا الرأي مع ما سبق أن ذكره الدكتور ابراهيم نصحي الذي

¹ لطفى عبدالوهاب ،دراسات في العصر الهلنستي ، دار المعرفة الجامعية ، ص 189

² Ibid, p. 82

يؤكد أنه "إذا كانت المراجع القديمة تختلف فيما بينها على مؤسس مكتبة الإسكندرية ودار العلم فيها، إذ منها من يعتبر ذلك المؤسس بطليموس الأول، ومنها من يعتبره بطليموس الثاني، فإن صلة ديمتريوس الفاليري بمنشأ هاتين المؤسستين تؤيد الرأي الأول لأنه فقد مكانته في القصر البطلمي على عهد بطليموس الثاني"¹. وبناء على هذا لم يكن ديمتريوس الفاليري قائماً على أمر المكتبة زمن بطليموس فلاذفيوس، وتصبح الآراء التي تقرر أن ديمتريوس الفاليري أسس المكتبة زمن فلاذفيوس لا تشكل بيئة ايجابية في إطار معرفتنا بتاريخ تأسيس المكتبة.

لكن إذا كانت فكرة تأسيس المكتبة في حد ذاتها قد دارت برأس ديمتريوس الفاليري وراودته، على ما يذكر الدكتور لطفي عبدالوهاب²، وإذا كان بطليموس الأول قد اقتبس الفكرة من أرسطو، ووضع نواة المكتبة الكبرى في الحي الملكي بما جمعه من الكتب وهي على ما يذكر يوسيفوس بلغت مائتي ألف كتاب³، فإن بطليموس الثاني هو الذي نظمها وأعطاه صورته الحقيقية وانشأ كذلك فيما يبدو المكتبة الصغرى التي كانت تكون جزءاً من معبد السرابيوم، على ما يقول

¹ إبراهيم نصحي، تاريخ مصر ج 2، 1946، ص 800

² د. لطفي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 188

³ سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج 14، ص 251

الدكتور إبراهيم نصحي¹. وهذا هو مغزى قول سارتون أن تأسيس المكتبة ينبغي أن ينسب عدلا إلى بطليموس سوتر وبطليموس فلاذلفيوس وديمتريوس الفاليري.

ولكن ربما كان من الواجب علينا أن إلى رأى مهم يتحدث عن مصر البطلمية ويشير إلى أن بطليموس الأول (سوتر) وجه الدعوة أولا إلى ثيوفراسطس طالبا مجيئه إلى الإسكندرية وذلك فى عام 297 ق . م الذى اعتذر وأصر على أن تكون المهمة من نصيب ديمتريوس الفاليري الذى رشحه بقوة²، ومعنى هذا أن بطليموس كان يفكر فى بداية الأمر فى إسناد تأسيس المكتبة إلى عالم فيلسوف معروف عنه أنه من بين تلامذة الفيلسوف العظيم أرسطو ، ولم يجد فى هذا الصدد من هو أفضل من ثيوفراسطس الذى رشح الفاليري لهذه المهمة التاريخية الحضارية .

إن مركز الأبحاث العظيم الذى يشير إليه الدكتور مصطفى العبادى هو المتحف وقد ألحقت به المكتبة . وهذا ما جعلنا نقول "(المتحف) و (المكتبة)"، لأنهما ليسا شيئا واحدا كما صورته بعض الكتابات وإنما

¹ د. إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ص ص 800-801

² Ellis , Ptolemy of Egypt , Rutledge , New York, 1994 , P.55

هما كيانان مختلفان ، لكل منهما وظيفته وطبيعته القائمة بذاتها ، ودوره المتميز عن دور الكيان الآخر .

بيد أن المكتبة ظلت تنمو مع الوقت وفى هذا الصدد يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن نمو المكتبة ازداد عبر الزمان وخلال فترة حكم عدد من الملوك ، ويدل على هذا أن خلفاء بطلميوس الأول اتجهوا إلى نصرة العلماء وتشجيع روح التعليم ، وبصفة خاصة بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث فقد عملا على توسيع المكتبة وتطويرها وتزويدها بالكتب¹ ، ولما ازدادت وكبر حجمها كان من الطبيعى أن ينشأ لها فرع آخر فكانت المكتبة الإبنة، أو مكتبة السرابيوم ، وهى أيضا لا تقل أهمية عن المكتبة الأم التى نشأت فى أحضان القصور الملكية . والواقع أن مكتبة السرابيوم مارست دورا مهما داخل النسيج الثقافى الإسكندرى قديما ، وكانت موضع اهتمام الكتاب بصورة كبيرة لأنها استمرت فى الوجود لفترة أطول من المكتبة الأم .

والواقع أن بعض المؤرخين مثل كلبل Klipple يؤكدون أن كتب المكتبة الأم قد زادت زيادة كبيرة فى عهد فيلادلفيوس حتى إنه اضطر عام 250 ق . م . أن يؤسس مكتبة ثانية فى معبد السرا بيوم ، ويذهب إلى هذا رأى أيضا الأستاذ محمد أحمد حسين مؤكدا أن مكتبة السرابيوم انشئت فى عهد فيلادلفيوس نظرا لازدهار الحركة العلمية فى

¹ د. سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية منذ أقدم العصور ، 1963 ، ص 218

ذلك الوقت، على عكس ما يراه الأستاذ متر الذى يذهب إلى أن تأسيس مكتبة السرابيوم كان فى عهد بطلميوس السابع (145-116 ق.م) ، وهذا العهد فى رأى كثير من الكتاب كان عصر تدهور واضمحلال .

لم يكن دليل آثار الإسكندرية مجرد دليل ، وإنما نجد أصحابه يناقشون الوقائع بصورة عقلانية دقيقة . وفى هذا الصدد يؤكد لنا هنرى رياض أن الإسكندرية التى ذاع صيتها " أصبحت قبلة أنظار العلماء من كل مكان وبقيت دار الحكمة والمكتبة كعبة للباحثين إلى أن أحرق الامبراطور أورليان عام 272 م الحى الذى كانت فيه ، فدمر جانب كبير منها ، واضطر العلماء إلى الانتقال إلى المكتبة الصغرى بالسرابيوم ، مركز عبادة سراپيس (منطقة عمود السوارى الآن) ورحل البعض الآخر عن البلاد. و كان للاضطرابات التى حدثت بالمدينة أثرها ففقدت المكتبة الكبرى أهميتها حتى اختفت من الوجود فى القرن الرابع الميلادى ¹. إن هذا النص يقرر بصورة واضحة أن المكتبة دمرت على مرتين الأولى فى القرن الثالث ، والثانية أنها اختفت تماما فى القرن الرابع الميلادى . وتعليل هذا كما يرى هنرى رياض أن ظهور المسيحية وانتشارها فى القرن الرابع كان بمثابة الضربة القاضية لها ، حيث دمر المعبد وأحرق ما فيه تماما. وقد جاء تدمير المعبد نتيجة لشغب اليهود وهو ما يقرره هنرى رياض بقوله "

¹ هنرى رياض ، المرجع السابق ، ص 18-19

أن معبد السرابيوم دمر فى أثناء الثورة التى قام بها يهود الإسكندرية فى عهد الامبراطور تراجان (98-114 م). وعلى أطلال المعبد البطلمى أقام الامبراطور الرومانى هادريان (117-138 م) معبداً آخر¹ كان على حسب قول مؤرخى القرن الرابع الميلادى مربع الشكل، ولم يكن هذا المعبد أقل فخامة من سابقه وإن كان هو الآخر قد تهدم تماماً فى أثناء الحملة التى قام بها المسيحيون فى الإسكندرية فى أواخر القرن الرابع للقضاء على الوثنية ومعابدها، وقد أقيمت على أنقاضه فيما بعد كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا². أضف إلى هذا أن مكتبة السرابيوم قبل أن يتهدم المعبد كانت مركز ثقل الحركة العلمية فى الإسكندرية وقد ترك هذا أثره الكبير على حركة العلوم والآداب فى ذلك الوقت.

وبناء على ما تقدم فإن السرابيوم ومكتبته تلقيا أول موجات التدمير على أيدى اليهود فى الاضطرابات التى شنت على أهل الإسكندرية، ثم جاءت الموجة الثانية على أيدى المسيحيين على اعتبار أن السرابيوم معقل الوثنية. وهذا يعنى أن الموجة الأولى كانت سياسية على حين أن الموجة الثانية كانت دينية.

¹ أيضاً : د. عزت قادوس ، آثار الإسكندرية القديمة، الإسكندرية، 1998 ص 151

² المرجع السابق ، ص 55

والأستاذ سارتون وهو من أئمة مؤرخي العلم في هذا العصر ، وله اسهامات متعددة في مجال العلم ، يشكك في وجود المكتبة في ذلك الوقت، ويرى أنه إذا كانت موجودة على سبيل الافتراض فلابد أن يكون قد دمرها المسيحيون . ويؤكد سارتون رأيه هذا بقوله " ازداد تدهور المكتبة بازدياد نفوذ الأساقفة المسيحيين على مدينة الإسكندرية ، سواء أكان أولئك الأساقفة أثناسيين أم أريوسيين . وفي أواخر القرن الرابع الميلادي كانت الوثنية في طريقها نهائيا إلى الزوال من الإسكندرية حيث كان الموسييون والسرابيون آخر المعادل الوثنية بها . على فرض أنهما كانا باقيين حتى وقتذاك . ومن المعروف أن أوائل المسيحيين وتلاميذهم كرهوا المكتبة أشد الكره لأنها كانت في نظرهم معقل الكفر والخلاعة ، ولهذا كانت موضع الهجوم الصامت حتى آل إليها الخراب " ¹.

ومعنى هذا الرأي أن الأستاذ سارتون يفترض أن المكتبة والمتحف ظلا قائمين حتى أواخر القرن الرابع الميلادي ، على أقل تقدير ، ومن ثم يلقي باللائمة على المسيحيين الذين ، كما يقول ، كرهوا المكتبة . لكن الأستاذ بتلر بعد تحليلاته المتعددة والقيمة لكل ما دار في الإسكندرية في ذلك العصر ينتهي إلى التقرير الذي يؤكد فيه " وأما المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ، ولا بد أن نقول إنه تخرب

¹ سارتون ، تاريخ العلم ، ص ص 281 ، 282

وزال قبل ذلك بزمان طويل . ولعل زواله كان فى الحريق الكبير الذى أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون فى ذلك الحى تحت قيادة (اخيلاس)¹ . ويقدم الأستاذ بتلر إشارة مهمة فى الهامش يذكر فيها : " يقول Matter إن المتحف لا يذكر بعد القرن الخامس الجزء الأول صفحة 331 ، والدكتور Botti يقول إن المتحف زال من زمان قديم قبل ذلك التاريخ " ولم يبق المتحف بعد زمن كركلا" صفحة 138² . وزمن الامبراطور كراكلا Caracalla (211 - 217 م) .

يذكر الأستاذ سافوز فى مقالة له بعنوان "حرب الإسكندرية " ، أن قيصر تتبع بومبي بفيلقين وثمانمائة فارس . ولكن حينما وصل علمه بموت بومبي مكث قيصر فى ميناء الإسكندرية فترة بسبب الرياح ، وانشغل فى بداية الأمر بتسوية الخلاف الذى نشب بين الملك بطلميوس وأخته كليوباترا ، اللذان أراد لهما والدهما أن يحكما المملكة سويا بعد موته، وهذا ما جعله يكون حلفا مع الرومان لمساعدته على تنفيذ إرادته. وفى الوقت نفسه نشب الصراع بين الأخ وأخته حيث أراد كل منهما أن ينفرد بالسلطة . وبينما كان قيصر منشغلا بأمر التسوية بينهما، أحضر بوازانياس الجيش الملكى من البوليزيوم إلى الإسكندرية

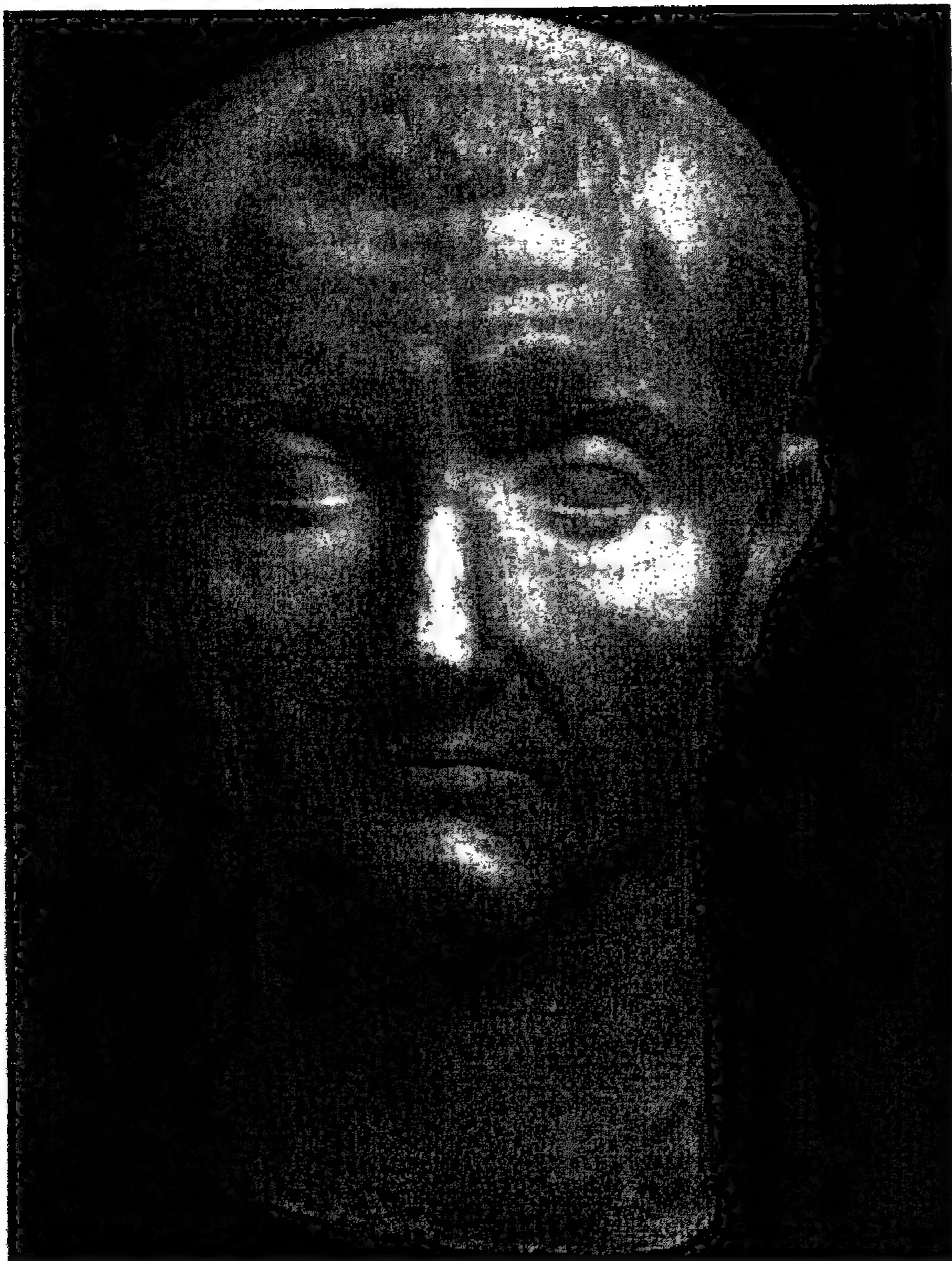
¹ بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ص 398-399 ، ويقصد بقوله (فى ذلك الحى...) البروكيون .

² المرجع السابق ، ص 399 . وقد ذكرت هذه الملاحظة فى هامش 2 .

تحت قيادة أخيلس . وحينما علم قيصر أن هذا الأمر قد تم دون علمه أرسل ديستوريدس وسرابيون إلي أخيلس ليعرفا ما يهدف إليه ، إلا أنه قتلهما . لقد كانت لدي أخيلس قوة عسكرية هائلة استطاع بواسطتها أن يحكم قبضته علي المدينة فيما عدا المنطقة التي كان يعيش فيها قيصر جنوب الميناء الكبير في منطقة القصور الملكية . لقد وزع قيصر فيالقه وحاصر المدينة ، ولكنه عاد إلي الشمال عندما حاول الأعداء أن يستخدموا البحرية المصرية في شرق الميناء .

لقد حاصرت البحرية خمسون سفينة قادمة من مارسيليا ، اثنتان وعشرون كانوا في الميناء فعلا وبعض القوارب الصغيرة في عرض البحر . وكان بمقدور أخيلس أن يهاجم هذه السفن وأن يرسل رؤس من فيها إلي قيصر . ومن ثم أصبح الموقف حرجا بالنسبة لقيصر ، وكان عليه أن يحرق كل السفن الموجودة في الميناء ، وهو ما حدث فعلا وأدى إلى أن يحكم قبضته علي البلاد.

إن هذا الرأي يكشف لنا بصورة واضحة أن مؤرخي العلم يعتقدون أن المكتبة والمتحف زالا من الوجود زمن يوليوس قيصر وقت أن أضرم النيران في الأسطول المصري فاندلعت النيران تلتهم كل ما كان في محيط ميناء الإسكندرية والحي الملكي ، ومن بينها المكتبة والمتحف .



يوليوس قيصر

تصور لنا الكتابات المختلفة ما حدث لمكتبة السرابيوم أثناء الصراع بين المسيحية والوثنية ، فبينما ظلت الإسكندرية وما فيها من معاهد علمية ومكتبات تتمتع بسلام وازدهار نسبي على امتداد القرنين الأول والثاني بعد الميلاد ، تغيرت الأحوال مع حلول القرن الثالث ، وانقلبت رأسا على عقب ، إذ بدأت فترة من الفتن والمحن والاضطرابات التي دامت طيلة القرنين الثالث والرابع الميلاديين¹. وفي هذا الصدد يمكن أن نستنتج من بين السطور أن بعض المفكرين يغلب الجانب السياسى ، على الأقل فى المرحلة الأولى انطلاقا من فكرة الاضطرابات التي شهدتها الإسكندرية التي قد تعتبر نوعا من الارهاب الذى تم ممارسته على المستوى الفردى والجماعى معا. وتفسير هذا فى رأينا ربما يكون بسبب أن اليهود لم ينسوا أن كليوباترا ملكة مصر عاقبتهم أثناء المجاعة التي ضربت البلاد ، على اعتبار أنهم ليسوا مواطنين ، ولأنهم خانوا الوطن أثناء حرب الإسكندرية وسهلوا ليوليوس قيصر عملية حرق الأسطول المصرى وتدميره بصورة قضت على آمال المصريين فى الانتصار، بالإضافة إلى تدمير المكتبة والكتب مما ترك أثرا بالغا فى نفوس المصريين وملوك البطالمة ، الأمر الذى يفسر لنا إهداء أنطونيوس عام 40 للملكة كليوباترا مكتبة برجامون التي قدرت بنحو 200 ألف كتاب .

¹ د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 35

والواقع أن الأحداث والمحن التى تلاحقت على مكتبة السرابيوم أيضا ، صورتها لنا الكتابات التاريخية بشكل يتفاوت من حيث الدقة والتحليل. لكن بعض الكتابات المهمة التى كرسى لتناول مكتبة الإسكندرية قديما وتحليل الآراء المختلفة حولها استطاعت أن تقيم هذه الفترة بصورة تحليلية رائعة ربطت فيها بين الدقة وسياق الأحداث ، فضلا عن النقد التاريخي الذى يمثل زخما رائعا لتصوير الطبيعة الدرامية للأحداث التى وقعت وبصفة خاصة لمكتبة السرابيوم . وهنا تزودنا الكتابات التاريخية المختلفة برؤى متعددة¹ تكشف لنا المأساة التى حلت بمكتبة السرابيوم وأجهزت عليها أثناء فترة الصراع بين المسيحية والوثنية .

كانت مكتبة السرابيوم فى المعبد الكبير ، وهذا ما كفل لها التمتع بالحماية ، إذ استمدت قدسيتها من قدسية المكان ذاته طيلة العصر الوثني. ولكن بعد أن أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية سقطت مقولة القدسية التى كانت تتمتع بها المعابد الوثنية، وترتب على هذا أن أصبح مصير المكتبة مرتبطا بمصير المعبد الكبير والمعابد الوثنية الأخرى ، هذا من جانب. ولما ازدادت شوكة المسيحية ازدادت معها موجات الاضطهاد ضد خصومهم

¹ المرجع السابق ، ص 38-46

الوثنيين ، وبلغت هذه الموجات قمتهما فى عصر الإمبراطور
ثيودوسيوس الأول (379 - 395م) حيث " شن حملة مشددة ضد
الوثنية وجميع معابدها فى أرجاء الإمبراطورية " ، هذا من جانب آخر.
وأثناء هذا الصراع لعب رجال الدين دورا مهما فى استئصال شأفة
الوثنية من البلاد ، وتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس ، وهذا ما نجده
مثالا متكاملا فى شخصية ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية الذى كان أول
من أقدم على هذا بأمر الإمبراطور . كان على الوثنيين أن يلجأوا إلى
المعبد الكبير ، حيث مكتبة السرابيوم ، وهو أشبه بقلعة حصينة ، مما
حدا بالأسقف ثيوفيلوس أن يستعين بوالى المدينة الرومانى ، وقائد
حامية المدينة ، لكنهما شكا فى الأمر وطلبا إننا صريحا من
الإمبراطور ثيودوسيوس الذى جاء أمره للأسقف ثيوفيلوس فى عام
391 م " بتدمير المعابد التى فى الإسكندرية " . وما أن تمكن
ثيوفيلوس من المعبد حتى " قام بنفسه بضرب تمثال الإله سراپيس
الضربة الأولى ، وتبعه المسيحيون الآخرون الذين اعملوا فى المعبد ما
استطاعوا من تدمير وتخريب".

ولكن لم يكن المهم هو المعبد كبناء وإنما الكتابات المختلفة التى
كانت موجودة داخل المعبد التى اجتهد البطالمة والحكام على مر
الزمان فى تجميعها والحصول عليها من كافة أنحاء المعمورة على مر
القرون ، ووضعها داخل المكتبة من أجل استفادة العلماء والباحثين فى

شتى التخصصات ، ومن أجل نشر الثقافة فى ربوع البلاد ، وتكوين بنية معرفية تؤدى إلى الابداع الفكرى مما يعمل على رقى الأمة وتقدمها . وهنا لابد لنا وأن نتساءل عن حجم الدمار الذى لحق الكتب المودعة فى المكتبة : ألم تسجل لنا الكتابات التاريخية المختلفة أية معلومات عن أعداد الكتب التى اقتنتها مكتبة السراييوم التى كانت بطبيعة الحال فى تخصصات مختلفة ؟

لاشك أن المؤرخين فطنوا إلى هذا الجانب ومن ثم عملوا على اثبات الحقيقة التاريخية وفق ما أتيح لهم من معلومات وبيانات فى عصرهم . ونحن نقول وفق ما أتيح لهم من معلومات لنقتنا فى أن الحقيقة يمكن ادراك جزء منها وليس كلها . وهناك أسباب متعددة قد تؤدى إلى حجب الحقيقة فى بعض الأحيان . وقد صاغ الأستاذ جوتشك¹ المؤرخ المعروف رأياً يدعم فكرتنا هذه حيث يقول لنا فى نص بليغ يقول فيه:

إن قدراً فقط مما لوحظ فى الماضى قد تذكره أولئك الذين لاحظوه، وأن جزءاً فقط مما تذكر سجل ، وأن جزءاً فقط مما قد سجل حفظه لنا التاريخ ، وأن جزءاً من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه ، وأن جزءاً من ذلك الذى يمكن تصديقه هو الذى حفظ ، وأن جزءاً من ذلك الذى

¹ لويس جوتشك ، كيف نفهم التاريخ : مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى ، ترجمة عائدة عارف ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، 1966 ، ص 60

حفظ يمكن أن يوسعه المؤرخ أو يقصه ، وأن تاريخ الماضي بأكمله لا يعرفه المؤرخ إلا بواسطة السجل المحفوظ ، وأن معظم التاريخ المحفوظ هو الجزء الباقي من الجزء المسجل عن الجزء المتذكر من الجزء الملاحظ من ذلك الكل .

إذن ماذا حفظت لنا الكتابات المختلفة عن أعداد الكتب التي كانت موجودة بالمكتبة ؟ وهل هناك تفاوت بين التقديرات التي ذكرتها الكتابات المختلفة ؟ هذا ما يجب علينا أن نتبينه بصورة مركزة من خلال الأرقام .

أما أعداد الكتب بالمكتبة فقد ذكر الأستاذ محمد أحمد حسين أن بريشيا نقل عن كاليماخوس أن عدد لفائف البردي بمكتبة السرابيوم بلغ في عهده 42800 لفافة ، وأن عدد اللفائف المتنوعة في المكتبة الكبرى بلغ 400000 لفافة والمفردة 90000 لفافة . وربما كان هذا التقدير المأخوذ من عهد كاليماخوس يدل على أن الفهرست الذي عمله كاليماخوس لم يكن من صنعه وحده وإنما اشترك معه بعض الباحثين لتسجيل مقتنيات المكتبة ، خاصة إذا علمنا أن مثل هذه العملية تستوجب وجود تخصصات متعددة في الفهرسة والتصنيف والتدوين وغيرها مما يدعم السجل ويجعل مفرداته موثقة . وهذا يطرح علينا فكرة أن علما البيبليوجرافيا في ذلك الوقت شهد تقدما كبيرا ، وربما ترجع أسس هذا العلم لتلك الفترة. لكن اختلاف المؤرخين في تحديد

عدد الكتب الذى كان بالمكتبة وقت بطلميوس فيلادلفيوس ثم أيام الحريق على يد يوليوس قيصر ، يؤكد أن الأعداد التى ذكرت تقريبية وإنها تتراوح بين 54000 مجلد وبين 700000 مجلد . ونتبين هذا من أقوال المؤرخين :

- 1- يذكر يوسيفوس (القرن الأول الميلادى) أنها 200000 مجلد .
- 2- ويذكر سينكا (القرن الأول الميلادى) أنها 400000 مجلد .
- 3- يذكر يوزيب Eusebe de Cesaree (265 - 340 م) أن عددها كان 100000 مجلد .
- 4- يذكر أميان مارسيلان (القرن الرابع الميلادى) أنها 700000 مجلد . لكن يلاحظ أنه خلط بين مكتبة البروكيوم ومكتبة السرابيوم فذكر أن ما بهذه المكتبة الأخيرة هو 700000 مجلد وأنها حُرقت وقت حرق الأسطول على يد قيصر .
- 5- أما متر فإنه يعتقد أنه كان بمكتبة البروكيوم وهى المكتبة الأم 400000 مجلد حُرقت كلها أيام يوليوس قيصر وأن مكتبة السرابيوم وهى المكتبة الفرعية كانت تحتوى 300000 مجلد .
- 6- أما المؤرخ الرومانى (70 - 141 ق . م) تشيوس سيوتينيوس ترنكليوليوس Caius Suetonius Tranquillus فإنه يذكر نقلاً عن ليفيوس أن عدد الكتب التى حُرقت بلغ 400000 مجلد .

7- ويشير أوريوس Orosius وهو من مؤرخى القرن الخامس الميلادى فى تاريخه العام الذى أهداه إلى القديس اغسطين عن حريق المكتبة أن 400000 مجلد حرق .

من كل هذا نستنتج أن أعداد الكتب التى ذكرها الكتاب تقريبية ، وأن العدد الصحيح لانعرفه على وجه الدقة ، خاصة وأن كاليماخوس نفسه الذى صنف المكتبة وفهرسها والذى نقل عنه بعض الكتاب، قد ازدادت المكتبة بعده بصورة كبيرة فى العصور التالية بحيث اوضحت الأعداد المذكورة مجرد ترجيح فحسب . وربما كانت هذه الحقيقة واضحة للعيان ، خاصة وأن المكتبة كانت تزود على الدوام بالكتب التى تقد إليها من أنحاء العالم ، كما يحدث فى مكتباتنا فى العصر الراهن ، إذ يتعذر علينا أن نتصور وجود مكتبة ما ، فى القديم أو الحديث ، ولا يحدث لها تزويد فى الكتب والمقتنيات . ولكن مهما كانت كثرة الأعداد أو ضالتها فإن فقدان مكتبة ما مسألة تدعو إلى الحسرة والآسى بكل ما تحمله الكلمة من معان .

الفصل الرابع

كاليماخوس والفهرست

يعد كاليماخوس Callimachus من أهم الشخصيات التي ارتبطت بمكتبة الإسكندرية القديمة من حيث الشهرة العالمية التي امتدت لقرون طويلة حتى عصرنا هذا فقد كان عميداً للنقاد الأدبيين¹ في عصره ، بالإضافة إلى كونه شاعراً² ، وقد طبع العصر بطابعه وبنقده. وفي عصره أصبح للشعر السكندري سمات محددة خاصة في القصائد التي كتبها كاليماخوس، وقد أثرت هذه السمات في أدب العصر المتأغرق بعد ذلك . ويذكر الدكتور لطفى عبد الوهاب أن أول إنتاج لهذا الشاعر كان " النشيد الذى كتبه تحت عنوان (إلى زيوس) كبير آلهة اليونان حوالى 280 - 275 ق م"³ . وربما اكتسب كاليماخوس شهرته العالمية من ارتباط اسمه بأول مصنف فى علم المكتبات وهو الفهرست Pinakes الذى وضعه للمكتبة. علينا إذن أن نقف على هذا الجانب الذى يعد حدثاً ثقافياً مهماً، لنعرف الدور الثقافى الذى أراد

¹ د. لطفى عبد الوهاب ، دراسات فى العصر الهلينستى ، ص 29
² يذكر العالم المصرى سليم حسن أن من أهم ما أنشأه شعرا مرثيته التى أنشأها فى موت أرسنوى زوج بطلميوس الثانى وقد خالف فيها الشاعر نغمته المعتادة إذ وضعها فى نغمة عاطفية مؤثرة . فنجد فى البداية يصف صعود روح أرسنوى إلى النجوم ، وفى المشهد التالى نشاهد كاريس بعد سهرها على جبل أثوس تخبر فيلوتيرا الحزينة وهى أخت أرسنوى المؤلهة أن السحب التى تغطى السماء تأتى من جنازة الملكة فى مصر . إن هذه الفكرة فى حد ذاتها مصرية ، ولم تظهر عند ملوك البطالمة إلا بعد أن أصبح الملك بطلميوس الثانى وزوجه مؤلهين وذلك باعتناقهما المذهب الإلهى المصرى . راجع فى ذلك

: سليم حسن ، مصر القديمة ، ج 14 ، ص 275

3 د. لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 32

كاليماخوس، ومدى ارتباط هذا الدور بما هو أبعد من مجرد وصع
فهرست.

ويذكر المؤرخ المعروف جورج سارتون في كتابه " تاريخ العلم " أن كاليماخوس البرقاوى الذى ولد حوالى 310 ق.م. كان يعمل مدرسا للنحو فى بلده إليوسيس بالقرب من الإسكندرية، ثم اتصل بالملك بطليموس الثانى فعينه أمينا للمكتبة، حوالى سنة 260، وشغل ذلك المنصب حتى وفاته حوالى سنة 240¹. ويتفق معه فى هذا الرأى سليم حسن الذى يذكر أن كاليماخوس هاجر من "سيريني" إلى الإسكندرية " وكشف عن مذهبه عندما كان يعمل مدرسا فى مدرسة ضاحية اليوزيس"²، ويكشف لنا أن اتصاله بالملك بطليموس جاء عن طريق الشعر ، ذلك أنه فى أنشودة له وضعها عن الإله ريوس وصف " الحقوق الإلهية للملك"³. وفى تقدير الأستاذ سليم حسن أن كاليماخوس " درس نظام الحكم المصرى القديم وأراد أن يرضى بطليموس بوضعه فى مصاف ملوك مصر الذين يعدون أولاد رع وأنهم آلهة"⁴ . وهنا نجد أن الأستاذ سليم حسن يستنتج " أن فى ذلك برهانا قاطعا يدحض

¹ جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج4، ص 272

² سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 274

³ المرجع السابق ، ص 274

⁴ المرجع السابق ، ص 274

الفكرة القائلة أن موضوع التآليه إغريقي في أصله¹ على حين ، أنه وفقا لرؤية سارتور وقراءته للنصوص القديمة، فإن كاليماخوس شغل منصب أمين مكتبة الإسكندرية خلال هذه الفترة ، ولكنه منذ صباه كان مشغولا بتحضير فهرس المكتبة²، أى لمدة عشرين عاما متواصلة. لكن هذه المسألة موضع اختلاف المؤرخين على شتى مذاهبهم.

وفى هذا الإطار نجد أن بعض المؤرخين مثل متر Matter لا يرى أن كاليماخوس "شغل وظيفة أمين للمكتبة فى عهد فيلادلف خلافا لما هو معروف لدى معظم المؤرخي"،³ ويوافقه على هذا الرأى محمد أحمد حسين⁴. ومن جانب آخر نجد أن الدكتور شعبان خليفه يذهب بالمسألة كلها إلى ما هو أبعد من وظيفة أمين إذ يذكر نصا مهما يقول فيه " ففيمما نعلم لم يكن كاليماخوس من بين المديرين وإن كان من أمناء المكتبة"⁵. إن هذا النص يضعنا مباشرة أمام مسألة التقسيم الإداري والفنى الذى نجده بين الكلمتين " مدير " و"أمين". وتزداد المسألة تعقيدا فى نص آخر يقدمه لنا الدكتور شعبان خليفه حيث يقول: "وكليماخوس على وجه التحديد كان باحثا ارتبط اسمه بالمكتبة كأمين مساعد ولم

¹ المرجع السابق ، ص 275

² سليم حسن ، المرجع السابق ، ص 274 -

³ محمد احمد حسين ،،مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، ص 26

⁴ المرجع السابق ، ص 33

⁵ شعبان خليفه ، الكتب وعالم المكتبات القديمة ، ص 288

يصل أبدا إلى رتبة مدير، وربما كان الأمناء المساعدون في تلك المكتبة يوضعون على درجة باحث طالما أن المكتبة كانت مكتبة أكاديمية"¹. لاشك إذن أن هذا النص يشير إلى كاليماخوس على أنه "أمين مساعد" أو "باحث" ويرى أن الوظيفتين متساويتان. وبهذا وضعنا الدكتور شعبان أمام أربعة وظائف هي "مدير" و "أمين" و "أمين مساعد" و "باحث". مما يزيد الأمر تعقيدا فيما يتعلق بالتعرف على شخصية كاليماخوس، كشخصية تاريخية ذات إسهام مهم في إطار التعرف على مكتبة الإسكندرية القديمة .

وربما كان مصدر التعقيد في مثل هذه النصوص أن بعض الكتابات الأوربية الحديثة قد ألقت بظلال الشك على مكانة ووضع كاليماخوس في مكتبة الإسكندرية، والدليل على هذا ما يذكره وليام ثورب في كتابه عن "الحضارة الهلنسية" من شك في تولى كاليماخوس أمانة المكتبة، إذ يقول في نص مهم: "ومن المحتمل وإن يكن أبعد ما يكون من المحقق أن كاليماخوس تولى أمانة المكتبة"². هل كان وليام ثورب هو مصدر الشك في مكانة كاليماخوس كأمين للمكتبة؟ أم أن هناك مصادر أقدم

¹ المرجع السابق، ص 289

² وليام ثورب، الحضارة الهلنسية، ص 283

تشير إلى هذه المسألة ؟ نشير في هذا الصدد إلى رأيين على درجة كبيرة من الأهمية ظهرا على امتداد النصف قرن الماضي¹.
أما الرأي الأول فيقدمه لنا الدكتور إبراهيم نصحي الذي يذكر: "ويرى البعض أن كاليماخوس قد تولى منصب أمين المكتبة، لكننا نميل إلى تأييد الرأي المعارض لذلك، ولاسيما أن وثيقة بردية كشفت حديثا تخبرنا بأن الذين عينوا أمناء للمكتبة بعد زنودوتوس كانوا أبولونيوس الرودسي وارتوستينس واريستوفانس البيزنطي، الذي علق على فهارس كاليماخوس ويعزى إليه فضل ترتيب مؤلفات أفلاطون ثم أبولونيوس مؤرخ الأدب الاغريقي eidographos واريستارخوس وكيداس Cydas أحد رجال حرس الملك"². ومعنى هذا أن الدكتور إبراهيم نصحي لا يؤيد فكرة أن كاليماخوس تولى أحد المناصب داخل مكتبة الإسكندرية.

¹ لا نعرف سببا مقنعا للتقرير المزروح الذي قدمه لنا الأستاذ سليم حسن عن كاليماخوس حيث يقول في فقرة عن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مكتبة الإسكندرية " وفي عهد رئاسة أبولونيوس لمكتبة الإسكندرية نظم الشعر الغنائي كاليماخوس فهرس مكتبة الإسكندرية المشهور ولم يتول الأخير في يوم من الأيام وظيفة أمين المكتبة". سليم حسن ، المرجع السابق ، ص 254 . وفي موضع آخر وحين يتحدث عن الشعر في الإسكندرية وحين يتحدث عن كاليماخوس يخبرنا أنه " ومن المحتمل أن مقطوعاته الشعرية القصيرة التي كانت تنطوي على نكات- وكانت السائدة في هذا العصر- قد لفتت نظر بطلميوس إليه . وقد منحه الأخير وظيفة أمين مكتبة الإسكندرية " (المرجع السابق ، ص 274) إن التضارب بين الفقرتين يشكل مظهرا من مظاهر التناقض البين في بعض النصوص عن كاليماخوس ، كما يبين أن بعض النصوص فسرت بصورة لا تتسق مع البيانات التاريخية.

² إبراهيم نصحي ، تاريخ البطالمة، ص 803

وأما الرأي الثانى الذى يعبر عنه الدكتور مصطفى العبادى¹ فى كتابه "حياة وقدر مكتبة الإسكندرية القديمة" فيتمثل فى أنه لا يوجد اتفاق على ترتيب أمناء مكتبة الإسكندرية، وفى هذا الصدد يشير إلى أن القائمة التى عثر عليها بناء على بردية قديمة تقدم لنا معرفة بالشخصيات التالية:

- 1- زانودوتوس zenodotus (285 - 270 ق.م) انحدر من أفسوس ، متعدد النشاط العلمى، وقد كرس وقته لإدارة المكتبة ، وعلى ما يرى سارتون فإنه من المحتمل أن إدارة المكتبة فى تلك الفترة كانت خفيفة الأعباء ، خاصة وأن الروتين بأساليبه المختلفة لم يكن قد تسرب إلى إدارة المكتبة². أضف إلى هذا أن سارتون يصف لنا طريقة عمله داخل المكتبة التى أدارها على أساس التشاور مع مساعديه ليأتى العمل منسجما . وأما من حيث أعماله العلمية فإنه " يعد أول إغريقى من العصر الهلنستىكى يضع للعالم متنا منقحا لكتابى هومر (الإلياذه) و (الأوديسى) "³. وقد احتل مكانته الرفيعة فى التاريخ القديم لأنه "كان أول أديب يتصدى لنقد أشعار هوميروس Homerus الشاعر اليونانى

¹ El-Abbadi,M.,The Life and fate of the Ancient Library of Alexandria, p.93f

² سارتون ، المرجع السابق ، ص ص 270 - 272

³ سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 254

العظيم"¹ وهو فى الأصل تلميذ الشاعر لفيليتاس ، ويذهب ديورانت إلى تقرير رأى مهم يقول فيه : " واصل أرسطوفان عمله ، وأتمه أرسطارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهاتين الملحمتين، وهما اللذان شرحا ما غمض فيها شرحا يدل على غزارة الاطلاع"². والذى لاشك فيه أن الجهد الذى صرفه زانودوتوس فى هذا الصدد أدى إلى حفظ هذا النص الملحمى المهم وبقائه عبر الأجيال والقرون .

2- أبولونيوس الرودسى Apollonius (270 - 240 ق.م) وهو مصرى يونانى الأصل ومولده بالإسكندرية . نال شهرة واسعة فى رودس خاصة فى تدريس الخطابة . وهو مؤلف الملحمة المعروفة بالحملة الأرجونيتية³ Argnaute Expedition ويذكر سارتون أن أبولونيوس خلف أستاذه كاليماخوس فى وظيفة أمين مكتبة الإسكندرية؛

¹ د. حسن عون ، المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية فى عهد البطالمة ، ص 94
² ديورانت ، قصة الحضارة ، ج 8 ، ص 90 . الإلياذة والأوديسة من أشهر الملاحم الاغريقية التى كتبها الشاعر الملحمى الكبير هوميروس ، ووفق ما يذهب إليه دارسو وعلماء التاريخ اليونانى والرومانى فإن تاريخ تدوين الملحمتين يعود إلى الفترة الواقعة ما بين القرن الحادى عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد . وملحمة الإلياذة تصور فى صورة شعرية رائعة وقائع الحرب الطروادية التى دارت رحاها بين الاغريق وأهل طروادة بعد أن الأمير الطروادى هيلين زوجة ميلوس القائد اليونانى. ودامت الحرب عشر سنوات حيث إنتصر الاغريق فى نهايتها ، وسقطت طروادة. أما ملحمة الأوديسة فتصور لنا صراع أوديسيوس أحد أبطال الحرب الطروادية بعد العودة إلى موطنه إيثاكا وما تخلل هذه الفترة من عناء ، وكيف أنه تمكن من استرداد عرشه بعد رحلة طويلة. راجع فى ذلك: د . حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية الرومانية ، 1985 ، ص 106-107

³ سليم حسن ، المرجع السابق ، ج 14 ، ص 254

إلا أنه لم يظل طويلا في عمله¹، لكن بعض الكتابات تذكر أنه ترك الإسكندرية وذهب إلى جزيرة رودس على اثر خلاف نشب بينه وبين كاليماخوس ، إلا أنه عاد إلى الإسكندرية مرة أخرى وتولى شئون المكتبة وأنتج للأدب كتباً عديدة².

3- أراتوستينس (245 - 204 ق.م) تتلمذ على الفيلسوف اليوناني المشائي ديكايارخوس³ Dicaearchos ، وهو من أبرز رجال العلم في العالم القديم ، حيث تضرع في الرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ وفقه اللغة . ارتحل إلى الإسكندرية بعد أن أتم تعليمه في أثينا، بناء على دعوة الملك بطلميوس الثالث الذي حكم في الفترة (247 - 222 ق . م) ، وأسند إليه العمل أميناً للمكتبة في عام 235 ق.م على وجه التقريب . ويصور لنا الأستاذ سارتون⁴ أهميته العلمية والتاريخية من خلال الدراسات التي أنجزها التي أهمها دراسة حول الدراما . ودراسته المعروفة باسم كرونوجرافيا التي قام فيها بأول محاولة ذكية لترتيب الحوادث الرومانية القديمة ، وبذلك أوجد دراسات جادة عن

¹ سارتون ، المرجع السابق ، ص 274

² د. حسن عون ، المرجع السابق ، ص 94

³ د.إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ج 2 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1946 ، ص 800

⁴ المرجع السابق ، ص ص 275 ، 276

فكرة الترتيب الزمني في النقد الأدبي . أضف إلى هذا فإنه وفقا لرأى سارتون يعتبر المصنف الأول للكتب العلمية في المكتبة .

4- أريستوفانيس (1/204 - 6/189 ق.م) يعتبره سارتون من أهم علماء الإسكندرية ، ومن أعظم فقهاء اللغة في العالم القديم على الإطلاق ، ومرجع ذلك أنه أدخل قواعد جديدة في نقد المتون . أضف إلى هذا أنه توافر على إعداد تحقيقات علمية دقيقة للعديد من الملاحم القديمة مثل الإلياذة والأوديسة، وقد سبق أن أشرنا إليها ، وملاحم هزيود ، وقصائد الكايوس، وأناكريون وبندار ويوريديس وغيرها من الأعمال المهمة . ويصور لنا سارتون إنجازاته العلمية فيما يلي¹ :

أولا : دراسته النظائر النحوية (القياسات) حيث أسهم في تنظيم النحو اليوناني .

ثانيا : تصنيفه معجما باللغة اليونانية .

ثالثا : اختراعه وتنظيمه لعلامات الترقيم في الكتابة ، بالصورة التي أدت به إلى استتباط العلامات الرقمية العادية لما نستخدمه الآن ، واستتباط علامات متنوعة ضرورية في نقد النصوص والمتون. وبطبيعة الحال فإن هذا الإسهام العلمي يدل على حجم العطاء الذي قدم في هذه الفترة من قبل العلماء الذين شغلوا منصب الأمين

¹ المرجع السابق ، ص 287

واستطاعوا بذكائهم أن ينهضوا بالمكتبة ويجعلوا منها منارة علمية رائدة .

5- أبولونيوس ايدوجرافوس (6/189 - 175 ق.م) معلوماتنا عنه قليلة، لكن ينسب إليه ترتيب قصائد الشاعر اليوناني بندار¹ ، واهتمامه بالنحو والتاريخ .

6- أرسطارخوس (175 - 145 ق.م) أديب وناقد ونحوى . أنجز عددا كبيرا من الشروح ، وألف مجموعة رسائل فى النقد اندرجت فى 800 لفافة بردية . وقد حصر سارتون إنجازاته فيما يلى²:

أولا : عرف ثمانية أنواع من الكلام هى الاسم ، الصفة ، الفعل،المفعول، الضمير ، أداة التعريف ، الظرف ، حرف الجر ، العطف.

ثانيا : أدخل رموزا تنقيطية فى تحقیقات لقصائد الشعراء اليونانيين.
ثالثا : أن النقد الذى قام به لم يكن فقهيا لغويا فقط ، وإنما كان بحثا ثريا. هذا وقد استمرت مدرسته لمدة طويلة تتبع خطاه بصورة علمية دقيقة،مما يدل على أهميته .

¹ يعد بندار من أهم وأشهر الشعراء الغنائيين عند الإغريق ، كان حيا فى الفترة الواقعة بين الربع الأخير من القرن السادس ومنتصف القرن الخامس قبل الميلاد . وتذكر الكتابات التاريخية أنه دون سبعة عشر كتابا فى الشعر الغنائى . وقصائده الشعرية تعتمد على الأساطير بصورة أساسية . راجع فى ذلك الدكتور حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية للرومانية ، 1985 ، ص 108 - 109

² جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 279 ، 280

7- كيداس أحد رجال الحرس (145 - 116 ؟ ق.م). وهنا لابد وأن تكون لنا وقفة . إذ ما الذى جعل ملوك البطالمة فى ذلك الوقت يعينون أحد رجال الحرس أميناً للمكتبة ؟ هل سادت الفوضى أرجاء المكتبة وفقدت السيطرة عليها بحيث أصبح من الضرورى تعيين أحد رجال حرس القصر - وهو بطبيعة الحال رجل عسكرى - أميناً أو مديراً للمكتبة ، ومن المعروف أن رجال حرس القصر على وجه الخصوص أكثر انضباطاً وصرامة ؟ وكيف سيستطيع كيداس هذا، وهو من رجال الحرس، أن يسهر على رعاية العلماء والمفكرين ، أو حتى يضبط الإيقاع بينهم داخل المكتبة؟ أم أن كيداس هذا كان أحد المفكرين فى هذا العصر ، ولما أراد أن يتقاعد كانت هذه هى المكافأة؟ ليست لدينا وثائق كافية تشير إلى مثل هذا التصرف . ومع هذا يمكن لنا أن نستنتج أن الروح العلمية فى هذا العصر كانت سائدة بصورة عالية ، وربما كان هذا مبرراً يفسر لنا تعيين كيداس أميناً للمكتبة إذ أنه يمكن لنا أن نفترض أفقه الواسع وثقافته الرفيعة حتى يمكن أن يتبوأ هذه المكانة العلمية الرفيعة . ولا يغيب عن بالنا أيضاً أنه يمكن النظر إلى مثل هذا القرار على أنه نكسة حلت بالمكتبة والعلماء وتدخل صارخاً فى شئونهم العلمية .

ومع أن هذه القائمة التي يذكرها الدكتور مصطفى العبادي تتفق مع قائمة جورج سارتون¹ وإبراهيم نصحي²، إلا أنه قد يلاحظ أن القائمة لم تتضمن اسمين مهمين هما ديمتريوس وكليماخوس³، هذا بالإضافة إلى ما يلاحظه جورج سارتون من "أن هذه القائمة تنتهي بانتهاء النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. يضاف إلى ذلك أنه لا توجد أية إشارة في أى مصدر من المصادر إلى أمين لمكتبة الإسكندرية بعد هذا التاريخ"⁴. ومن هذا يستنتج سارتون "أن العصر الذهبي لمكتبة الإسكندرية لم يظل سوى قرن ونصف قرن من الزمان، لأنه ليس من المعقول أن تزدهر مكتبة ما دون أن يكون لها أمناء معروفون".⁵ كما أن هذا في رأينا يفسر أن المكتبة اندثرت بعد هذا التاريخ، وربما لم توجد ككيان.

ولكن ليس من العسير فهم طبيعة الإغفال الذي تحفل به القائمة المذكورة لاسمى كل من ديمتريوس الفاليري وكليماخوس، وربما أمكن فهم هذا في ضوء ما هو متوافر لدينا من معلومات من خلال كتابات المؤرخين. فكما نعلم من استعراض حياة ديمتريوس الفاليري

¹ جورج سارتون، المرجع السابق، ص 259

² إبراهيم نصحي، المرجع السابق

³ El-Abbadi, M., The Life and Fate of The Ancient Library of Alexandria, p.93

⁴ سارتون، المرجع السابق، ص 260

⁵ المرجع السابق

أنه كان مسئولاً ومشرفاً على العمل الذى تم فى المكتبة بأسرها، وكأنه ممثلاً للملك. وأما كاليماخوس فقد أنيطت به مهمة محددة داخل المكتبة لعمل الفهرس أو الكتالوج، وهو ما يبدو من عبارة الدكتور مصطفى العبادى التى يقول فيها حرفياً:¹

..“he would have been assigned a responsible Commission in the Royal Library, which ultimately produced his great Catalogue (Phinakes)”

وهذه المهمة استغرقت عشرين عاماً لإنجاز هذا الفهرس العظيم . ومن الطبيعى أن يكون هذا الفهرس أضخم حدث علمى فى تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة. والفهرس الذى وضعه كاليماخوس عنوانه: قوائم جميع المؤلفات الهامة فى الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها.²

لكن الأستاذ سارتون ينظر لمسألة أمين المكتبة من منظور آخر، وهو مدرك تماماً لبعض التعقيدات المتصلة بهذا الموضوع وما يترتب عليها من تحليلات ونقد ، ومن ثم فإنه يذكر فى هذا الصدد "ويقال إن كاليماخوس لم يكن أميناً للمكتبة أو مديرها ، بل كان مفهرساً لها . غير أن هذه المسألة لا تحتل كثيراً من المناقشة نظراً لقلّة معلوماتنا عن حدود هذه الوظائف وطبائعها " ³.

¹El-Abbadi, M., op.cit, P.94

² سارتون ، المرجع السابق ، ص 272

³ جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 274

يبدو من النص أن سارتون يشكك في حجج الذين ينكرون قيام كاليماخوس بأعباء أمانة المكتبة ، وهو ما جعله يستخدم كلمة (ويقال) في مفتتح عبارته وكأنه غير راض عن الأمر ككل ، وهذا يعنى بالنسبة له أن الآراء التى قدمت فى هذا الاتجاه ليست نهائية ، وهو ما عبر عنه سارتون بقوله " هذه المسألة لا تحتمل كثيراً من المناقشة". وبين سارتون فى هذا الصدد أيضاً مسألة أخرى وهى أن الحجج المتعارضة المختلفة ، المؤيدة لاعتبار كاليماخوس أميناً للمكتبة والمعارضة لها فى رأى ، متكافئة ، وليست إحداها أفضل من الأخرى وهو ما يبدو من قوله " نظراً لقلّة معلوماتنا عن حدود هذه الوظائف وطبائعها " .

والأستاذ سارتون يبين لنا إلى أى حد اعتبر أمين المكتبة فى ذلك العصر عالماً من العلماء ، أو هو كان كذلك فعلاً . وهذه مسألة على درجة كبيرة من الأهمية فى التأريخ لمكتبة الإسكندرية ومعرفة بنيتها الفكرية الداخلية ، والمنظومة المعرفية المتكاملة التى تحركت من خلالها. ومن ثم فإنه " يجب علينا أن نذكر أن أولئك الأمناء الأولين لم يكونوا أمناء فحسب ، بل رجالاً من أرباب الأدب وفقه اللغة ، والتحقيق والمعاجم والتأريخ والفلسفة والشعر ، وربما كان الواحد منهم عالماً فى أحد هذه العلوم ، أو فى بعضها، أو فى كلها . أو كانوا كذلك

جميعهم "1. والذي لاشك فيه أن هذه المسألة استوقفت المؤرخين بصورة قوية بحيث تكاد تصدق على العصر البطلمي كله أن " البطالمة كانوا يهدفون إلى نفس الغرض الدعائي السياسى حين عهدوا بأمانة المكتبة إلى سلسلة من الأمناء كانوا أبعد ما يكون عن طبقة الموظفين الذين يؤدون عملا روتينيا آليا ، بل كانوا بحق مجموعة من العلماء برز كل منهم فى ميدانه كأبرع ما يكون التبريز."2 فكان هناك من العلماء من تولى أمانة المكتبة، وقام بالإشراف على العمل بها . وهذه مسألة تكشف لنا إلى أى حد اعتبرت وظيفة أمين المكتبة فى ذلك العصر من أهم الوظائف على الإطلاق ، وبخاصة أن أمين المكتبة فى هذه الحالة باعتباره من العلماء ، يعرف احتياجات الباحثين والعلماء الذين يترددون على المكتبة ، ويعرف كيفية تزويد المكتبة بالمقتنيات الحديثة باستمرار لأهميتها للدرس والاطلاع ، فضلا عن تجديد شباب المكتبة بصورة دائمة .

أضف إلى هذا أنه إذا أخذنا بما تذهب إليه بعض الروايات من أن كاليماخوس لم يكن أمينا للمكتبة ، وإنما كان مجرد مفهرس للمكتبة ، فإنه فى هذه الحالة علينا أن نواجه سؤالاً آخر ملحا وهو : أمن الممكن بالنسبة لأى شخص غير منخرط فى منظومة العمل الإداري الرسمى

¹ المرجع السابق ، ص 274

² د. لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 191

(الوظيفى) داخل المكتبة ، والمكتبة الملكية بالذات ، أن يدخل إلى المكتبة دون أن تكون له علاقة ، أو مسؤولية محددة ، ليجرى تصنيفا للمكتبة ؟ إنه حتى فى مكتباتنا الحديثة لا يمكن لأى شخص لا تربطه علاقة ما بالمكتبة أن يقوم بمثل هذا العمل ؛ إلا إذا كان مكلفا بكتاب رسمى ، ومن المسؤول الذى تخضع المكتبة لإشرافه مباشرة . وهنا يمكن أن نلمس أهمية العبارة التى ذكرها الدكتور مصطفى العبادى التى أراد بها أن يحسم النقاش حول الجدل الدائر فى هذه النقطة بالذات، حيث إن كاليماخوس حسب ما تقرره العبارة التى ذكرها " انيطت به مهمة ومسؤولية محددة داخل المكتبة الملكية ، كان نتيجتها كتالوجه العظيم (الفهرست) ". والمعنى الذى يمكن أن يفهم من هذه العبارة ، أو القول (انيطت به مهمة ومسؤولية محددة داخل المكتبة الملكية) ، أن هذه المهمة لا يمكن أن تكون إلا بأمر مباشر من الملك، فهو وحده الذى يمكن أن يصدر مثل هذا التكليف ، وعلى وجه التحديد(داخل المكتبة الملكية). ومن ثم فإنه سواء أكان كاليماخوس أميناً للمكتبة أم لم يكن ، فقد كانت هناك مسؤولية محددة ملقاة على كاهله وهى فهرسة المكتبة . ولاشك أن هذا حدث بأمر ملكى.

والجدير بالذكر هنا أنه طالما صدر أمر ملكى بفهرسة الكتب داخل المكتبة الملكية ، فإن هذا يعنى أنه لم يعد بالإمكان التعامل مع المكتبة دون مرشد أو دليل علمى يبين مواضع الكتب وأماكن تواجدها،

واستقلال الفنون عن بعضها ، ويعنى أيضا أن عدد الكتب التى كانت بالمكتبة أكبر من أن يتم التعامل معها دون دليل . وأنه نظرا لضخامة أعداد الكتب ، فعلينا أن نتوقع أنه ليس ميسورا لفرد واحد فحسب أن يقوم بعبء العمل فى الفهرسة والتصنيف وحده ، ومن ثم " لم يكن كاليماخوس يستطيع بمفرده أن يحصر ويسجل ويصنف كل هذا العدد من الأعمال فى مكتبة الإسكندرية . وقد قيل أنه قام وحده بإعداد خمس الفهرس أى نحو تسعين ألف عمل ، وجاء من بعده ، وربما فى جزء من حياته ، أمناء آخرون تعاقبوا عليه وأكملوه " ¹ . وربما كان من الطبيعى أن نضع فى اعتبارنا استعانة كاليماخوس بإعداد من الباحثين أو المساعدين لاتمام الفهرس كما سبق أن ذكرنا ، وأن تكون مهمته الأساسية الإشراف ، وبخاصة أن أمين المكتبة فى ذلك الوقت كانت له مهام تربوية أخرى داخل القصر الملكى . وفى هذا الصدد يذكر الدكتور ابراهيم نصحي "أن زنودوتوس وأبولونيوس الروديسى واراتوسيثينس وارسطارخوس كانوا معلمى أبناء معاصريهم من البطالمة " ² ، وهذه مهمة أساسية بطبيعة الحال ، لأن الملوك كانوا يتقون فى العلماء وحكمتهم ، ولذا "فإننا لا نعدو الحقيقة إذا استخلصنا من ذلك أن أمين المكتبة كان فى نفس الوقت كذلك مربى أفراد الأسرة

¹ د. شعبان عبد العزيز خليفة ، المرجع السابق ، ص 291

² د . ابراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ص 803

المالكة"¹. وعند هذا التفسير تصبح مسألة المسؤولية التي انيطت بالمفهرس الأول ، كاليماخوس ، داخل المكتبة الملكية مفهومة، لأنها تتصل بطبيعة عمله كمربي ومعلم لأبناء الأسرة الملكية . ويصبح تواجهه في هذا الإطار بمرسوم ملكي.

ومادام كاليماخوس وضع اللمسات الأولى للعمل في الفهرست الذي وضعه ، فإنه بذلك قد " ابتكر طريقة تقسيم الأعمال الكبيرة إلى (أجزاء) أو (كتب) حتى تصير الملفات الكبيرة متوازنة في حجومها ويسهل تناولها وتداولها وتخزينها واسترجاعها "² . وعلى هذا الأساس لابد وأن يكون التقسيم الأساسي للكتب أدى إلى إمكان توزيعها على الرفوف وفي القوائم ، وهذه مسألة مهمة بالنسبة للتعامل مع الكتب في المكتبة .

واللافت للانتباه أنه لا توجد لدينا نسخة من فهرس كاليماخوس، وقد عبر سارتون عن حسرته لفقدان هذا الفهرس قائلا: " كم نتمنى لو أننا لم نفقد هذا الفهرس، لأن معظم الكتب التي كانت في متناول علماء الإسكندرية فقدت تماما، وكثير غيرها من المؤلفات القديمة غير معروف لنا إلا عن طريق الاقتباسات القليلة التي نقل منها الناقلين"³

¹ المرجع السابق ، ص 803

² د. شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات في العصور القديمة ، ص 290

³ جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ص 273

ويتفق مع هذا الرأي الدكتور شعبان خليفه الذى يؤكد أن الاقتباسات أو القطع التى تم العثور عليها" تكشف عن جهد عظيم وحس بيبلوجرافى رائع. ويقع الفهرس فى 120 لفافة¹ أو مجلد²، وهو "أول فهرست منظم وضع فى التاريخ"³ وقد وضع هذا الفهرس لما "صارت المكتبة غنية بحيث لا يمكن استخدامها دون الاستعانة بفهرس هام"⁴. ولضخامة المكتبة "قام كاليماخوس بوضع فهرس الكتب وضمنها تاريخا موجزا لحياة أشهر المؤلفين".⁵

ويذكر جورج سارتون⁶ أن الفهرس الذى وضعه كاليماخوس قسم إلى ثمانية أقسام هى :

- 1- المؤلفون المسرحيون
- 2- شعراء الملاحم والأناشيد
- 3- المشرعون
- 4- الفلاسفة
- 5- المؤرخون

¹ د. شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 290
² محمد احمد حسين ، مكتبة الإسكندرية، ص 26
³ المرجع السابق ، ص 26
⁴ جورج سارتون ، المرجع السابق ، ص 272
⁵ إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ص 803
⁶ سارتون ، المرجع السابق ، ص ص 272-273
وأيضا : د. إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ص 803

- 6- الخطباء
 - 7- أساتذة علم الخطابة
 - 8- مؤلفون متنوعون
- لكن هناك كتابات أخرى¹ تقدم لنا تقسيما على عشرة أقسام هي:
- 1- شعراء الملاحم والشعر الغنائي بصفة عامة
 - 2- الشعر التمثيلي (ويقسم فى داخله إلى التراجيديا والكوميديا)
 - 3- القانون
 - 4- الفلسفة
 - 5- التاريخ
 - 6- الخطابة (البلاغة)
 - 7- الطب
 - 8- العلوم الرياضية
 - 9- العلوم الطبيعية
 - 10- مجموعات

وقد نظر المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم إلى الفهرس باعتبارها أداة مفيدة ومهمة بالنسبة لعلماء الأكاديمية الذين زادوا عليه على مر العصور²، وأنه من حيث القيمة العلمية يتجاوز كونه قائمة

¹ شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 290 - 291

² محمد احمد حسين ، مكتبة الإسكندرية ، ص 26 - 27

عادية للكتب، "لأنه تضمن ملاحظات تاريخية وتحليلية"¹ ومن ثم كان " في كثير من الأحيان يعطى حكمه على قيمة الكتاب وعلى مؤلفه الحقيقي"²، وهذه المسألة أفادت عمل الأجيال التالية، وأدت إلى معرفتنا ببعض الشذرات عن الكتابات المفقودة التي لم تصلنا أصلاً. وهذا ما جعل الأستاذ سارتون يربط بين ما ورد من كتابات في الفهرس وبين المؤلفين ويتساءل عن الكتب العلمية. إذ أن الفهرس بطبيعته، وكما هو معروف لنا، عمل يدعو إلى الدهشة والإعجاب لضخامته، وهو في الوقت نفسه وحسب التصنيف الذي يذكره الأستاذ سارتون يؤدي بنا أن نستنتج أنه ربما وضعت في القسم الرابع مع الفلاسفة، أو في القسم الثامن مع المؤلفين المتنوعين، وهو قسم الموضوعات المتنوعة الضروري لاتمام أى خطة أو منهج للتصنيف.³

بيد أن العلامة جورج سارتون يشير في الوقت نفسه إلى اختلاف الترتيب في الأقسام، إذ الترتيب في بعض الأقسام كان زمنياً، وفي أقسام أخرى كان موضوعياً، بينما في أقسام أخرى كان يقوم على ترتيب حروف الهجاء. هذا فضلاً عن أنه كان لكل كتاب عنوانه، واسم لمؤلفه، وكان في كثير من الأحيان يناقش المؤلف في أصل تأليفه

¹ سارتون، المرجع السابق، ص 273

² محمد أحمد حسين، المرجع السابق، ص 27

³ سارتون، تاريخ العلم، ص 273

إذا لزم الأمر، ويذكر بعض السطور الأولى من الكتاب . وهذه الطريقة نجد تطبيقاً لها في كتاب الفهرست الذي وضعه ابن النديم ، مما يرجح أن تكون إحدى نسخه قد وقعت لابن النديم بصورة أو بأخرى ، وهذا ما لا تتوافر عنه معلومات مؤكدة . ويشير سارتون إلى أنه " من المحتمل أن بعض هذه الدلالات كانت تكتب مرة أخرى في البطاقة المرافقة باللفافة البردية، لأن تصنيف عدد كبير من اللفائف يتطلب بعض إشارات للإهداء إليها، مع عمل بعض البطاقات لكل منها".¹

إن هذا العمل لا يمكن بحال من الأحوال للأجيال الراهنة أن تقدر قيمته العلمية إذا نظرنا إلى هذا الجهد بمنظور العصر الذي عاش فيه كاليماخوس وهو المنظور الوحيد الذي يمكن لنا من خلال تقييم هذا العمل لاكتشفنا ضخامته وأهميته التاريخية في الوقت نفسه. وهذا ما جعل سارتون يطلق على كاليماخوس " لقب المفهرس الأول"، وهو أيضاً ما جعل الدكتور شعبان خليفه يذهب إلى أن كاليماخوس "أهم شخصيات تلك المكتبة على الإطلاق من وجهة نظر علم المكتبات وعلم الببليوجرافيا حيث قام بإعداد فهرس المكتبة الذي اعتبر أول ببليوجرافيا عالمية في التاريخ"²، وهذا ما يجعله يستحق "لقب أبو الببليوجرافيا".

¹ سارتون ، المرجع السابق ، ص 273

² شعبان خليفه ، المرجع السابق ، ص 289

والفهرس الذى أعده كاليماخوس على مايرى الأستاذ سارتون " مزود بالإيضاحات ومن المستطاع أن نسميه تاريخ الأدب اليونانى"¹. وقد بين الأستاذ سارتون أهمية هذا الفهرس بمقارنته بعمل ابن النديم الذى أتى بعده فى القرن العاشر الميلادى ، يقول سارتون فى فقرة مهمة " ولكى نقدر هذا الفهرس القديم حق قدره يكفى أن نذكر كتاب الفهرست الذى ألفه محمد بن إسحاق بن النديم (النصف الثانى من القرن العاشر). وهو الكتاب الذى ندين له بجزء كبير مما نعرف عن الآداب العربية المفقودة التى ربما ظلت مجهولة لدينا كما هو الحال فى كثير من المؤلفات اليونانية الهامة"². إن إنتاج مثل هذا العمل (الفهرست) شكل فى كلتا الحالتين (كاليماخوس - ابن النديم) عملا إبداعيا من الطراز الأول اعتبر علامة بارزة فى عصريهما. ولكن ربما جاز لنا أن نطلق مثل هذا الحكم على كاليماخوس الذى قدم لنا أول فهرست لمكتبة الإسكندرية، أما فى حالة ابن النديم فإن الموقف يختلف تماما . وآية ذلك أن ابن النديم وجد أمامه مادة علمية يمكن أن يقتبس منها وينهل عنها ويعمل على هداها، الأمر الذى لم يكن متاحا أمام كاليماخوس ، ومع هذا نقول إن العمل الذى قدمه ابن النديم يعتبر عملا ابداعيا ، لأنه قدم لنا ذخائر معرفية عن كتب لم تصل إلى أيدينا، كما

¹ سارتون ، المرجع السابق ، ص 273

² سارتون ، المرجع السابق، ص 273

قدم لنا معرفة واسعة لمادة علمية وردت في كتابات انتشرت في حضارات أخرى ولم تكن معروفة بالنسبة للمسلمين ، وانتقلت هذه المعرفة إلى العالم الأوروبي فيما بعد.

ابن النديم وكتاب الفهرست

والواقع أن المطلع على كتاب ابن النديم يلتقى بواجهة ثقافية عقلانية لها أهميتها من الناحيتين التاريخية والثقافية ، وكذلك من ناحية الدراسات المقارنة ، ومع أننا لانعلم على وجه اليقين ما إذا كان ابن النديم قد اطلع على بعض الكتابات القديمة عن الفهرست الذى وضعه كاليماخوس ، إلا أن هذا لايحول بيننا وبين التعرف على ما ذكره ابن النديم فى الفهرست لنعرف أواصر الصلات بين العاملين من الناحية العامة.

يذكر ابن النديم فى صدر كتابه " هذا فهرست كتب جميع الأمم ، من العرب والعجم ، الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم ، واخبار مصنفها ، وطبقات مؤلفيها ، وانسابهم ، وتاريخ مواليدهم ، واوقات وفاتهم ، واماكن بلدانهم ، ومنابعهم ، ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة ."¹ ثم يبدأ ابن النديم فى ذكر محتويات الفهرست التى يصنفها فى عشر مقالات وهى :

¹ ابن النديم ، الفهرست ، ص 3

المقالة الأولى ، وهى ثلاثة فنون:

الفن الأول : فى وصف لغات الأمم من العرب والعجم ، ونعوت
أقلامها، وأنواع خطوطها ، وأشكال كتاباتها .

الفن الثانى : فى أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين،
ومذاهب أهلها .

الفن الثالث : فى نعت الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وأسماء الكتب المصنفة فى علومه ،
وأخبار القراء وأسماء روايتهم ، والشواذ من قرائتهم .

المقالة الثانية ، وهى ثلاثة فنون فى النحويين واللغويين :

الفن الأول : فى ابتداء النحو ، وأخبار النحويين البصريين وفصحاء
الاعراب ، وأسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين ، وأسماء
كتبهم.

الفن الثالث : فى ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين ، وأسماء
كتبهم.

المقالة الثالثة ، وهى ثلاثة فنون فى الأخبار والآداب والسير
والأنساب.

الفن الأول : فى أخبار الأخباريين والرواة والنسابين وأصحاب السير
والأحداث ، وأسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار الملوك والكتاب والمترسلين ، وعمال الخراج واصحاب الدواوين ، واسماء كتبهم .

الفن الثالث : فى اخبار الندماء والجلساء (والأدباء) والمغنين والصفادمة والصفاعة والمضحكين ، واسماء كتبهم .

المقالة الرابعة ، وهى فنان فى الشعر والشعراء :

الفن الأول : فى طبقات الشعراء الجاهليين ، والاسلاميين ممن لحق الجاهلية ، وصناع دواوينهم ، واسماء رواتهم .

الفن الثانى : فى طبقات شعراء الاسلاميين وشعراء المحدثين إلى عصرنا هذا .

المقالة الخامسة ، وهى خمسة فنون فى الكلام والمتكلمين :

الفن الأول : فى ابتداء امر الكلام والمتكلمين من المعتزلة المرجئة، واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى اخبار متكلمى الشيعة الامامية والزيدية وغيرهم من الغلاة والاسماعيلية ، واسماء كتبهم .

الفن الثالث : فى اخبار متكلمى المجبرة والحشوية ، واسماء كتبهم .

الفن الرابع : فى اخبار متكلمى الخوارج واصنافهم ، واسماء كتبهم .

الفن الخامس : فى اخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة المتكلمين على الوسواس والخطرات ، واسماء كتبهم .

المقالة السادسة ، وهى ثمانية فنون فى الفقه والفقهاء والمحدثين :

الفن الأول : فى اخبار مالك واصحابه ، واسماء كتبهم .
الفن الثانى : فى اخبار ابى حنيفة (النعمان) واصحابه ، واسماء كتبهم .

الفن الثالث : فى اخبار الامام الشافعى واصحابه ، واسماء كتبهم .
الفن الرابع : فى اخبار داود واصحابه ، واسماء كتبهم .
الفن الخامس : فى اخبار فقهاء الشيعة ، واسماء كتبهم .
الفن السادس : فى اخبار فقهاء اصحاب الحديث والمحدثين ، واسماء كتبهم .

الفن السابع : فى اخبار ابى جعفر الطبرى واصحابه ، واسماء كتبهم .
الفن الثامن : فى اخبار فقهاء الشراة ، واسماء كتبهم .
المقالة السابعة ، وهى ثلاثة فنون فى الفلسفة والعلوم القديمة :
الفن الأول : فى اخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين واسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجودة منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم .

الفن الثانى : فى اخبار اصحاب التعاليم ، المهندسين والأرثماطيقين والموسيقيين والحساب المنجمين وصناع الآلات واصحاب الحيل والحركات .

الفن الثالث : فى ابتداء الطب واخبار المتطبيين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم ونقولها وتقاسيرها .

المقالة الثامنة ، وهى ثلاثة فنون فى الاسمار والخرافات والعزائم
والسحر والشعبذة :

الفن الأول : فى اخبار المسامرين والمخرفين والمصورين واسماء
الكتب المصنفة فى الاسمار والخرافات .

الفن الثانى : فى اخبار المعزمين والمشعبذين والسحرة واسماء
كتبهم .

الفن الثالث : فى اسماء الكتب المصنفة فى معان شتى لا يعرف
مصنفوها ولا مؤلفوها .

المقالة التاسعة ، وهى فنان فى المذاهب والاعتقادات :

الفن الأول : فى وصف مذاهب الحرائية الكلدانيين المعروفين فى
عصرنا بالصابئة ومذاهب النثوية ، من المنانية والديصانية والخرمية
والمرقيونية والمزدكية وغيرهم واسماء كتبهم .

الفن الثانى : فى وصف المذاهب الغربية الطريفة كمذاهب الهند
والصين وغيرهم من اجناس الأمم .

المقالة العاشرة ، وتحتوى على اخبار الكيمائيين والصنعويين من
الفلاسفة القدماء والمحدثين واسماء كتبهم .

لاشك إذن أن هناك تشابهات بين ابن النديم وكاليماخوس ، فمن
الواضح أنهما اتخذا قاعدة موضوعية للتصنيف وهذه القاعدة فى
حالة كاليماخوس تستند إلى ترتيب الفنون ، أما فى حالة ابن النديم فإنها

تستند إلى استقراء المذاهب ، وهذا الاستقراء يستند بدوره إلى الترتيب التاريخي وهو مانلاحظه أيضا في كلام ابن النديم في مقدمة الكتاب .

ومن جهة ثانية نجد أن ابن النديم يذكر كتابات المفكرين وبعض أقوالهم وترجمات كتبهم إلى اللغة العربية ، واسم المترجم أو المترجمين إن تعددت الترجمات وقيمة هذه النقطة بالذات تتمثل في أنها المفتاح في كثير من الحالات لمعرفة الترجمة الأصلية وطبيعة عمله ونشاطه الفكري وكيفية الترجمة ، أو الطريقة التي اعتمد عليها في الترجمة من الأصل الذي كان لديه إذا كان سريانيا أو يونانيا أو فارسيا أو هنديا أو غير ذلك من اللغات الأخرى . أضف إلى هذا ما يصوره لنا ابن النديم عن العصور التي ترجمت فيها الكتب أو المقالات وهو في هذا يتشابه مع كاليماخوس الذي ذكر في الفهرست الذي عمله بعض مقاطع من الكتب التي ذكرها. وهذا التشابه ربما تكون له جوانب أخرى لدى كل منهما، إذ من الواضح أنهما معا حرصا على إبراز أهمية الكتابات المذكورة. لكن إذا كانت المسألة محدودة في عصر كاليماخوس فإنها ليست كذلك عند ابن النديم ، فقد تراكمت المعارف والكتابات التي وصلت ابن النديم على مدى أكثر من ألف عام.

لكن يجب علينا أيضا أن نلاحظ أن الفهرست الذى عمله ابن النديم يختلف إلى حد كبير عن الفهرست الذى عمله كاليماخوس . إذ الفهرست فى حالة ابن النديم جاء تسجيلاً لكتابات موجودة أو وردت عنها أخبار أو اختفت ، ولم يقصد به أن يكون فهرسا لمكتبة بعينها مثل بيت الحكمة أو غيرها ، هو مجرد سجل احصائى لما اتيح لابن النديم أن يعرفه من كتابات . لقد ذكر ابن النديم فى الفهرست أكثر من ستة آلاف كتاب وذكر من الأعلام ثلاثة آلاف وخمسمائة علم تقريبا . ولاشك أن هذا العدد الكبير من الأعلام والكتابات التى ذكرها ابن النديم يدل على سعة ثقافته واحاطته بالكتب القديمة والحركة الثقافية والعلمية التى كانت قريبة العهد به . لكنه بطبيعة الحال لم يتطرق إلى ذكر كتب أخرى صدرت بلغات أخرى غير العربية والفارسية مما لايعرفه ابن النديم ، لكنه مع كل هذا قدم لنا عددا كبيرا من الأبجديات للشعوب المختلفة فى مستهل كتابه الفهرست . وهذه مسألة مهمة تكشف عن طبيعة وغزارة الانتاج الفكرى والثقافى فى عصر ابن النديم . وربما لو تيسر لابن النديم أن يقدم لنا احصاء للكتابات التى كانت موجودة فى بيت الحكمة لأمكنه أن يقدم لنا أشياء كثيرة لم نعرف عنها أصلا ولم تصل إلينا خاصة ونحن نعلم أن اجتياح المغول بغداد بعد عصر ابن النديم بأكثر من قرن ونصف نتج عنه فقدان وضياح الكتب التى عبرت عليها جيوش الغزاة وداستها سنابك الخيل فى نهر

دجلة . لم يقصد ابن النديم إذن إلى تصنيف مكتبة من المكتبات ، وإنما كان كل همه أن يقدم لنا خلاصة لثقافة عصره . وربما لو ذكر لنا ابن النديم ما كان موجودا فى المكتبات العامة والخاصة لأمكن لنا أن نعرف أشياء كثيرة مما ضاع وفقد .

لكننا نلاحظ أيضا أن فهرست ابن النديم قدم لنا احاطة وافية بالثقافة اليونانية وفلاسفة اليونان القدماء ، وفلاسفة وحكماء الإسكندرية وذلك من خلال استعراض كتاباتهم وأهم الترجمات التى عملت لها فى العالم الإسلامى وأهميتها ، ومن خلال هذا التتبع استطاع أن يرصد جوانب كثيرة من الكتابات التى لم تصلنا أصلا . والأكثر من هذا أنه قدم لنا بعض الأخبار المهمة عن الكوارث التى حلت بكتابات بعض المفكرين والعلماء فى مدرسة الإسكندرية القديمة مثل أرشميدس الذى ذكر أن الروم حرقت كتبه .

أما الفهرست الذى وضعه كاليماخوس فإنه جاء تصنيفا لكتابات موجودة فى مكتبة الإسكندرية القديمة وكانت تحت يدى المفهرس، وقد عملت لها بطاقات داخل المكتبة حتى يمكن لرواد المكتبة أن ينتفعوا بها بصورة دقيقة وحتى يمكنهم الحصول على الكتب التى يريدونها .

إذن جاء فهرست كاليماخوس حصيلة للعمل العام داخل مكتبة الإسكندرية لسنوات طويلة ومن واقع أرفف المكتبة وبياناتها ، على حين جاء فهرست ابن النديم ليكشف عن طبيعة المشروع الثقافى الذى

اتجه إليه ابن النديم ، والذي أراد أن يقدمه خلاصة لعقل عصره وطبيعته الابداعية . والذي نعتبره بمثابة اللبنة الأولى فى الثورة المعلوماتية التى أراد ابن النديم أن يحققها ، وهو الأمر الذى يجعل الباحثين بصفة دائمة ينقبون فى هذا المؤلف المهم الذى لاشك فى أنه يكشف عن طبيعة عصر التدفق المعرفى بكل أبعاده .

لابد أيضا أن نشير هنا إلى أن كتاب الفهرس الذى قدمه كاليماخوس لا توجد منه نسخة تحت أيدينا أو فى الكتابات التى دونت باليونانية أو اللاتينية أو غيرها بعد عصر كاليماخوس ، على حين أن كتاب الفهرست الذى دونه ابن النديم نسخه موجودة بين أيدينا ونعرف مافيه من معلومات .

إن الملاحظ المدقق فى الكتابين يجد أنهما كانا يعبران عن الوجه الثقافى للعصر الذى عاش فيه كاليماخوس وابن النديم ، وهذا يعنى أن الطابع الثقافى العام لعصريهما اتسم بالطابع الشمولى الموسوعى . وهذا يعنى من جانب آخر أن المعرفة فى ذلك العصر كانت أقرب إلى النزعة الكلية أكثر من اتجاهها إلى الناحية التخصصية الجزئية . أضف إلى هذا أن الموسوعات توفر مصادر متعددة للمعلومات يقصدها كل من يبحث عن المعلومة من الناحية التاريخية فى تطورها وأبعادها الأساسية .

كل هذا يلقي الضوء على تفكير القداماء ويكشف عن اهتمامها بمصادر المعلومات وكأن لسان حالهم يقول أنهم وضعوا أسس عصر المعلومات الذي نعيشه الآن .

الفصل الخامس

علماء الإسكندرية

يبدو أن الإسكندرية كانت دائما وأبدا على موعد مع القدر وهو ما تكشف عنه صفحات التاريخ الطويل المجيد لهذه المدينة التي شهدت نهضة عالمية عبر سنوات طويلة ، وكانت دائما موضع أنظار القادمين إليها من الشرق والغرب على السواء . الواضح للعيان أن هذه النهضة شكلت بدورها تطلع الإسكندرية الدائم إلى مزيد من التقدم والازدهار ، وقد انعكس هذا بدوره على اسهامات أجيال العلماء الذين أنجبته الإسكندرية والذين أتوا إليها وعاشوا حياتهم فيها يقدمون العطاء المتواصل جيلاً من بعد جيل.

لقد شكلت مدرسة الإسكندرية القديمة نقطة انطلاق حضارى مهمة فى العالم القديم والحديث على السواء بالنسبة لشعوب البحر المتوسط ، خاصة بعد تأسيس المتحف والمكتبة وانتقال التراث الثقافى الأسمى والعلمى من أثينا ومن غيرها من بقاع العالم إلى الإسكندرية مما جعل هذه المدينة أكبر المراكز العلمية الحضارية فى العالم القديم ، ونقطة التقاء محورية لشعوب الشرق والغرب.

برز فى الإسكندرية العديد من العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وبقى مؤلفاتهم وكتاباتهم خالدة عبر الزمان ، مثل كتابات اقليدس عالم الرياضيات المشهور الذى ظلت هندسته موضع اعجاب وتقدير العالم أكثر من ألفى عام ومثل كتابات بطليموس الفلكية والجغرافية ، وغيرهما

من العلماء والمفكرين الذين قدموا انجازات علمية رائدة بهرت العالم ، بل وشكلت الروح العلمى لقرون عديدة .

ونحن إذا أردنا أن نتناول علماء الإسكندرية عبر العصور فإن الحديث سوف يطول بنا ويمتد ليشمل العديد من العلماء والتخصصات العملية والأدبية وغيرها التى أثرت الحياة العلمية فى الإسكندرية ، ولكن حسبنا هنا أن نشير إلى نماذج قليلة للمفكرين الذين أثروا فى تاريخ الفكر العالمى بصورة ايجابية ، أدت إلى نهضة البشرية وأثرت فى حضارات أخرى عبر التاريخ . وبطبيعة الحال فإن تناول الأمثلة التى اخترناها إنما جاء لابرار المكانة العلمية الراقية التى احتلها الفكر السكندرى علميا وتاريخيا مما جعله فكرا عالميا، بل ويشكل دائرة مهمة من دوائر حضارة العلم بصفة عامة . من هم إذن أهم علماء الإسكندرية ؟ وماهى الاضافات التى قدموها من خلال فكر مدرسة الإسكندرية ؟

ربما كان العالم والطبيب السكندرى هيروفيلوس من أشهر وأهم العلماء السكندريين الذين ظهروا فى فترة تألق وازدهار العلوم فى الإسكندرية وأثروا بعمق فى تطور وحياة العلم وتاريخ الطب بصفة خاصة . ولاشك أن هذا يدفعنا إلى التساؤل عن مكانة هذا العالم السكندرى وطبيعة اسهاماته وكيف كانت نبراسا للبشرية.

1- هيروفيلوس

يذكر ويل ديورانت أن هيروفيلوس الذى عاش فى الإسكندرية حوالى عام 285 ق.م ونبغ فى عهد بطلميوس سوتير ، قام بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفا طبيا وكذلك قام بتشرح المخ ووصف مقم الدماغ والمخيخ والسحايا ، وجعل المخ مركز التفكير وبذا أعاد له مكانته السامية . وهو أول من فهم وظيفة الأعصاب وقسمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكى، وميز الشرايين من الأوردة، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هى الأوعية التى تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم. وضم جس النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض واستخدم الساعة المائية لقياس عدد ضربات القلب . وشرح المبيض والرحم والحويصلات المنوية وغدة البروستاتا ووصفها ، ودرس الكبد والبنكرياس وسمى الأمعاء الاثنى عشر باسمها. وبالجملة هو أعظم علماء التشريح فى العهد القديم .

ومن ثم فإن هيروفيلس على ما يذهب سارتون "أول مشغل بالتشريح العلمى"¹ ، ولذا فإنه يعتبر الباحث الرئيسى فى ميدان التشريح ، إذ قد بلغت مشاهداته من الطول بحيث يبدو لمن يطالعها كأنها ثبتت محتويات مختصر جامع فى علم التشريح ، ومع هذا فإننا نرى مبالغة فى هذا رأى من جانب سارتون ، خاصة وأن المصريين القدماء كانوا رواد التشريح وهذا ما كشفت عنه بردية أودوين سميث. ولكن أطباء

¹ سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ، ص 34

الإسكندرية من بعد هيروفيلوس افتتحوا عصر التشريح، وسوف يتبين لنا أن هذا التقليد سوف يتبع في مدرسة الإسكندرية على مر العصور وسوف ينتقل إلى جالينوس ومن بعده سينتقل إلى العلماء العرب . سوف يتابع الرازي دروسه في التشريح ويشترط على المتعلمين لدراسة الطب ضرورة اتقان التشريح في بداية الأمر ، وسوف ينطلق الحسن بن الهيثم في دراسته للعين وتشريحها إلى أحداث ثورة علمية متكاملة في مجال البصريّات.

2- ارستراتوس Erasistratos

وهو من أهم علماء الإسكندرية وأطبائها المشهورين فقد عاش في الإسكندرية حوالي عام 258 ق.م ، وقد واصل المسح التشريحي واهتم أكثر من سابقه بوظائف الأعضاء. وميز بدقة المخ من المخيخ ، وأجرى العديد من التجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ المختلفة ، ووصف وشرح عمل الأوعية اللمفاوية في غشاء الأمعاء والصمامين الأورطي والرئوي في القلب . ويذكر أن كل عضو يتصل بسائر أجزاء الكائن الحي بثلاث طرق ، بشريان ووريد وعصب . وحاول تحليل الظواهر الفسيولوجية بعلم طبيعية . ورفض نظرية الأخلاط التي ذهب إليها هيبارخوس التي احتفظ بها هيروفيلوس . وقرر أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة ، وليس هو علاج لمرض بدواء . وكان يقاوم كثرة استعمال العقاقير، ويعتمد على تنظيم التغذية والاستحمام

والرياضة. وقد أثر هذا الاتجاه على كثير من الأطباء العرب وجعلهم يتجهون إلى العلاج بالغذاء ، والنصح بالرياضة.

3- اقليدس

أما اقليدس Euclid فيعتبر من أهم الشخصيات العلمية السكندرية ، وقد استقى أهميته عبر التاريخ من خلال كتابه المعروف باسم " الأصول " الذى طبقت شهرته الآفاق ، لاحكام نسقه الرياضى وفق أصول المنهج الاستنباطي Deductive Method الذى طبقه بصورة رائعة مما جعله مقصد الرياضيين والمفكرين عبر العصور.

ويذكر العلامة جورج سارتون أن اقليدس السكندري عاش فى عصر بطلميوس الأول ، وربما امتدت حياته إلى أيام فيلادلفيوس . ويروى لنا بعض الأمور التى تنبىء عن شخصيته كعالم . قيل أن بطلميوس الأول سأله ذات يوم إن كان يوجد فى الهندسة طريق أقصر من طريق الأصول؟ فأجابه بأن الهندسة لا يوصل إليها طريق ملكى . ويستنتج سارتون من هذه القصة أنه ربما لا تكون صادقة من الناحية التاريخية ، لكنها تتطوى على حقيقة مهمة وهى أن الرياضيات لا تأبه للأشخاص . لكن سارتون يذكر قصة أخرى عن اقليدس إذ سأله أحد المتعلمين عليه عن القيمة التى سوف يجنيها من تعلم الهندسة ؟ فنادى اقليدس على عبده وطلب إليه أن يرد عليه ماله . أما القصة الأولى فقد رواها برقلس ، وأما

الثانية فقد قصها ستوبايوس وكلاهما عاش في النصف الثاني من القرن الخامس.

ومع أن سارتون يتتبع حياة ونشاط اقليدس ، إلا أنه يؤكد عدم اتصاله بالمتحف بصفة رسمية ، لكنه مع هذا لابد وأنه كان على اتصال بالمكتبة . وباعتباره عالما رياضيا لم يكن بطبيعة الحال بحاجة إلى آلات وأدوات حتى يستعين بالمتحف ، وإنما كان بحاجة إلى المخطوطات والكتب الموجودة في المكتبة ليتم أعماله منها .

ويبين سارتون أن الخلط كثيرا ما حدث لدى الكتاب بين اقليدس السكندري واقليدس الميغاري . إن اقليدس الميغاري أحد تلامذة سقراط المخلصين الذين حضروا وفاة سقراط ، وهو أيضا صديق لأفلاطون ، وصاحب مدرسة فلسفية أسسها في ميغاري . وفي هذا الصدد يشير سارتون إلى أن الخلط الذي حدث بين الرجلين ظل قائما في الكتابات المختلفة حتى أواخر القرن السادس عشر حيث صححه فيديريجو كوماندينو Federigo Commandino في ترجمته اللاتينية التي ظهرت في بيسارو عام 1572 . ومن بعد ذلك بدأ الناس يتحدثون عن اقليدس الرياضي ونسوا اقليدس الميغاري .

وتشكل مسيرة اقليدس العلمية بعدا جديدا في إطار الدراسات الرياضية من الناحية التاريخية، والمتتبع لاسهاماته بشيء من التركيز والتدقيق يكتشف أثر هندسته في العالم العربي ، وكيف تناولها العلماء العرب،

والتطورات التي طرأت عليها. نتناول هذا الجانب من خلال المسئلة الخامسة. وبيان كيف تطورت المعرفة العلمية في هذا الجانب في العصر الحديث واسهام مدرسة الإسكندرية المعاصرة في هذا الاطار.

اقليدس وكتاب الأصول

يعتبر اقليدس من أهم العلماء الرياضيين الذين ظهوروا في الإسكندرية ولمعوا في مدرستها في حدود النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. وترجع أسباب شهرته إلى أمرين : الأول تدوينه لكتاب "أصول الهندسة" وهذا الكتاب كان موضع اهتمام علماء الاغريق أنفسهم وهو ما يشير إليه ابن النديم الذي يذكر أن هذا المؤلف كان موضع شرح من جانب ايسقلاوس وسنبليقوس الزفنى وبلس وايرن¹. والأمر الثاني المسئلة أو المصادرة الخامسة التي دارت حولها البحوث والدراسات لقرون طويلة ، وأدت الدراسات التي أجريت حولها إلى تطوير الرياضيات واكتشاف أنساق رياضية وهندسية جديدة . نتناول فيما يلي من فقرات الحديث عن كتاب "أصول الهندسة" ثم المصادرة الخامسة.

محتويات كتاب أصول الرياضيات

يتألف كتاب أصول الهندسة من ثلاثة عشر كتابا يمكن تصنيفها في المجموعات :

¹ ابن النديم ، الفهرست ، ص ص 325 وما بعدها

أ - مجموعة الكتب من الأول إلى السادس وتتناول الهندسة المستوية بكل موضوعاتها. حيث تتناول المقالة الأولى التعريفات والمصادرات ، والنظر في المثلثات والمتوازيات والأشكال المتوازية الأضلاع وغيرها. وأما المقالة الثانية فتحتوى على الجبر الهندسى. وخصصت المقالة الثالثة لتناول هندسة الدائرة . على حين أن المقالة الرابعة تدرس الأشكال المنتظمة الكثيرة الأضلاع . والمقالة الخامسة نظرية جديدة في التناسب يطبقها اقليدس على المقادير المشتركة (المنطقة) والمتباينة (الصماء) . وأما المقالة السادسة فهي تطبيقات لهذه النظرية على الهندسة المستوية .

ب - مجموعة الكتب من السابع إلى العاشر وتتناول الحساب ونظرية الأعداد والكميات المنطقية والجذور الصماء.

ج - مجموعة الكتب من الحادى عشر إلى الثالث عشر وتتناول الهندسة الفراغية والمجسمات.

ويرى سارتون أنه قد أضيفت إلى كتاب الأصول فى فترات لاحقة مقالتان أخريان عرفتا بالمقالة الرابعة عشرة والمقالة الخامسة عشرة ، واحتواهما كثير من النسخ والترجمات منها المخطوط والمطبوع . والمقالة الرابعة عشرة على مايعتقد هى من وضع ابسقلاوس السكندرى فى مطلع القرن الثانى قبل الميلاد ، وهى مقالة تشهد بقدرة رياضية فائقة. أما المقالة الخامسة عشر فترجع إلى عصر متأخر وهى أقل شأنًا.

ويشير سارتون إلى أنه من آثار تأملات أفلاطون المغرقة في الخيال أن اكتسبت نظرية المجسمات الكثيرة السطوح قدرا عظيما من الأهمية . ومن ثم رأى الناس أن علم الهندسة يبلغ قمته عند الوصول إلى معرفة الأجرام الأفلاطونية، وفي رأى برقلس أن اقليدس كان أفلاطونيا أقام صرح هندسته بقصد تفسير الأشكال الأفلاطونية ، ولكن سارتون يؤكد أن هذا الرأى ظاهر الخطأ. إن نظرية المجسمات المنتظمة هي النتيجة الطبيعية لهندسة المجسمات، ومن ثم كان لابد لكتاب الأصول أن ينتهي عندها . وفي رأى سارتون أنه كانت هناك اسهامات سابقة على اقليدس لأكثر من ألف عام ، لكن عبقريته ترجع إلى أنه كان أول جامع لهذه المعارف ، وقد رتبها في نسق منطقي متماسك .

ويعتمد كتاب " الأصول " بصفة أساسية على فكرة النسق الاستنباطي Deductive System ، هذا بالإضافة إلى أن النسق الإقليدى يستند إلى بديهيات وتعريفات ومسلمات. نقدم فيما يلي تعريفا بالنسق الاستنباطي بصفة عامة ، ثم نعرض لمكونات نسق اقليدس .

يقول العالم المصرى الدكتور محمد ثابت الفندى " حقيقة أنه لا يوجد علم أكثر عراقة في تاريخه من فلسفة الرياضة. فقد دخلت الرياضة مرحلة اليقين العلمى منذ أقدم المفكرين الذين حفظ لنا التاريخ أسماؤهم: طاليس وفيثاغور . كما أنه لا يوجد علم انحدر ألينا عبر القرون كبناء وثيق شاهد بالعبقرية العلمية للإنسان مثل هندسة الرياضى الإسكندري

إقليدس¹. هذا البناء الذي شيدت الرياضيات وفقا له هو ما انطلاق عليه النسق الاستنباطي الذي ينطلق ابتداءً من بديهيات وتعريفات ومسلمات معينة ليبرهن على مجموعة من النظريات أو اللواحق باستخدام قاعدة التعويض أو قاعدة اثبات التالي .

فكان ما يميز الرياضيات كعلم دقيق يتسم باليقين المطلق إنما هو ذلك البناء النسقي المحكم ، أو ما يعرف بالنسق الاستنباطي الذي يستمد اليقين من كون الاصول التي يبدأ منها مستقلة عن الواقع التجريبي أو عالم الخبرة ، ومن كونها قد صدرت عن العقل البحت - ولا شيء غير العقل البحت- وتخضع لشروطه .

والواقع أننا نجد المنطق يشترك أيضا مع الرياضيات في الخاصية الاستنباطية ، وربما من الناحية المنهجية وجدنا المنطق أسبق إلى البناء النسقي الاستنباطي من الرياضة . إن الرياضيات والمنطق يستندان معا إلى خاصية الاتساق المنطقي ، وهي تلك الخاصية التي تصدر بدورها عن مبدأ عدم التناقض ، وهو من أهم المبادئ والقوانين المنطقية . إن قانون عدم التناقض هو القانون المحوري الذي تأسس عليه المنطق كعلم، وهو ثاني قوانين المنطق. ومنذ اكتشفت بعض المخالفات Paradoxes الرياضية بدأ علماء الرياضيات يتحدثون عن التناقضات، وهو ما نألفه في كتابات رسل وغيره من الكتاب.

¹ د. محمد ثابت الفندي ، فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969 ،

إن أقدم نسق منطقي متكامل عرفته البشرية على الإطلاق واستخدم
وأسس على فكرة النسق الاستنباطي هو نسق المنطق الارسطي الذي
أودعه أرسطو نظرية القياس : قد لا تكون الرياضيات أقدم وأعرق
تاريخاً من المنطق ، لأن الرياضيات لم تنتظم في نسق استنباطي محكم
إلا في عصر اقليدس (300 ق . م) على ما يذكر الدكتور الفندي ، ولكن
من الواضح أن فكرة النسق الاستنباطي متحققة عند أرسطو (321-384
ق . م) في نظرية القياس ، وهو ما يجمع عليه المنطقة ومؤرخو الفكر
المنطقي.

أولاً : البديهيات

- الأشياء المتساوية لشيء واحد متساوية.
- إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أشياء متساوية كان الناتج متساوياً.
- إذا طرحت أشياء متساوية من أشياء متساوية كان الناتج متساوياً.
- بإضافة أشياء متساوية إلى أشياء غير متساوية نحصل على نواتج غير متساوية.
- بطرح أشياء متساوية من أشياء غير متساوية نحصل على نواتج غير متساوية.
- أضعاف الشيء الواحد متساوية.
- أنصاف الشيء الواحد متساوية.
- المقادير التي ينطبق الواحد منها على الآخر متساوية.

- الكل أكبر من الجزء .

ثانيا : التعريفات

- النقطة هي ما ليس له أجزاء .

- الخط طول بلا عرض .

- حد الخط نقطتان .

- المستقيم يقع بين نقطتي نهاية .

- السطح له طول وعرض فحسب .

- الخطوط هي نهاية السطوح .

- السطح المستوي هو الذي يقع عليه أى خط مستقيم .

- الزاوية المستوية تنشأ من ميل خطين متقابلين الواحد منهما على الآخر

بحيث يكون لكل خط اتجاه مخالف للآخر ، وهكذا

ثالثا : المسلمات

- يمكن رسم مستقيم واحد بين نقطتين.

- يمكن مد مستقيم إلى أى طول .

- يمكن رسم دائرة من أى مركز.

إن بناء النسق الإقليدي بالبرهان الذي يتقدم من البسيط إلى المعقد ثم الأكثر تعقيدا، فيبرهن على النظريات البسيطة ثم يتدرج منها إلى نظريات معقدة ، وينتقل من هذه وتلك إلى النظريات الأشد، وهكذا.

وكتاب " الأصول " كان من بين الكتابات المهمة التى انتقلت إلى العرب إبان حركة الترجمة والنقل ، حيث قام بترجمته إلى العربية لأول مرة

الحجاج بن يوسف بن مطر الذى ترجمه للخليفة هارون الرشيد فى أواخر القرن الثامن الميلادى، ثم فى عهد الخليفة المأمون إبان فترة تأسيس بيت الحكمة فى بغداد فى بداية القرن التاسع الميلادى قام الحجاج بن يوسف بتصحيح ترجمته الأولى وعمل ترجمة جديدة للكتاب. وقد عرفت الترجمة الأولى بالنقل الهارونى ، والترجمة الثانية بالنقل المأمونى. ويذكر ابن النديم فى الفهرست أن كتاب أصول الهندسة نقله أيضا إسحاق ابن حنين وأصلح ثابت ابن قرة هذا النقل ، ثم نقله أيضا أبو عثمان الدمشقى وقسطا بن لوقا¹.

إن أصبح كتاب " الاصول " بين أيدي الرياضيين والمفكرين العرب وهى مسألة تهمنا بالدرجة الأولى ، إذ أن نقل هذا الكتاب أحدث نقلة مهمة فى الفكر العربى العلمى لأنه كان قيد الشرح والشك والتصحيح . أما الشرح فيتمثل فى أن هذا الكتاب عملت عليه شروح متعددة من أهمهم جميعا شرح محمد بن موسى الماهانى ، والفضل بن حاتم النيريزى ، وثابت بن قرة ، وأبو جعفر الخازن وأبو الوفا البوزجاني ، وابن ناھويه الارجاني ، وأبو القاسم الأنطاكي ، وسند بن على ، وأبو الحسن بن كرنيب ، وأحمد بن الحسين الأهوازي ، ونظيف القس وغيرهم من الرياضيين فى القرن التاسع². وأما الشكوك فتزودنا كتب التراث ، وبصفة خاصة ابن النديم ، بعدد من كتابات الشكوك التى عملت على كتاب الأصول التى من بينها "

¹ ابن النديم ، الفهرست ، ص 325

² المرجع السابق ، 340 وما بعدها

شكوك كتاب اقليدس " من وضع قسطا ابن لوقا . كذلك فإن من أهم الشكوك التي وضعت على كتاب اقليدس ما دونه العلامة العربى الحسن بن الهيثم (+ 430 هـ) ، وهذا الكتاب بين أيدينا حيث إننا نقوم بتحقيقه ودراسته الآن ، وسوف يرى النور قريبا . وفى هذا الاطار أيضا نجد مجموعة الحلول التى من بينها " اصلاح كتاب اقليدس " للكندى ، ثم " اصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب اقليدس " وهى من وضع الكندى أيضا¹ ، شرح المشكل من كتاب اقليدس " وقد وضعه الكوهى وامتد هذا التأثير فيما بعد ليشمل كل الرياضيين الذين جاءوا فى الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر ومن أهمهم جميعا الحسن بن الهيثم الذى وضع " حل الشكوك على اقليدس " . ثم المحاولات التى قام بها نصير الدين الطوسى فى شأن المصادرة الخامسة . وقد تتبع جورج سارتون فى الجزء الرابع من تاريخ العلم المنحنى التاريخى للمصادرة الخامسة ، وكذلك فعل الدكتور عبد الحميد صبره فى مناقشته " برهان نصير الدين الطوسى على مصادرة اقليدس الخامسة " .

والواقع أن كتاب " أصول الهندسة " لاقليدس انتقل إلى العالم اللاتينى عبر الترجمة العربية فى فترة مبكرة ، وإبان حركة انتقال العلم العربى إلى أوروبا ، وأصبح الكتاب كاملا فى أيدي علماء الغرب فى صورته العربية المترجمة إلى اللاتينية مزودا فى طبعات مختلفة بالاضافات والتعليقات والشروحات التى وضعها العلماء العرب على الكتاب .

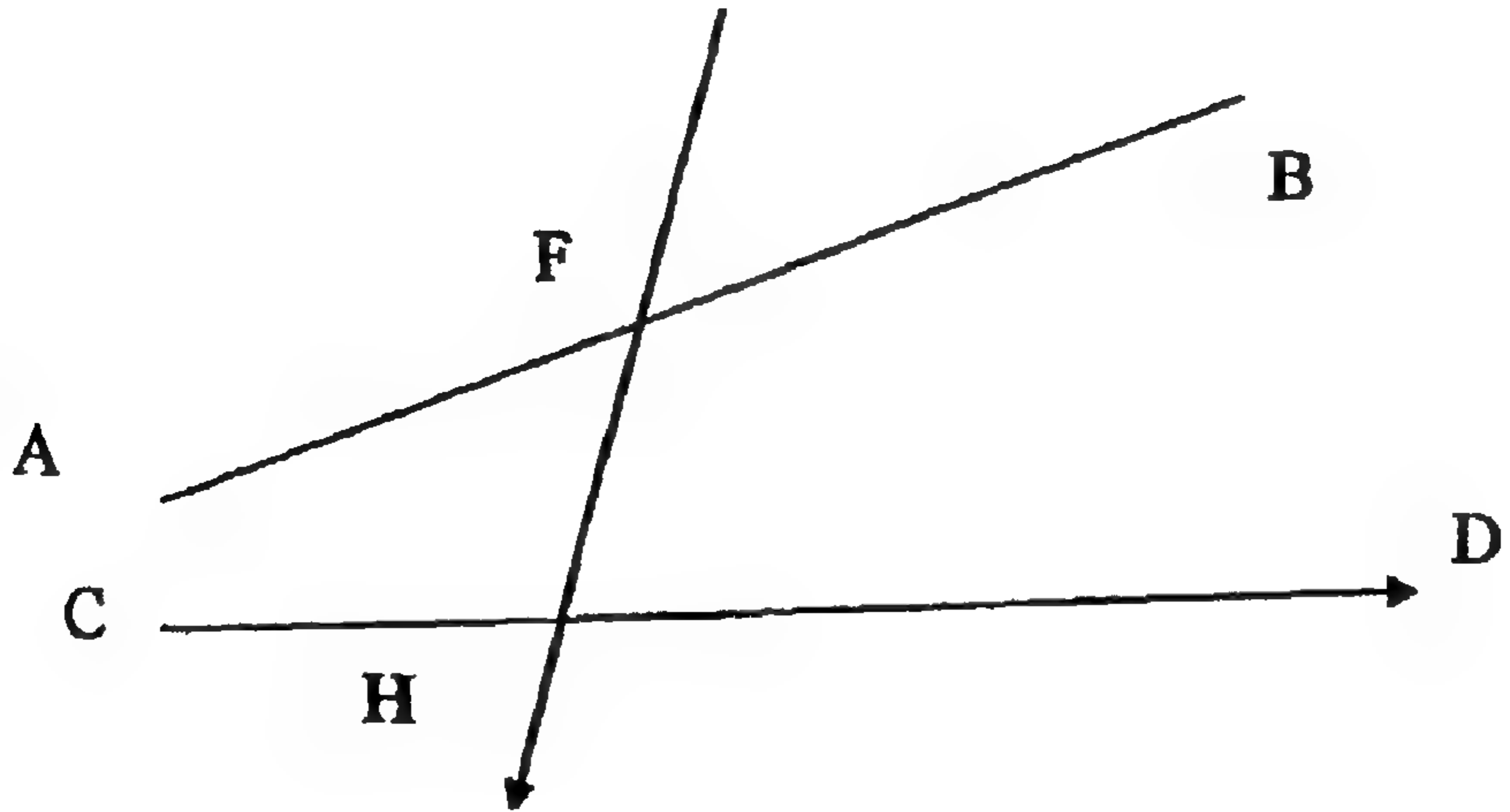
¹ المرجع السابق ، ص 317

ويهمنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن كتابات العلماء السكندريين خاصة اقليدس وبطليموس ، في مجالى الرياضيات والفلك ، حظيت بنصيب كبير من الدراسة والبحث لدى العلماء العرب .

المسلمة الخامسة

يشير نص المسلمة الخامسة كما وضعه جورج سارتون إلى أنه: اذا قطع مستقيم مستقيمين ، وكان مجموع الزاويتين الداخلتين في نفس الجانب أقل من قائمتين ، فان المستقيمين اذا مدا بدون حد يتلاقيان على نفس الجانب الذى تكون فيه الزاويتان أقل من قائمتين.

هذه المسلمة يمكن توضيحها رياضيا كما يلى :



تقرر المسلمة التقاء الخطين المستقيمين المرسومين في سطح واحد مستوٍ ، ان تحقق شرط معين : ليكن لدينا AB ، CD هما الخطين المستقيمين المرسومين ، وليكن FH قاطعا لهما بحيث إن مجموع الزاويتين BFH ، FHC أقل من قائمتين.

المسلمة الخامسة تقرر أن الخطين لابد أن يلتقيا¹ ان أخرجنا باستمرار في جهة B ، C

لقد شكلت المسلمة الخامسة محور اهتمام الرياضيين خاصة بعد أن تناولها بطليموس الفلكي في النصف الأول من القرن الثاني ، ثم جاء بعد بروقلس Proclus في النصف الثاني من القرن الخامس وتناولها بشئ من التفصيل والاعتراض على محاولة بطليموس. وبعد أن نقلت علوم العرب إلى أوروبا تناول اليهودي ليفي بن جرسون المسلمة بالدراسة في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ثم جاءت محاولة جون واليس (1616 – 1703) ومحاولة ساكيرى (1667 – 1732) ويوحنا هينرش لابرت (1728 – 1777) والفرنسي ماري لجندر (1752 – 1833) وهناك أسماء أخرى يمكن اضافتها إلى هذه القائمة.

ومن خلال المحاولات السابقة يمكن الإشارة إلى التعديلات التالية :

¹ راجع في ذلك : عبد الحميد صبره ، برهان نصير الدين الطوسي ، ص 134

التعليقات :

- 1-بروقلس (410 - 485) : اذا قطع مستقيم أحد مستقيمين متوازيين فانه يقطع الآخر.
 - 2- جون واليس (1616 - 1703) : اذا أعطينا شكلا ، فانه يوجد شكل يشابهه من أية سعه.
 - 3-جون بلا يغير : من أية نقطة معلومة لايمكن أن يرسم الا مستقيم واحد يوازي مستقيما معلوما.
 - 4- ليجنر (1752 - 1833) : يوجد مثلث مجموع زواياه الثلاث يساوى قائمتين.
 - 5- ليجنر : اذا اعطينا ثلاث نقط ليست على استقامة واحدة ، فتوجد دائرة تمر بها.
 - 6- جاوس : اذا أمكننى أن أبرهن على أنه يمكن أن يوجد مثلث مستقيم الاضلاع ، مساحته أكبر من أية مساحة فإننى أكون فى وضع فيه أبرهن بطريقة حاسمة كل الهندسة.
- وهكذا توجد لدينا محاولات كثيرة . وقد أدت كل هذه المحاولات إلى ظهور الهندسة اللاقليدية ، خاصة لوبتشفسكى (1793 - 1850) الذى افترض أن النقطة الواحدة يمكن أن يمر بها أكثر من خط مستقيم واحد يوازي كل منها خطا مستقيما معلوما ، أو أن مجموع زوايا المثلث يساوى أقل من قائمتين . ومن جانب آخر اكتشف بولياى (1802 -

1860) هندسة لا اقليدية أخرى . ثم جاء الألماني برنارد ريمان (1826 - 1866) الذى وضع خطوط هندسة أقامها على فروض جديدة من أساسها ولم يكن على علم بكل ما كتبه لوباتشفسكى وبولياى . وفى إطار هندسة ريمان ليس للخطوط المتوازية أى وجود ، وفيها أيضا يكون مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين . ويذكر جورج سارتون أن فيليكس كلاين (1847 - 1925) بين بوضوح أن هندسة اقليدس تختص بسطح انحناءه صفرا ، ومن ثم فإنها تأتى فى مركز متوسط بين هندسة ريمان التى تنطبق على السطوح ذات الانحناء الايجابى (الكرة) وبين هندسة لوباتشفسكى التى تنطبق على السطوح ذات الانحناء السلبى .

والواقع أن دراسة المسلمة الخامسة فى إطار الفكر العربى جاءت ، انطلاقا من فكرة الحوار الاستمولوجى للرياضيين والفلاسفة مع النص الإقليدى . وكانت المحاولة التى قام بها المفكر العربى المعاصر الدكتور محمد ثابت الفندى فى أعماله الرياضية ومقالاته وبحوثه التى نشرها فى فرنسا على امتداد سنوات طويلة خير دليل على ذلك ، وقد توجهها بكتابة المهم " فلسفة الرياضة " الذى تناول فيه كل هذا الفكر الرياضى بالدرس والتحليل والتعديل .

إن هذه التطورات المهمة تدلنا بصورة قاطعة على تواصل الاتصال العلمى بين الشرق والغرب حضاريا وعلميا . ويهمنى من خلال هذا

الدرس أن نشير إلى التفاعل بين شعوب حوض البحر المتوسط بصورة متواصلة من القديم إلى الحديث، والذي من خلاله لعبت مدرسة الإسكندرية دورا بارزا في القديم والحديث ، مما جعل العلماء عبر العصور يشكلون منظومة حوار معرفي متواصل حول قضايا ومشكلات العلم .

لقد حظيت التقاليد العلمية العقلانية لمدرسة الإسكندرية عبر العصور باهتمام الفلاسفة والرياضيين والمؤرخين أيضا ولدينا في الكتابات العربية دلائل كثيرة تشير إلى هذا الوعي . كما أن علوم الإسكندرية القديمة شكلت ظاهرة علمية حضارية جديرة بالدراسة في إطار العلم العربي والأوروبي ثقافيا وسيولوجيا وسيكولوجيا.

وربما كان هذا الدرس مع غيره من الأفكار الأخرى تشكل قوام المعرفة في إطار العولمة معرفيا ، ومن ثم تمثل حافزا قويا لاجراء دراسات معاصرة مكثفة حول علوم الإسكندرية كما اهتم بها القدماء، وتربية أجيال العلماء والمفكرين الذين يعملون على إثراء هذا الجانب معرفيا. وفي هذا الإطار علينا أن نتساءل عن أهمية النتائج الابستمولوجية التي توصلنا اليها من علوم الإسكندرية القديمة وتقديرها، والمناهج التي ابتكرها العلماء ، وقيمتها وأثرها في تطور المعرفة العلمية والمناهج المعاصرة ، وما شكلته من أبعاد جديدة للمفكرين الذين درسوا علوم الإسكندرية القديمة.

5- اجاثرخيدس الكنيدى

من أهم علماء الجغرافيا الذين برزوا فى الإسكندرية فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ، وهو أحد أهم الفلاسفة المشائين وقتئذ ، ويذكر مؤرخ العلم جورج سارتون أنه " كان مربيا أو معلما لأحد ملوك البطالمة (بطلميوس الحادى عشر سوتير الثانى)¹. ولا بد أنه كان من العلماء الذين كانت لهم قدم راسخة فى مكتبة الإسكندرية، فقد دون عدة مؤلفات جغرافية حصرها سارتون فى عشرة كتب تتناول جغرافية آسيا وتاريخها ، وقرابة 49 كتابا فى جغرافية أوروبا وتاريخها، هذا فضلا عن أعماله الأخرى المهمة وكتاباتة عن البحر الأحمر والجغرافيا البشرية لاثيوبيا وبلاد العرب.

6- ارتيميدوروس الافيسوسى

وقد نبغ فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد ، وهو على ما يقرر سارتون من أهم علماء الجغرافيا فى الإسكندرية(104 - 100 ق.م) التى استقر بها ودون مؤلفاته الجغرافية فيها . ومن الواضح أنه اعتمد على كتابات اجاثرخيدس الكنيدى ، ومن هذا المنطلق كتب أحد عشر مؤلفا جغرافيا، وأضاف إلى المعلومات الجغرافية عن البحر الأحمر وخليج عدن . وقد زودته المؤلفات والكتابات التى وضعت فى

¹ سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 9

الإسكندرية بمعلومات مهمة في مجال الجغرافيا عن الهند بصفة خاصة¹.

لكن سارتون يذكر في الوقت نفسه أن ارتيميدوروس رفض ما أبداه اراتوسثينس وهيبارخوس في الاعتماد على استخدام خطوط الطول والعرض، وعلى العكس من ذلك أبدى اهتمامه الكبير بالمسافات الجغرافية عند حسابه طول وعرض العالم المأهول وقتئذ . وهذا يعني أنه اعتمد في عمل خرائطه على الرحلات والمقاييس الفلكية².

¹ يذكر سارتون سيطرة البطالمة على البحر الأحمر بقوله "وبسط البطالمة المتأخرون سلطانهم على مضيق باب المندب ، وفي عام 78 ق.م _ إن لم يكن قبل ذلك _ كان القائد العام لمصر العليا هو أيضا قبطان البحر الأحمر والمحيط الهندي " سارتون ، تاريخ العلم ، ج 6 ، ص 11 ، كما يذكر أن تيموستيس كان أمير البحر في أسطول بطلميوس فيلادلفيوس (247-285) وأن ايراتوسثينس واسترابون استفادا من مؤلفاته في تقويم البلدان . راجع سارتون ، تاريخ العلم ، ص 147

² يذكر سارتون أن أهمية هيبارخوس تتمثل في إصراره على استخدام أساليب رياضية دقيقة في تحديد الأماكن . ولكنه في الوقت نفسه كان يكن كراهية عميقة للجغرافى اراتوسثينس ويشك في معلوماته . ولذا ألف كتابا في مهاجمة نظرياته . لكنه مع ذلك سجل موافقته على جميع ما وصل إليه اراتوسثينس من نتائج فيما يتعلق بحجم الأرض . ومن أهم أعماله أنه حاول أن يقيس خطوط العرض بتحديد النسبة بين أقصر أيام السنة وأطولها ، وهذه الطريقة تختلف عن طريقة البابليين التي تقيس الزيادة في أطوال النهار كلما اتجه الإنسان جنوبا بطريقة التواليية العددية . كما أنه أول من قسم الجزء المعمور من العالم إلى مناطق حسب مواقعها من خطوط العراض أو حسب الأحوال الجوية عن طريق تقدير خطوط العرض والطول بالنسبة لخطوط دائرية كبيرة مقسمة إلى 360 درجة ، واستخدم هذه النسب بنظام لتحديد موقع كل منطقة من هذه المناطق . أضف إلى هذا أنه اقترح لتحديد خطوط الطول معاينة الكسوف من أماكن متفرقة ، على قاعدة أن اختلاف التوقيت المحلى يدلنا على اختلاف خطوط الطول .

المرجع السابق ، ص 11

5- بطلميوس

يعتبر بطلميوس من أهم العلماء الذين اكتسبوا شهرة واسعة على مر العصور، ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى أعماله المهمة وهي:

أ- كتاب المجسطى : وهو كتاب فى الفلك أثر بصورة واسعة فى المفكرين والعلماء العرب ومن أهمهم ابن الهيثم الذى تناولنا اسهامه وموقفه من بطلميوس وشكوكه عليه فى كتاب مستقل ، ثم انتقل هذا التأثير بعد ذلك إلى أوروبا ، وانتج نظريات جديدة . أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقل هذا الكتاب إلى العربية فقام الحجاج بن مطر بأداء المهمة، ثم نقل مرة أخرى ، وخضع للتصحيح والشرح مرات عديدة.

ب - كتاب الجغرافيا : وقد تنبه العرب إلى أهميته وكانت له تأثيرات كبيرة على الفكر الجغرافى العربى نظريا وعمليا ، وقد نقل الكندى هذا الكتاب إلى اللغة العربية نقلا جيدا.

ج - كتاب الأربع مقالات فى صناعة أحكام النجوم : وهذا الكتاب نقله إلى العربية أبو يحيى البطريق على أيام الخليفة العباسى أبوجعفر المنصور .

د - كتاب ظهور الكواكب الثابتة : ويسمى عند العرب كتاب الأنواء. يهمننا بالدرجة الأولى أن نشير إلى أن هذه الكتابات مارست تأثيرا علميا قويا على الفكر العربى الإسلامى إبان مرحلة التكوين والازدهار، ثم انتقل كل هذا التراث العلمى إلى أوروبا مرة أخرى فى حلقة جديدة

ودورة جديدة من دورات العلم محدثا تطورات علمية هائلة إبان عصر النهضة.

6- ثاون

وهو من علماء الرياضيات الذين برزوا فى القرن الرابع فى آخر مسيرة مدرسة الإسكندرية العلمية الرياضية ، وقد حقق كتاب أصول اقليدس فى الهندسة وقدم شرحا مفصلا لكتاب المجسطى الذى عمله بطلميوس .

7- هوباتيا

وهى عالمة الرياضيات ابنة ثاون ، وقد راجعت كتابات أبيها وشرحت أعمال أبولونيوس وديوفنطس ، ولقيت حتفها على يد المسيحيين المتطرفين عام 415 م . ويمكن للقارىء أن يرجع إلى الكتاب الممتاز الذى كتبه المفكر والفيلسوف العربى الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ، عن حياة هيباتيا وأعمالها العلمية ، والذى يعد إضافة علمية حقيقية لفكر علماء مدرسة الإسكندرية القديمة .

لكن ماذا عن الحركة الأدبية فى الإسكندرية وقت تأسيس المكتبة؟ هل ازدهرت الحركة الأدبية بنفس الصورة التى ازدهرت بها العلوم الرياضية والطبيعية؟

يذكر لنا الأديب العربى الإسكندرى الدكتور حسن عون فى تحليله للحركة الأدبية فى الإسكندرية أن من بين أهم العوامل التى ساعدت

على ازدهار الأدب فى الإسكندرية وقت التأسيس، صلاحية البيئة من الناحية العلمية لما امتازت به من حرية واستقلال واستقرار ؛ بالإضافة إلى الأثر المهم الذى تركته جامعة هليوبوليس وجامعة ممفيس على جامعة الإسكندرية ذاتها . إذ الأولى طبعت الإسكندرية بعلومها التجريبية مثل الحساب والهندسة والطب والفلك ؛ والثانية تركت بصماتها واضحة على العلوم النظرية كالفلسفة والدين¹. ومن خلال العلم والأدب أراد البطالمة أن تسود الإسكندرية مدن العالم .

وأهم ما يلاحظ على الحركة الأدبية والأدب عند الإسكندرانيين أن موضوع الحب أصبح الموضوع الرئيسى للأدب عند أدباء الإسكندرية وهذا ما جعلهم يتناولوه بالوصف والتحليل ، وكاد هذا التوجه يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بفتاح خيال الأدباء² .

والذى لا شك فيه أن الإسكندرانيين أدركوا القيمة التى يمكن أن يكتسبها الأدب ، والشعر بصفة خاصة ، حين يستعيز عن موضوعات البطولة ، التى لا يحس بها ولا يدركها إلا طبقة من الناس محدودة ممتازة ، بموضوعات الحب التى يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب مما يعد كسبا للأدب .

¹ د. حسن عون ، المكانة الأدبية ، ص 85

² المرجع السابق ، ص 99

إلا أن الأدب والشعر الإسكندري أضاف ميزة أخرى مهمة لثقافة هذا العصر فقد نجح الإسكندرانيون في محاولتهم ادخال العلم فى الشعر ، وكان ذلك بمثابة منبع خصب ، ومدد جديد . ولعل الإسكندرانيون قد أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضوعاته القديمة ، ومل كل مصطلحاته الأولى ، وأصبح يبدو للناس كما يبدو الرجل الهرم .

ويستنتج الدكتور حسن عون بعض العلاقات المهمة التى ميزت الحركة الأدبية وهى :

الأول: أن أدباء الإسكندرية هم الذين أوجدوا المبدأ المشهور (الفن للفن) فلم يكونوا ليستكثروا ما يبذلونه من وقت وجهد فى سبيل صقل الشعر ، أو فى البحث عن الأوصاف الجميلة ، أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة .

الثانى: أن الحركة الأدبية فى الإسكندرية أوجدت عند أدباء الإسكندرية مذهباً خاصاً فى الأدب أثر عنهم وعرف باسم المذهب الإسكندري، ويتمثل فى العناية الشديدة والحرص التام على جمال اللفظ .

الثالث: أنه قد حدث فى الإسكندرية ما يشبه الثورة على القديم والنزوع إلى الجديد المشبع بروح الصراحة والحرية والاستقلال . كانت جامعة الإسكندرية القديمة هى مركز هذه الثورة الأول ، كما كان أدباؤها وعلمائها هم قادتها وزعمائها . (أكانت نزعة حدائية بمفهومنا

المعاصر ؟ أم ثورة علمية فى مجال الأدب بالمعنى الذى يذهب إليه مؤرخ العلم المعاصر توماس كون ؟ !).

الرابع: أن غاية الأدب عند الإسكندرانيين اختلفت عن تلك الغاية عند اليونان، إذ بينما نجد أن الغاية الأولى من الأدب عند اليونان تمثلت بصورة قوية فى خدمة السياسة والدين والمجتمع ، باعتبارها المعيار أو المحك الأول لمظهر رقى الأدب وعظمة الأدياء ، نجد على العكس من ذلك أن الإسكندرانيين فى إطار ثقافتهم رفضوا هذه القواعد وحطموها، واستكثروا على المخيلة الإنسانية والاحساس الفنى أن يقف فى هذه الدائرة الضيقة جدا والمحدودة، فسموا بالأدب إلى الأجواء العليا ، وجعلوا الأدب يشرف على كل فروع المعارف الإنسانية ، فيعجب بالجمال فى كل منها ، ويساهم بالانتاج فيها .

القسم الثانى

مكتبة الإسكندرية

الفصل السادس: الدراسات العربية الكلاسيكية وتتبع فتح الإسكندرية

الفصل السابع: الدراسات العربية فى القرنين السادس والسابع الهجريين

الفصل الثامن: يحيى النحوى

الفصل السادس

الدراسات العربية الكلاسيكية

وتتبع فتح الإسكندرية

يبدو أن الدراسات العربية القديمة لم تحظى بكثير من الدراسات التي تكشف عن علاقتها بمكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها ، وفي الوقت نفسه لم تنل القدر الواجب من الدراسات والتحليلات التي يمكن أن نستخلص منها وقائع ما حدث إبان فترة الفتح العربى الغسلامى لمصر والإسكندرية .

وربما كان السبب فى ندرة التحليلات ، أو قلةا ، مرده إلى أن البحث فى هذا الجانب موزع بين تخصصات عديدة بعضها ينتمى إلى حقل دراسة التاريخ ، وبعضها الآخر ينتمى إلى حقل الدراسات الحضارية ، والجزء المهم من هذه الدراسات ينتمى إلى دراسات تاريخ العلوم بصفة عامة ، وهو حقل يتطلب من الباحث استعدادات معرفية معينة لا تتوافر فى أقرانه فى المجالات الأخرى . إذ الباحث فى حقل تاريخ العلوم يحتاج إلى معرفة دقيقة بالتاريخ ، وفهم للتصور العام لظهور الحضارات وأفولها ، ومعرفة بالدراسات الإبستمولوجية والمعرفية بوجه عام .

من هذا المنطلق وجدت أنه من الضرورى أن يتضمن السياق العام لمثل هذه الدراسة تركيزا على الدراسات العربية على اعتبار أنها تشكل منعطفًا مهما فى سبيل فهم وقائع ما حدث فى الماضى ، وإعادة تركيب الوقائع الصحيحة مرة أخرى .

أن فكرة وضع عنوان " الدراسات العربية وفتح الإسكندرية" مسألة تثير كثيراً من التحفظات، فقد يتبادر إلى الذهن السؤال : أى دراسات ؟ هل هى الدراسات العربية باطلاقها ؟ أم أن الدراسات التى ترتبط بفترات زمنية أيضا ؟ للنظر للمسألة ككل من منظور معرفى ، يربط الفكر بالزمان ومعطياته، وهو ما نريد أن نتوجه إليه.

ومن هذا المنطلق فإن تناولنا للدراسات العربية سوف يندرج فى ثلاثة تصنيفات زمنية هى :

الأول : الدراسات العربية القديمة وماتركته لنا من تراث فكرى ، وأثر هذا التراث من الناحية العقلية على اقامة أو تأسيس التركيب التاريخى.

الثانى : الدراسات العربية الكلاسيكية، وأقصد بها الدراسات التى ذاعت وانتشرت بين الباحثين بدءاً من القرن السادس الهجرى، وأثر هذه الدراسات على البنية العقلية لفعل التحليل والتركيب الفلسفى لبناء أو انتاج قصة قريبة من الحقيقة عن الظاهرة الحضارية لمكتبة الإسكندرية، إن فى مرحلة التأسيس أو فى مرحلة الاختفاء .وهذا (التحليل - التركيب) يؤسس بالضرورة موقفا عقليا من اللغز المأسوى لاختفاء مكتبة الإسكندرية القديمة.

الثالث : الدراسات العربية المعاصرة، وهى تلك الدراسات التى شهدت توجهها عقليا ونقديا من جانب المفكرين العرب المعاصرين، لتناول جوانب القصة ككل باعتبارها قصة ظاهرة تاريخية حضارية وثقافية

مهمة، لاكتشاف مدى صحة ماورد بها من معلومات وبيان سندها التاريخي. وقد تباينت الحجج التي قدمتها الدراسات سيكولوجيا ومنطقيا ومعرفيا.

وعلى هذا الأساس فإنه من الواضح هنا أننا نتبع المنظور التاريخي للمادة العلمية التي بين أيدينا ، وهذه مسألة لا بد من إثباتها منذ البداية، فالسياق التاريخي لا يمكن تجاوزه كما أنه في كثير من الأحيان ينطق بدلالات معينة يحتاجها التحليل العقلي للربط بين كثير من الوقائع التي تحفل بها القصة التي رويت عن ظاهرة مكتبة الإسكندرية. ومن المتصور أيضا أن المنظور التاريخي سيقدم لنا معطيات جديدة، قد تكون من خارج القصة، لتدعيم أو رفض ، الرأي أو الرأي الآخر، عن تحليل هذه القصة . وهذه مسألة نحتاجها في تأسيس البناء المعرفي. نتقدم إذن خطوة إلى الأمام لنقف على تصور الدراسات العربية القديمة.

أولا: الدراسات العربية القديمة

فتحت مصر في القرن الأول الهجري، ونحن إذا أخذنا على وجه التحديد عام 20 هـ (ونعلم أن هناك اختلافات بين المؤرخين والكتاب في هذا الصدد) وهو عام فتح عمرو بن العاص لمصر ودخوله الإسكندرية الذي يقابل عام 641م، لكان علينا أن ندرك معرفيا أنه حتى ذلك العصر لم يكن التدوين التاريخي قد بدأ بعد، وإنما بدأ في

وقت متأخر نسبياً، خاصة وأن العرب كانوا يعتمدون على ذاكرتهم في تدوين الأحداث. لكن لما اتسعت الدولة وترامت أطرافها، وتعددت وتتابعَت الأحداث، نهضت الحاجة الماسة للتدوين في مجال الحديث والتاريخ والعلم بصفة عامة، حتى لا يضيع الحدث التاريخي ذاته وتفقد معالمه.

وقبل نهاية القرن الثاني الهجري كانت مسألة التدوين التاريخي قد استقرت تماماً، وظهرت لدينا كتابات لها أهميتها في هذا المجال، من أهمها كتابات البلاذري، وبصفة خاصة كتابه "فتوح البلدان"، وكتابات ابن عبدالحكم، خاصة كتابه "فتوح مصر والمغرب"، ثم لدينا كتاب الطبري، وغيرها من الكتابات الأخرى التي كتبت عن الفتوح الإسلامية.

أما أهمية الرجوع إلى هذه المصادر فتتمثل في أنها أقدم المصادر التاريخية التي بين أيدينا في تصوير وقائع فتح مصر على وجه الخصوص، وما صاحب هذا الفتح من تطورات، والعلاقات التي نشأت بين الفاتحين وأهل مصر، وغير ذلك من الأحداث التي سوف تساعدنا في التحليل العقلي للقصة التي رويت عن فتح الإسكندرية في كتابات كتاب القرن السادس الهجري.

وربما كان من المناسب أن نشير إلى أهمية قصة البلاذري على نحو خاص، فهو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن داود البغدادي البلاذري،

إمام ثقة ومحدث ثبت ، وأديب . ولد في نهاية القرن الثاني للهجرة،
ونشأ في بغداد ، وارتحل إلى بلدان كثيرة منها حلب ودمشق وحمص
وانطاكية وغيرها، تحلى بالزهد والشجاعة الأدبية، وكان من خواص
المتوكل والمعتز بالله. وقد تتلمذ على هشام بن عمار واسحاق بن
اسرائيل وغيرهما. وتتلمذ عليه محمد بن اسحق النديم صاحب كتاب
"الفهرست".

وسوف نلاحظ أهميته بصورة أدق في سياق تحليلاتنا . نبدأ أولاً
بالنص الذي ذكره البلاذري عن فتح الإسكندرية ، نظراً لأهميته وما
يتضمنه من معلومات تاريخية تعبر عن الوقائع والأحداث التاريخية
والتي هي بطبيعة الحال ذات قيمة عالية بالنسبة للتحليل.

فتوح البلدان

البلاذرى وفتح الإسكندرية

يقول البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان)

"قالوا : لما افتتح عمرو مصر أقام بها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك فسار إليها فى سنة إحدى وعشرين، واستخلف على مصر خارجة حذافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا حوله، وقالوا: نغزوه بالفسطاط¹ قبل أن يبلغنا وبروم الإسكندرية. فلقبهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكان فيهم من أهل سخا والخيس وسلطيس وغيرهم قوم فدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله، إلا أن القبط فى ذلك يحبون المهادنة، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة

¹ يذكر بتلر أن " لفظ فسطاط يرجع بنا إلى اللفظ البيزنطى وهو اللفظ الرومانى (Fossatum) وكان فى وقت الفتح لفظا شائعا بين العسكر . وكان الرومانيون فى حصن بابليون بلا مرأى إذا نكروا موضع عسكر العرب سموه (الفسطاطون) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ " بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 361 . وكذلك يذكر فى موقع قريب من هذا " وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين ... " راجع : بتلر ، المرجع السابق ، ص 362

مقبلات بوجوهن إلى داخله، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو إنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان، فقال المقوقس لأصحابه قد صدق هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية فنحن أولى بالإذعان، فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة. فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم أن عمرو فتحها بالسيف رغم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل اليونة، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية ابن خريج الكندي ثم الكوفى وبعث إليه معه بالخمسة.

ويقال إن المقوقس صالح عمروا على ثلاثة عشر ألف دينار على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام، وعلى أن يفرض على كل حاكم من القبط دينارين فكتب لهم بذلك كتابا، ثم أن عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبدالله بن حذافه بن قيس بن عدى بن سعد سهم بن عمرو بن هيصيص بن كعب بن لؤى فى رابطة من المسلمين وانصرف إلى القسطنطينية، وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل، وهو كان الملك يومئذ يخبرونه بقله من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية، فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل فى ثلثمائة مركب مسخونة بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجى بذلك فى

سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمرووا الخبر فصار إليهم في خمسة عشر ألفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيشون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر فلقاهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون، ثم صدقوهم الحملة، فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالا شديدا. ثم إن أولئك الكفرة ولوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصنوا بها، ونصبوا الهراوات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب المجانيق فأخذت جدرها، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب بعض رومها إلى الروم، وقتل عدو الله منويل، وهدم عمرا والمسلمون جدار الإسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك. وقال بعض الرواة أن هذه الغزوة كانت في سنة ثلاث وعشرين، وروى بعضهم أنهم نقضوا في سنة ثلاث وعشرين وسنة خمس وعشرين والله أعلم.

حدثني عمرو عن ابن وهب عن أبي لهيعة وجعل عليها عبدالله بن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمروا حتى يفرغ من قتال الروم لأن له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدو ففعل حتى هزمهم فأراد عثمان أن يجعل عمروا على الحرب وعبد الله على الخراج فأبى ذلك عمرو وقال: أنا كمالك قرني البقرة والأمير يحلبها فولى عثمان بن سعد مصر. قال عبد الله ابن وهب : وأخبرني الليث بن سعد عن موسى بن علي عن أبيه أن

عمرا فتح الإسكندرية الفتح الآخر عنوة في خلافة عثمان بعد وفاة عمر
رضي الله عنه¹ .

هذا ما ذكره البلاذري في كتابه عن فتح الإسكندرية. ويعد البلاذري
من أوائل المؤرخين الذين كتبوا عن فتح مصر، فقد ولد في أواخر
القرن الثاني من الهجرة. وكما رأينا فقد ذكر الوقائع مفصلة في الفتح
الأول والثاني. ففي الفتح الأول غنم عمرو بن العاص ما في المدينة
واستبقى أهلها، ولم يقتل ولم يسب. وفي ذكره لوقائع الفتح الثاني قال
أن عمرو بن العاص قتل المحاربين وسبى الذرية وقتل منويل، وهدم
جدار الإسكندرية، لأنه كان قد نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك، ولو أن
عمرو قد حرق أية مكتبة وجدها في الإسكندرية لكان البلاذري ذكر
ذلك بلا حرج ، ولكنه حتى في ذكره لما أخذه عمرو من المدينة لم
يذكر ثمة مكتبة على الإطلاق. وسوف نعرف في التحليل القادم مسألة
أسوار مدينة الإسكندرية، خاصة وأن الكتاب الذين تناولوا قصة الفتح
العربي للإسكندرية ركزوا على أسوار المدينة ، وهذا يعني أهمية
الأسوار التي أحيطت بها الإسكندرية .

¹ أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار
الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1403/1983 هـ، ص ص : 221 - 225

فتوح مصر والمغرب

ابن عبد الحكم وفتح الإسكندرية

يقدم لنا ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر والمغرب) أربعة

نصوص مهمة فيما يتعلق بفتح الإسكندرية :

أما النص الأول فيركز فيه ابن عبد الحكم على التعاون بين المسلمين والأقباط ، وكيف أن أقباط مصر كانوا عوناً للمسلمين فى

أثناء الفتح وفى قتالهم للروم . يقول ابن عبد الحكم :

حدثنا يحيى بن خالد العدوى عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص لما

فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وألح عليهم ، وخافوه ،

وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستتظروا

رأى الملك . قال : فحدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث بن سعد عن

يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس الرومى الذى كان ملكاً على مصر

صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد المسير ،

ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر قد سماه ، فبلغ ذلك هرقل

ملك الروم ، فتسخطه أشد السخط ، وأنكره أشد الإنكار ، وبعث

الجيوش فأغلقوا الإسكندرية وأذنوا عمرو بن العاص بالحرب ، فخرج

إليه المقوقس فقال : أسألك ثلاثة؟ قال : ما هن ؟ قال لا تبذل للروم

مابذلت لى ، فإنى قد نصحت لهم ، فاستغشوا نصحى . ولا تنقض

بالقبط فإن النقص لم يأت من قبلهم ، وأن تأمر بى إذا مت فادفنى فى
أبى يخس ، فقال عمرو : هذه أهونهن علينا . ثم رجع إلى حديث
عثمان ، قال : فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم
الخروج ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم
الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا
على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمعت بذلك الروم ، فاستعدت ،
واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كثيرة ، من أرض الروم ، فيها
جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح فخرج إليهم عمرو بن العاص من
الفسطاط متوجها إلى الإسكندرية ، فلم يلق منهم أحدا حتى ترنوط ،
فلقى بها طائفة من الروم ، فقاتلوه قتالا خفيفا ، فهزمهم الله . ومضى
عمرو بمن معه حتى لقى جميع الروم شريك فاقتتلوا به ثلاثة أيام ، ثم
فتح الله للمسلمين وولى الروم أكتافهم ¹.

أما النص الثانى فيركز فيه ابن عبد الحكم على أن فتح الإسكندرية
جاء على يد رجل من الأنصار وهو عبادة بن الصامت، وأن حصار
الإسكندرية دام أربعة عشر شهرا ، وأنها فتحت يوم الجمعة أول محرم
عام 20 هجرية .

¹ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص 106-107

يقول ابن عبد الحكم :

حدثني أبي عبد الله بن عبد الحكم قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ، ثم جلس فقال : إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله ، يريد الأنصار ، فدعا بعبادة بن الصامت فعقد له ، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك . ثم رجع إلى حديث يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال : حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك ، وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين¹.

أما النص الثالث فيركز فيه ابن عبد الحكم على تعداد سكان مدينة الإسكندرية وقت الفتح العربي حيث يقدرون بعدد 600 ألف من الرجال الذين عليهم الخراج سوى النساء والصبيان . يقول ابن عبد الحكم : قال : وحدثنا عبد الملك بن مسلمة عن مالك ابن أنس ، أن مصر فتحت سنة عشرين ، قال : فلم هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية كما حدثني عبد الله بن صالح عن الليث ، وهرب الروم في البر والبحر ، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ، ففتحها وأقام بها ، وكتب إلى

¹ المرجع السابق ، ص 117

عمر بن الخطاب : إن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد . فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ، ويأمره ألا يجاوزها . قال ابن أبي لهيعة ، وهو فتح الإسكندرية الثانى .

وكان عدة من فى الإسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة ، وركبوا السفن ، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار ، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل ، وبقي من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج ، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان ¹.

أما النص الرابع فيذكر ابن عبد الحكم طرفا من رسالة لعمر بن العاص إلى عمر بن الخطاب وهى رسالة تصور حجم المبالغات فى الكتابات العربية القديمة أيضا :

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك ، كما حدثنا ابراهيم بن سعيد العلوى إلى عمر بن الخطاب : أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف مافىها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ². يبدو أنه من الملائم الآن أن نتوقف عند تحليل ما ورد عند البلاذرى وابن عبد الحكم من آراء تتعلق بالفتح العربى للإسكندرية.

¹ المرجع السابق ، ص ص 118 ، 121

² المرجع السابق ، ص 120

التحليل اللاحق

إن النصوص التي أشرنا إليها البلاذرى وابن عبد الحكم هي أقدم النصوص التي وصلتنا عن فتح الإسكندرية وما جرى فيه من أحداث مصاحبة ، وهي جميعا تشترك معا في مجموعة من النقاط المهمة التي يحسن بنا أن نقدم تحليلا لها أولا ، على أن نستبقى بعض النقاط الأخرى للمقابلة بالتحليلات التي سوف نطلعنا عليها بعض النصوص والكتابات العربية في فترات متأخرة .

تركز النصوص السابقة على مجموعة من العناصر التي نجملها فيما يلي :

- 1- العلاقة بين عمرو بن العاص وقبط مصر .
- 2- الشروط التي صالح عليها عمرو بن العاص .
- 3- انتفاضة أهل الإسكندرية ودخول عمرو بن العاص وهدم سور المدينة .

نبرز هذه العناصر لأهميتها في التحليل اللاحق ، ولأنها تشكل جزءاً مهماً من البنية المعرفية للسياق الذي دفعنا للتمييز بين القصة والظاهرة ، وهي مسألة تشغلنا كثيراً وتبين إلى أي حد يمكن الكشف عن أبعاد الظاهرة من خلال القصة . نتناول فيما يلي النقطتين الأولى والثانية ، ونرجى الثالثة لتتكامل أبعادها مع تحليل رواية أخرى .

عمرو بن العاص والقبط فى مصر

ركزت بعض الكتابات على دراسة وتحليل موقف عمرو بن العاص من القبط فى مصر ، وحاولت تلك الكتابات أن تلقى الضوء بصورة تحليلية على تلك العلاقة وجوانبها المختلفة . نقتبس فى الفقرات التالية موقفا يبين إلى أى مدى احترم عمرو بن العاص القبط فى مصر ، وكيف استعان بهم أيضا . جاء فى أحد الكتب الكنسية :

وكان جيش العرب فى فاتحة هذا القرن (السابع) حاملا لواء الظفر فى كل مكان ، وظل يخرق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافي والبلاد حتى وصل إلى حدود مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ، فدخل مدينة العريش وذلك فى سنة 639 م ومنها وصل إلى بلبيس وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر . ولما استولى عليها وجد بها ارمانوسه بنت المقوقس ، فلم يمسهأ بأذى ، ولم يتعرض لها بشر ، بل أرسلها إلى أبيها فى مدينة منف مكرمة الجانب معززة خاطر ، فعد المقوقس هذه الفعلة جميلا ومكرمة من عمرو وحسبها حسنة له.

واحتلت جيوش العرب الوجه البحرى فصاروا يرتكبون فيه الفظائع، فوقف فى وجههم اثنان من الأقباط هما مينا وقزمان ، وترأسا جماعة مدربة ، فكانوا يدفعون عنهم غائلة الاعتداء الأجنبى عربيا كان أم رومانيا . قيل إن عمرا عندما وصل إلى نقيوس فتك بأهلها نريعا ، ولم يبق أحدا ممن كانوا فى الشوارع أو الكنائس ، وصار يتقدم إلى

داخل البلاد حتى وصل إلى بابليون . ودام القتال بين عمرو وبين الروم سبعة أشهر . كان يتظاهر المقوقس في أثناءها بأنه ضد العرب وهو معهم ولما رأى المقوقس اشتداد بأس العرب تفاوض معهم ، فكتب إليه عمرو يقول ليس لك ولقومك سبيل النجاة إلا إذا اخترت واحدا من هذه الشروط :

1- إما الجزية 2- أو الإسلام 3- أو استمرار القتال

سور الإسكندرية

سبق أن أشرنا إلى أهمية تناول أسوار مدينة الإسكندرية بالشرح والفهم، وقد تحدث الكتاب على اختلاف اتجاهاتهم عن أسوار المدينة ، وأنه حين دخل عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية للمرة الثانية بعد نقض شروط الصلح هدم أسوار المدينة ، وعلى ما يقول البلاذري ، وكان قد نذر هذا . فما هي المسألة المتعلقة بالأسوار إذن؟

يذكر بئلر في كتابه " فتح العرب لمصر " أن هذه الأسوار بناها الإسكندر ، وأنها حصون منيعة عجز عليها الفرس عند حصارهم للمدينة ، " وقد قامت هذه الأسوار نفسها منذ ثمان حجج ماثلة بين يدي جيوش (بونوسوس) فارتدت عنها تلك الكتائب المستميتة وهي خاسئة كأنما هي أمواج البحر ترتطم بصخور الساحل . وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى بعد ربع قرن وهي راسية قوية تحاد جيوش العرب حتى استطالت بها مدة الحصار . فمن الواضح على ذلك أن تلك

الأسوار كانت فى الوقت الذى نصفه هنا لا تزال على عهدىا خطأ عظيمىا من الحصون والآطام ذات بأس ومنعه ¹.

ويذكر الدكتور ابراهيم نصحى فى كتابه عن " تاريخ مصر فى عصر البطالمة " أن أسوار مدينة الإسكندرية " كانت أعظم من أسوار أية مدينة إغريقية أخرى ، فيما عدا سراقوسه وأثينا . ذلك أن الأحداث قد أثبتت أنها كانت منيعة على الدوام ². ويبين لنا فى الوقت نفسه أوجه معرفتنا عن هذه الأسوار فى عصر البطالمة ، وهو ما يحصره فيما يلى من النقاط ³:

- 1- أنه كان يحيط بالإسكندرية عندئذ أسوار يبلغ أقصى طولها حوالى 15 ك . م مع ملاحظة أنه وفقا للعادة الشائعة عند الإغريق كانت المقابر تقع خارج الأسوار وتبعاً لذلك كانت الجبانتان الغربية والشرقية ، جبانة القبارى وجبانة الشاطبى، تقعان خارج أسوار الإسكندرية .
- 2- حصنت هذه الأسوار بإقامة أبراج عليها فى مسافات متقاربة.

¹ بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 112

² د. ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976 ، ص 278

³ المرجع السابق ، ص 278

قارن ما ذكره د. ابراهيم نصحى فى الصفحات 272-280 من المرجع السابق ، بما ذكرته د. فاديه أبو بكر فى كتابها " دراسات فى العصر الهلنستى " ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1998 ، ص ص 149-160

3- أن هذه الأسوار كانت تتبع فى الناحية الشمالية مجرى الشاطيء، فيما بين حدودها الغربية (جبانة القبارى) وحدودها الشرقية (جبانة الشاطبى) . وعند رأس لوخياس Lochias كانت تتجه جنوبا حوالى كيلومترين صوب القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى . وفى الناحية الجنوبية كانت الأسوار تتبع الشاطيء الشمالى لبحيرة مريوط.

يفهم من هذا أن الإسكندرية كانت محصنة ومنيعة بسبب أسوارها، ومن ثم فإنه حين أقدم عمرو بن العاص على هدم أسوار المدينة فى المرة الثانية إنما كان ذلك دلالة على أنه أراد للإسكندرية أن تدخل فى دين الله دون حواجز أو موانع تقف أمام جنود الرحمن.

تاريخ الطبرى وفتح الإسكندرية

يقول الطبرى فى النص الأول¹:

"وأما ابن إسحاق فإنه قال : كان فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل وفتح مصر فى سنة عشرين، حدثنا بذلك ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عنه. وأما سيف بن عمر فإنه قال: كان فتحها فى سنة ست عشرة. قال: وكذلك فتح مصر.

وقد مضى الخبر عن فتح قيسارية قبل، وأنا ذاكر خبر مصر وفتحها بعد فى قول، من قال: فتحت سنة عشرين، وفى قول من خالف ذلك".
أما فى النص الثانى² فيذكر الطبرى أحداث سنة عشرين وفيها فتح مصر. يقول :

"قال أبو جعفر : وفى هذه السنة فتحت مصر فى قول ابن إسحاق. حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عن ابن إسحاق، قال: فتحت مصر سنة عشرين. وكذلك قال أبو معشر، حدثنى أحمد بن ثابت عن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبى معشر ، أنه قال : فتحت مصر سنة عشرين، وأميرها عمرو بن العاص. وحدثنى أحمد بن ثابت، عن

¹ تاريخ الطبرى ، ص 102

² المرجع السابق ، ص 104

ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: فتحت الإسكندرية سنة خمس وعشرين.

وقال الواقدي - فيما حدثت عن ابن سعد عنه: فتحت مصر والإسكندرية في سنة عشرين.

وأما سيف فإنه زعم - فيما كتب به إلى السري، عن شعيب، عن سيف - أنها فتحت والإسكندرية في سنة ست عشرة¹.

وبعد هذا النص مباشرة يضع الطبري العنوان التالي (ذكر الخبر عن فتحها وفتح الإسكندرية) أي فتح مصر وفتح الإسكندرية، وهي مسألة وردت في آخر عبارات النص السابق مباشرة، ونتركها للتحليل. ثم يتابع الطبري نصه كاملاً.

أما في النص الثالث¹ فنجد الطبري يقول:

قال أبو جعفر قد ذكرنا اختلاف أهل السير في السنة التي كان فيها فتح مصر والإسكندرية، ونذكر الآن سبب فتحهما، وعلى يدى من كان، على ما في ذلك من اختلاف بينهم أيضاً، فأما ابن إسحاق فإنه قال في ذلك ما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه عنه، أن عمر رضى الله عنه حين فرغ من الشام كلها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جنده، فخرج حتى فتح باب اليون في سنة عشرين.

¹ المرجع السابق، ص 104 وما بعدها.

قال: وقد اختلف في فتح الإسكندرية، فبعض الناس يزعم أنها فتحت في سنة خمس وعشرين، وعلى سنتين من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعليها عمرو بن العاص.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمه، عن محمد بن إسحاق، قال: وحدثني القاسم بن قزمان - رجل من أهل مصر - عن زياد بن جزء الزبيدي، أنه حدثه أنه كان في جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر والإسكندرية، قال: افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر بن الخطاب في سنة إحدى وعشرين - أو سنة اثنين وعشرين - قال: لما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب - قرية من قرى الريف، يقال لها قرية الريش - وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن.

قال: فلما انتهينا إلى بلهيب أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص: إني قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إلى منكم معشر العرب لفارس والروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضي فعلت.

قال: فبعث إليه عمرو بن العاص: إن ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك وتمسك عني حتى أكتب إليه بالذي عرضت على، فإن هو قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرني بغير ذلك مضيت لأمره. قال: فقال: نعم قال: فكتب عمرو بن العاص إلى عمر

بن الخطاب - قال: وكانوا لا يخفون علينا كتاباً كتبوا به - يذكر له
الذى عرض عليه صاحب الإسكندرية. قال: وفى أيدينا بقايا من سبيهم.
ثم وقفنا ببليهب، وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا، فقرأه علينا عمرو
وفيه: أما بعد، فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض
أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه،
ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من
فى يقسم، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن
يعطيك الجزية، على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام
وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له مالهم
وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه، وضع عليه من الجزية ما
يوضع على أهل دينه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة
والمدينة واليمن فإننا لانقدر على ردهم، ولانحب أن نصالحه على أمر
لانفى له به، قال: فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب
به أمير المؤمنين. قال: فقال: قد فعلت. قال: فجمعنا ما فى أيدينا من
السبايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرجل ممن فى أيدينا، ثم
نخبره بين الإسلام وبين النصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى
أشد من تكبيرنا حتى تفتح القرية، قال: ثم نحوزه إلينا ، وإذا اختار
النصرانية نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية،
وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً، حتى كأن رجل خرج منا إليهم. قال:

فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم، وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبدالله بن عبد الرحمن - قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد - قال فوقفناه، فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا، حتى شققوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى. ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها، وإن هذه الكناسة التي ترى يابن أبى القاسم لكناسة بناحية الإسكندرية حولها أحجار كما ترى، ما زادت ولا نقصت، فمن زعم غير ذلك أن الإسكندرية وما حولها من القرى لم يكن لها جزية ولا لأهلها عهد، فقد والله كذب. قال القاسم: وإنما هاج هذا الحديث أن ملوك بنى أمية كانوا يكتبون إلى أمراء مصر أن مصر إنما دخلت عنوة، وإنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا، ونضع ماشئنا.

قال أبو جعفر: وأما سيف، فإنه ذكر فيما كتب به إلى السرى، يذكر أن شعيباً حدثه عنه، عن الربيع أبى سعيد، وعن أبى عثمان وأبى حارثة، قالوا : أقام عمر بإيلياء بعد ما صالح أهلها، ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر وأمره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث فى أثره الزبير بن العوام مدداً له، وبعث أبا عبيده إلى الرمادة، وأمره إن فتح الله عليه أن يرجع إلى عمله.

كتب إلى السرى، عن شعيب ، عن سيف، قال : حدثنا أبو عثمان عن خالد وعبادة، قالا : خرج عمرو بن العاص إلى مصر بعد ما رجع عمر إلى المدينة، حتى انتهى إلى باب اليون، وأتبعه الزبير، فاجتمعوا،

فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف في أهل النيات بعثة المقوقس لمنع بلادهم. فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم : لاتعجلونا لنعذر إليكم، وترون رأيكم بعد. فكفوا أصحابهم ، وأرسل إليهم عمرو: إني بارز فليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وآمن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا، إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتُمونا بذلك نمة إلى نمة. ومما عهد إلينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً ونمة، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل منف والملك فيهم، فأدبل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم وسلبوا ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلاً، أما حتى نرجع إليك. فقال عمرو : إن مثلي لا يخدع، ولكني أوجلكما ثلاثاً لتتظرا ولتتظرا قومكما، وإلا ناجزتك، قالا : زدنا، فزادهم يوماً، فقالا:

زدنا ، فزادهم يوما ، فرجعا إلى المقوقس فهم، فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم، ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام، فلا تصابون فيها بشئ إلا رجونا أن يكون له أمان. فلم يفجأ عمراً والزبير إلا البيات من فرقب، وعمرؤ على عدة، فلقوه فقتل ومن معه، ثم ركبوا :أكساءهم، وقصد عمرو والزبير لعين شمس، وبها جمعهم، وبعث إلى الفرما أبرهة بن الصباح، فنزل عليها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل عليها، فقال كل واحد منهما لأهل مدينته : إن تنزلوا فلكم الأمان، فقالوا: نعم، فراسلوهم ، وتربص بهم أهل عين شمس، وسبى المسلمون من بين ذلك، وقال عوف بن مالك : ما أحسن مدينتكم يا أهل الإسكندرية! فقالوا : إن الإسكندر قال إني أبني مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنية - أو لأبنين مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنية - فبقيت بهجتها.

وقال أبرهة لأهل الفرما : ما أخلق مدينتكم يا أهل الفرما ؟ قالوا : إن الفرما قال : إني أبني مدينة عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة ، فذهبت بهجتها وكان الإسكندر والفرما أخوين.

قال أبو جعفر : قال الكلبي: كان الإسكندر والفرما أخوين، ثم حدث بمثل ذلك، فتسبنا إليهما، فالفرما ينهدم فيها كل يوم شئ، وخلقت مرأتها، وبقيت جدة الإسكندرية.

كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان،
قالا : لما نزل عمرو على القوم بعين شمس، وكان الملك بين القبط
والنوب، ونزل معه الزبير عليها، قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى
قوم فلوا كسرى وقيصر، وغلبوهم على بلادهم ! صالح القوم واعتقد
منهم، ولا تعرض لهم ولا تعرضنا لهم - وذلك فى اليوم الرابع - فأبى،
وناهداهم فقاتلوهم، وارتقى الزبير سورها، فلما أحسوه فتحوا الباب
لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم ، ونزل الزبير عليهم عنوة؛
حتى خرج على عمرو من الباب معهم فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على
الهلكة، فأجروا ما أخذ عنوة مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذمة ،
وكان صلحهم .

أمان عمرو بن العاص لأهل مصر

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر
من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم
وبحرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب.
وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح،
وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم، فإن
أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى
برئيه، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن
دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم، وعليه مثل ما

عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله ودمته ودمه رسوله ودمه الخليفة أمير المؤمنين ودمهم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر.

عمرو في الفسطاط

فدخل في ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح، واجتمعت الخيول فمصر عمرو الفسطاط، ونزله المسلمون، وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلما عمراً في السبايا التي أصيبت بعد المعركة فقال: أولهم عهد وعقد؟ ألم نحالفكما ويغار علينا من يومكم ! وطردهما، فرجعا وهما يقولان: كل شيء أصبتموه إلى أن نرجع إليكم ففي ذمة منكم، فقال لهما: أتغيرون علينا وهم في ذمة ؟ قالوا: نعم ، وقسم عمرو ذلك السبي على الناس، وتوزعوه، ووقع في بلدان العرب. وقدم البشير على عمر بعد بالأخماس، وبعث الوفود فسألهم عمر، فما زالوا يخبرونه حتى مروا بحديث الجاثليق وصاحبه، فقال ألا أراهما يبصران وأنتم تجاهلون ولا تبصرون ! من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء من أهل القرى فله الأمان في الأيام الخمسة حتى تتصرم، وبعث في

الآفاق حتى رد ذلك السبي الذي سبوا ممن لم يقاتل في الأيام الخمسة إلا من قاتل بعد، فترادوهم إلا ماكان من ذلك الضرب، وحضرت القبط باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون: ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ! ما رأينا مثلاً دان لهم ! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم، فأمر بجزر فذبحت، فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا، وأعلموا أصحابهم، وجلس وأذن لأهل مصر، وجئ باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين، فأكلوا أكلاً عربياً، انتشلوا وحسوا وهم في العراء ولا سلاح، فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعاً وجرأة. وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد، وأمرهم أن يجيئوا في ثبات أهل مصر وأحذيتهم، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأذن لأهل مصر، فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القوام بألوان مصر، فأكلوا أكل أهل مصر، ونحوا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا، وقالوا : كدنا. وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غداً، وغدا على العرض، وأذن لهم فعرضهم عليهم. ثم قال :إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شئ حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم، فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها مارأيتم في اليوم الثاني، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم

الثانى، وراجع إلى عيش اليوم الأول. فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم.

وبلغ عمر، فقال لجلسائه: والله إن حربته للينه مالها سطوة ولاسورة كسورات الحروب من غيره، إن عمراً لعض. ثم أمره عليها وقام بها. كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن أبى سعيد الربيع بن النعمان، عن عمرو بن شعيب، قال: لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس، واقتتل خيلاهما ، جعل المسلمون يجولون بعد البعد . فدمرهم عمرو ، فقال رجل من أهل اليمن : إنا لم نخلق من حجارة ولا حديد ! فقال : اسكت ؛ فإنما أنت كلب ، قال : فأنت أمير الكلاب ، قال : فلما جعل ذلك يتواصل نادى عمرو : أين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحضر من شهدها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : تقدموا ، فبكم ينصر الله المسلمين . فتقدموا وفيهم يومئذ أبو بردة وأبو برزة ، وناهدهم الناس يتبعون الصحابة ، ففتح الله على المسلمين، وظفروا أحسن الظفر . وافتتحت مصر فى ربيع الأول سنة ست عشرة ، وقام فيها ملك الإسلام على رجل، وجعل يفيض على الأمم والملوك ، فكان أهل مصر يتدفقون على الأجل ، وأهل مكران على راسل وداهر ، وأهل سجستان على الشاه ونويه ، وأهل خراسان والباب على خاقان، وخاقان ومن دونهما من الأمم ، فكفكفهم عمر إيقاء على أهل الإسلام ، ولو خلى سربهم لبلغوا كل منهل .

لننظر إذن فى شأن تقييم بعض المؤرخين الغربيين للفترة التى قضاها عمرو بن العاص فى مصر . ما الذى تقوله الكتابات الغربية عن هذه الفترة ، وكيف ينظر إليه وإلى سياساته فى مصر؟
رأى المؤرخين فى سياسة عمرو بن العاص

أما جوستاف لوبون فيذكر فى كتابه " حضارة العرب " رأيا له قيمته فى هذا الموضوع إذ يقول " فتح القائد عمرو بن العاص ، الذى هو من عمال الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بلاد مصر فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة (639 م) وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحذق والمهارة نحو سكان مصر ، فهو لم يتعرض إلى ديانتهم ولا إلى نظمهم ولا إلى عاداتهم ، ولم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرها خمسة عشر فرنكا عن كل رأس فى مقابل حمايتهم . وقد رضى المصريون بذلك شاكرين ، ولم يند سوى الروم أى الجنود الموظفين ورجال الدين الذين التجأوا إلى الإسكندرية فحاصره العرب حصارا شديدا دام أربعة عشر شهرا ، وقد قتل من العرب فى أثناء ذلك الحصار ثلاثة وعشرون ألف جندى . وقد كان عمرو بن العاص، على ما أصاب العرب من ضياع فى الأنفس والأموال ، سمحا رحيمًا نحو أهالى الإسكندرية ، فهو لم يؤذ شعورهم ولم يقس عليهم ، وكان همه

مصرفوا إلى كسب قلوبهم وقبول جميع مطالبهم ، وقد أصلح أسوارهم وترعهم وأنفق الأموال الطائلة على شئونهم العامة ¹.

لكن الفرد بتلر² في كتابه " فتح العرب لمصر " يذكر تعليقا مهما على كتاب جوستاف لوبون حيث يقول في تعليقه "وقد دحض جوستاف لوبون في كتابه La Civilisation des Arabes (باريس سنة 1884) قصة إحراق مكتبة الإسكندرية، ولكن كتابه أقرب إلى أن يكون للقارئ العام وليس بحثا علميا قيما " . ونضيف إلى هذا النقد من جانبنا أن ما يذكره لوبون من أن فتح بلاد مصر كان (في السنة الثامنة عشرة من الهجرة) أمر يجانبه الصواب لأن ثقات المؤرخين العرب يتفقون على أن فتح مصر تم في سنة عشرين للهجرة . أما ما يذكره من أن حصار العرب للإسكندرية (دام أربعة عشر شهرا) فإن هذا التقرير يتفق مع ما ذكرته الكتابات العربية القديمة وبصفة خاصة ابن عبد الحكم الذي يذكر أن حصار الإسكندرية دام أربعة عشر شهراً . لقد تنبه الفريد بتلر إذن إلى أن كتاب لوبون دون للقارئ العام ، ولذا فهو بمثابة نوع من الدعاية أو البروباغندا ، (وليس بحثا قيما) .

هناك جانب آخر لا بد وأن نذكره معرفيا في سياق القصص والروايات الغربية التي تروى عن عمرو بن العاص في مصر .

¹ جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص 231

² بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 424

فاللنظر فيما يقوله سيديو فى هذا الجانب ، ثم نتناول تقييم رأيه وما يعرضه علينا من أفكار ربما نظفر منها بشيء . يقول هذا الكاتب " فما كاد عمرو بن العاص يصبح سيدها حتى كتب إلى الخليفة يسأله عن ضرورة انتهابها وتخليبها ، فلامه عمر على تفكيره فى ذلك ولو طرفة عين ، فأمتعت فى الحال ، بنظام إداري حكيم رشيد فجعلت الجزية المفروضة على الأقباط شاملة لجميع السكان ، وفرضت على الأَطِيان والمزارع ، فضلا عن ذلك ، ضريبة نسبية تابعة لقيمة الأراضى . وفوض أمر الجباية إلى الأقباط أنفسهم لحذفهم هذه الأمور الإدارية أكثر من المسلمين بسبب صلاتهم ولسانهم . ولم تتشب الضرائب أن بلغت مبالغ عظيمة فصار الخليفة ينفق معظمها على الأعمال النافعة للبلاد ، فأمر بإعادة انشاء قناة القلزم التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، وأراد عمرو بن العاص حفر قناة السويس فعارضه عمر بن الخطاب لكيلا تكون للروم طريق نافذة إلى المدينَتين المقدستين . وأقيمت منف باسم الفسطاط ، وكان الأهلون يخافون إذا لم تبلغ مياه النيل ارتفاعا معيناً فى زمن الفيضان فيضطرب حبل الأمن فى الغالب . فنقص عمرو بن العاص أذرع مقياس النيل إلى الحد الذى يبلغ النيل به درجة مطمئنة فلا يساور النفوس ذعر باطل بعد ، وأنجزت بفضل تلك

الحكومة الصالحة مشاريع عظيمة ، فأعادت مصر لشبابها فى زمن قصير "1.

نلاحظ على هذه القصة عدة ملاحظات مهمة لابد وأن تكون نصب أعيننا ونحن ننظر فيما يذكره هذا الكاتب الذى اعتقدت بعض الكتابات أنه ينصف التاريخ العربى :

1- ما يذكره من أن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسأله عن (ضرورة انتهابها وتخريبها) وهذه فرية جديدة يراد لها أن تلصق بالمسلمين ، وهم الذين عملوا على الإصلاح الإدارى وتنظيم المؤسسات فى مصر ، بعد أن كانت نهبا للرومان .

2- ما يذكره من إعادة إنشاء قناة القلزم القديمة .

3- رأى عمرو بن العاص ضرورة (حفر قناة السويس) ومعارضة عمر بن الخطاب .

إن هذه النقاط تستحق منا أن نتوقف قليلا عند ما يذكره هذا الكاتب لنفهم طبيعة رأى الذى يمثله ، ولنعرف أيضا رأى واحد من أهم المؤرخين المصريين المعاصرين. نتناول فيما يلى الموضوعين الثانى والثالث لارتباطهما معا ولأهميتهما فى التحليل المعرفى للقصة ككل .

¹ سيدىو ، المرجع السابق ، ص 150-151

قناة السويس

كان موضوع قناة السويس من بين أهم الموضوعات التاريخية التي عرضها وتناولها المؤرخ والأثرى سليم حسن فى موسوعته مصر القديمة . ونلاحظ أنه حرص فى الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة على اضافة ملحق عنوانه " قصة قناة السويس من أقدم العهود وحتى نهاية القرن التاسع عشر " نقتطف فى هذا الموضع مذكره الأستاذ سليم حسن ويتصل بالنقطة الراهنة التى تهمنى ، وهو مايمكن تلخيصه فى النقاط الآتية :

1- أن أول تفكير فى اىصال البحر الأحمر بالبحر المتوسط بقناة متفرعة من نهر النيل يرجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية حوالى 2000 ق م .

2- أن البحث الأثرى والهندسى يدل على وجود آثار ثلاث قنوات هى :
أ- قناة ثاروا (تل أبو صيفة الحالية) وتبعد حوالى أربعة كيلومترات من القنطرة الحالية ويسمىها الأثرى كليدا (قناة الجفار).

ب - قناة الفراعنة أو (القناة القديمة) .

ج -قناة بطلميوس الثانى (فيلادلف) .

3- أن هيرودوت يتحدث صراحة فى الكتاب الثانى من تاريخه العام عن قناة السويس ، وأنه عاش فى زمن كانت القناة فيه مفتوحة للتجارة.

يقول هيرودوت عن بسميتك الأول " وقد كان لهذا الملك (بسميتك) ابن يدعى (نكاو) خلفه على العرش ، وكان هو أول من بدأ حفر القناة التى تجرى لتصب فى البحر الأحمر ، وكان (دارا) ملك الفرس ثانى ملك اهتم بها وكان طولها أربعة أيام بالسفينة ، وكانت تتسع لسير سفينتين فيها متحاذيتين ... وتبتدىء فتحة هذه القناة فى ريف مصر (الدلتا) من جهة مقاطعة العرب وتستمر جارية فى أعلى هذا الريف محاذية جبل المحاجر المجاور لمدينة منف ... وفى أثناء انشغال (نكاو) بالقناة المذكورة مات فيها مية وعشرون ألف مصرى ، وقد أمر بوقف العمل بسبب ذلك .

4- وفى كتاب الأجواء Meteorologie لأرسطو نجده يتحدث عن المصريين والقناة بقوله " نحن نعتبر أقدم البشر هؤلاء المصريين الذين تظهر كل بلادهم قاطبة من عمل النيل ولا تعيش إلا به . وهذه حقيقة تفرض نفسها على أى فرد يجوب هذه البلاد ... والواقع أن أحد الملوك شرع فى القيام بحفر البرزخ ، فإن جعل هذا الممر صالحا للملاحة كان له فائدة عظيمة ، والظاهر أن (سيزوستريس) هو أول الملوك القدامى الذين تبنوا هذا العمل ، لكنه قد لاحظ أن مستوى الأرضى كان أكثر انخفاضا عن مستوى البحر " .

5- أما ديودور الصقلى فقد ذكر قناة السويس بقوله : ويخرج من الفرع البلوزى قناة صناعية تجرى إلى الخليج العربى (أى خليج السويس)

والبحر الأحمر ، وكان (نكاو) بن بسمتيك هو أول من أقام بناءها ، وقد عمل فيها الملك دارا الفارسي مدة ، ولكنه تركها نهائيا دون أن تتم لأن بعض الناس أخبروه أنه إذا حفر البرزخ كان مسؤولا عن اغراق مصر . لأن مستوى البحر الأحمر في نظرهم كان أعلى من أرض مصر . وفي زمن متأخر عن ذلك أتمها بطلميوس الثاني وأقام في أقوى نقطة فيها نوعا من الأهوسة وكان يفتح الهويس حينما يريد المرور فيه ثم يغلق ثانية بسرعة ، وقد أسفر استعماله عن أنه مخترع ناجح مفيد .

6- أما استرابون فقد نقل عن الجغرافي ارتميدورس (100 ق .م) أن أول قناة عندي يبتدىء الإنسان من بلوز هي القناة التي تملأ البحيرات المستتعة كما تسمى ، وهما اثنتان في العدد وتقعان على الجهة اليسرى من النهر الكبير فوق بلوز في مقاطعة العرب ، وهو يتحدث كذلك عن بحيرات أخرى وقنوات في نفس الاقليم خارج الدلتا ... وتوجد قناة أخرى تصب ماءها في البحر الأحمر والخليج العربي بالقرب من مدينة ارسنوى وهي مدينة يطلق عليها بعض الكتاب اسم كليوباتريس وهي تصب كذلك في البحيرات المرة كما تسمى ، وقد كانت حقيقة مرة في الأزمان المبكرة ، ولكن عندما حفرت القناة السابقة الذكر تغير ماؤها وذلك بسبب اختلاطه بالنهر ... وكان أول من حفر القناة هو الملك سيزوستريس قبل حرب طرواده ، وان كان البعض يقول أن ابن بسمتيك ابتداء فيها فقط العمل ثم مات ، وخلفه في العمل في القناة دارا

الأول ولكنه بدوره كذلك قد ترك العمل فيها بسبب فكرة خاطئة راودته عندما كانت القناة على وشك أن تتم ، فقد اقنع أن ماء البحر أعلى مستوى من أرض مصر ، وأنه إذا قطع البرزخ الذى بينهما فى كل طوله فإن البحر سيغرق البلاد . وعلى أية حال فإن ملوك البطالمة قد قطعوا البرزخ طولاً وجعلوا البوغاز ممراً مقللاً "

7- يتحدث المؤرخ الرومانى بلىنى القديم عن القناة قائلاً " ... وهناك ميناء دانون وهى مؤسسة صيدية منها خرجت قناة للملاحة حتى النيل يبلغ طولها 62000 خطوة حتى الدلتا (وهذه هى المسافة التى بين النهر والبحر الأحمر) حفرها أولا سيزوستريس ملك مصر ثم دارا ملك الفرس وأخيراً بطلميوس الثانى ، وهذا الأخير عمل قناة عرضها مائة قدم وعمقها أربعون قدماً (وفى رواية أخرى ثلاثون قدماً) وطولها 37500 خطوة حتى حوالى البحيرات المرة ، ولم تتم خوفاً من الفيضان ... " .

8- أما جراجوار الطورى وهو مؤرخ فرنسى (567 م) فقد كتب عن قناة السويس وهو يدون تاريخ فرنسا مايلى : يجرى النيل من الغرب إلى الشرق نحو البحر الأحمر . وتمتد فى الغرب بحيرة حقيقية بمثابة نراع من البحر الأحمر تجرى نحو الشرق طولها خمسين ميلاً وعرضها ثمانية عشر قدماً . وتوجد عند رأس هذه البحيرة مدينة كلزما (القلزم) ولم تقم هناك لأن الموقع خصب التربة فإنه لا توجد تربة

أكثر جدبا من هذا المكان، ولكنها أقيمت بسبب الميناء ، وذلك لأن السفن التى تأتى من الهند ترسو هناك بسبب صلاحية هذه الميناء ، وقد كانت توزع منا السلع المستوردة على كل مصر ... " .

9- يذكر المؤرخ العربى الفرغان (828 م) : أن قناة تراجان التى تمر بـ (بابليون) مصر . كما يقول بطليموس الجغرافى بالفاظ صريحة هى نفس القناة التى سئيت (خليج أمير المؤمنين) وهو الذى يجرى بمحاذاة القسطلط . وذلك لأن (عمر) أمر أن تظهر هذه القناة التى كانت فى عهده مردومة بالرمال من جديد لأجل أن تحمل المؤن إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة .

10- أما المقرئزى فىذكر " ... ثم أن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفرة لما فتح مصر وأقام فى حفرة ستة أشهر وجرت فيه السفن تحمل الميرة إلى الحجاز فسمى خليج أمير المؤمنين (يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه) فإنه هو الذى أشار بحفره ولم تزل تجرى فيه السفن من قسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر ب (السويس) ... إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسین ومائه فطم وبقي منه ما هو موجود الآن .

11- يذكر شمس الدين : وهذه القناة كانت تجرى حتى مدينة القلزم وتمر بالقرب من السويس وكانت مياه النيل تصب فى هذا المكان فى

الماء المالح وقد أمر عمر بتطهير هذه القناة وإعادة حفرها وسمائها خليج أمير المؤمنين .

12- أما المسعودي (+ 956 م) فقد ذكر وصفا تفصيليا للموقع الجغرافي لبحر الروم وبحر القلزم .

13- وأما الكندي فيلسوف العرب والجغرافي فقد ذكر في كتابه (الجندی العربی) : أنه بدىء حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه فى ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر ، ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم اضاعته الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

يفهم من التطور السابق أن التفكير فى قناة السويس لم يكن وليد القرن التاسع عشر فى العصر الحديث ، ولم يكن مشروعا جديدا على مصر ، وإنما كان مشروعا مصرية قديما تناولته الأيدى المصرية وقدحت فيه العقول المصرية ، وهو ما أردنا التنبية إليه .

ابن النديم الفهرست وأول رواية متكاملة عن يحيى النحوى

يعد كتاب الفهرست لابن النديم من أهم المصادر التى لدينا عن العلوم والمفكرين القدماء . وابن النديم قدم لنا أول صورة فكرية عن يحيى النحوى . لنقترب من نص ابن النديم لنتعرف على حقيقة الصورة التى رسمها وجانبها المتشعبة.

يقول ابن النديم¹:

"كان يحيى النحوى تلميذ ساوارى ، وكان أسقفا فى بعض الكنائس بمصر . ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث ، فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واستعطفته وأنسته وسئلته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فاقام على ماكان عليه وأبى أن يرجع ، فاسقطوه .

وعاش إلى أن فتحت مصر على يدى عمرو بن العاص ، فدخل إليه وأكرمه ، ورأى له موضعا وقد فسر كتب أرسطاليس . وقد ذكرت مافسره فى موضعه . وله من الكتب بعد ذلك ، كتاب الرد على برقلس،

¹ ابن النديم ، الفهرست ، ص ص 314-315

ثمان عشرة مقالة . كتاب فى ان كل جسم متناهى فقوته متناهية ،
مقالة. كتاب الرد على أرسطاليس ، ست مقالات . كتاب تفسير ما بال
لأرسطاليس العاشر ، مقالة يرد فيها على نسطورس . كتاب يرد فيه
على قوم لا يعترفون ، مقالتان، ومقالة أخرى يرد فيها على قوم آخر .
وله تفسير شىء من كتب جالينوس فى الطب ، نحن نذكر ذلك عند
ذكرنا جالينوس . وذكر يحيى النحوى فى المقالة الرابعة من تفسيره
لكتاب السماع الطبيعى فى الكلام فى الزمان مثالا قال فيه ، مثل سنتنا
هذه وهى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة لدقطينانوس القبطى . فهذا يدل
على أن بيننا وبين يحيى النحوى ثلثمائة سنة ونيف . وقد يكون فسر هذا
الكتاب فى صدر عمره لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص .

هذه إذن مجموعة الروايات التى وصلت إلينا من التراث القديم،
وأخر هذه الروايات وهى رواية ابن النديم هى وحدها التى ذكرت لنا
يحيى النحوى وبعض ملامح عن الفترة التى عاش فيها . وهذه
الشخصية سوف ينسج حولها البغدادى وابن العبرى وابن القفطى
وغيرهم من الكتاب فى القرنين السادس والسابع الهجريين قصة الحريق
المزعوم الذى لحق مكتبة الإسكندرية. نتوقف الآن لننظر فى مكونات
القصة التى زعمت عن لقاء يحيى النحوى مع عمرو بن العاص ،
وننظر فى مدى التشابه بين مارواه ابن النديم وما وصل إلينا فى
روايات كتاب القرنين السادس والسابع الهجريين . وهل وجدت فعلا

شخصية تحمل اسم يحيى النحوى أثناء الفتح العربى الإسلامى لمصر أم لا ؟ وما هى حقيقة هذه الشخصية ؟ وإلى أى حد حدثت أخطاء أو زلات تاريخية لم يتنبه إليها من كتبوا عن هذا الموضوع وكان من الضرورى أن يتوقفوا عندها والكشف عن حقيقتها ؟ وهل أثرت الأخطاء التى حدثت على طبيعة تكوين القصة أو الرواية التى انتشرت فى القرنين السادس والسابع الهجريين ؟ كل التساؤلات المطروحة تشكل نسيج الرواية على ما سنرى .

الفصل السابع

الدراسات العربية في القرنين

السادس والسابع الهجريين

تساءلت الكتابات العربية المعاصرة والغربية على السواء بصورة
ضمنية ، ودون أن تطرح السؤال ، عن مدى الثقة فى الروايات التى
وصلتنا من كتاب القرنين السادس والسابع الهجريين . وكان التساؤل
يتجه دائما إلى الأشخاص دون الموضوعات ، على اعتبار ان
الموضوعات التى تروى مسلم بما ورد فيها من وقائع .

لقد استوقفتنا طريقة الطرح وجعلتنا نتشكك فى تفاصيل وجزئيات
كثيرة وردت بها . وربما كان الحسن بن الهيثم هو رائدنا فى هذا
التجاه المعرفى ، فقد أكد لنا فى بداية كتاب الشكوك على بطليموس
وكتاب المناظر أن العلماء الذين هم موضع ثقة قد ضللونا ، ومن ثم
تصبح المعرفة الآتية منهم بحاجة إلى نظر ودراسة وتحليل . وهذا ما
جعلنا نحذر الكتابات القديمة ، ونضع ما ورد فيها من روايات بين
قوسين حتى نتوصل على الحقائق بكل تفاصيلها . وربما غلب علينا فى
هذا الصدد الطابع الديكارتى العقلانى فى التعامل مع هذه الكتابات .
وربما استفدنا أيضا من تعليقات وملاحظات المؤرخين وفلاسفة التاريخ
فى معرفة أسباب الكذب التاريخى أحيانا . وقد تكامل مع كل هذا
معرفتنا بتاريخ العلوم العربية والغربية ، وما تتطوى عليه دلالات
بعض الظواهر أحيانا . كل هذا جاء دافعا لنا لدراسة وتحليل الكتابات
التي سلم بصحة المعلومات التى فيها علماء أجلاء لهم شأنهم ومكانتهم

الكبيرة. إننا هنا نتساءل عن الموضوعات معرفياً لتحديد مدى الثقة فيها.

لاشك أن كتابات القرنين السادس والسابع الهجريين حفلت بروايات متعددة عن الفتح العربي لمصر . وهذه الكتابات يمكن أن نلتقط منها بعض النصوص التي تردت فيها والتي من أهمها كتابات موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (557- 629 هـ) في كتابه الإفادة والاعتبار ، وكتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبري (622 - 684 هـ) ، وكتاب تاريخ الحكماء لابن القفطي (565- 646 هـ) ، وكتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.

كان كتاب البغدادي أول من من ذهب إلى أن عمرو بن العاص أحرق خزانة الكتب بالإسكندرية ، ومن ثم كان أول من أثار المشكلة ، وأكمل ابن القفطي نسج القصة : كان ابن القفطي أول من توسع في نسج قصة خيالية عن حريق مكتبة الإسكندرية ، وقد تدولت هذه القصة في كتابات الكتاب اللاحقين بدرجات متفاوتة . وقد جاءت رواية البغدادي معيبة من جوانب متعددة سوف نقف على أبعادها ، ولكن قبل أن نستبق الحكم علينا أن نرى الجوانب المختلفة لهذه القصة التي اختلط فيها الخيال بالواقع. مما قد انعكس على الروايات التالية ، وبصفة خاصة ما ذكره ابن القفطي في روايته التي احتوت على عدد من التصورات التي لا تسندها الوقائع أو الأحداث التاريخية ، أو حتى

تواريخ الملوك أو الدول ، وهذه مسألة تسترعى الانتباه فى تحليل الأحداث وربطها ببعضها .

-1-

نص البغدادى فى كتاب الإفادة والاعتبار

يقول¹:

" ورأيت حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السوارى عليه قبة حاملها ، وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه ."

تحليل

إن هذا النص الذى يقدمه لنا البغدادى معيب من نواح متعددة أهمها الأخطاء التاريخية التى وقع فيها والتى تدل إما على جهله بالوقائع

¹ البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور للمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، مطبعة وادى النيل ، طبعة أولى ، 1286 هـ ، ص 28

الحقيقية ومعرفة التاريخ وأحداثه ، أو إنها مقصودة ومتعمدة ، وبخاصة أن سياق الأحداث التي كان يرويها البغدادى فى الإفادة والاعتبار لا يسمح بمثل هذه الرواية . فمن جانب يرى بعض المؤرخين¹ أن هذه الرواية أشبه بخرافة تتداولها الألسنة . وبطبيعة الحال فإن ذكر البغدادى لهذه القصة دون أن يتحقق منها يعنى أنه يأخذ الكلام من أفواه العامة ليجعل منه علما وحقائق يسلم بها العلماء .

وربما أمكن لنا أن نبين الأخطاء التي وقع فيها البغدادى قصدا أو سهوا في الآتي:

1- ما يذكره البغدادى من أن عمود السوارى هو الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطو . إن الخطأ التاريخى واضح فى هذا القول ، ذلك أن أرسطو لم يعلم فى الإسكندرية ، ولم تكن له مدرسة فيها . وأن رواق أرسطو كان فى أثينا حيث أسس أرسطو مدرسته الفلسفية . ولسنا نعلم على وجه اليقين مصدر هذه الفكرة عند البغدادى .

2- أن ثمة أخطاء تاريخية أخرى وقعت عند البغدادى فى قصته ، لأن عمود السوارى الذى يذكره البغدادى وهو ما يعرف أيضا بعمود دقلديانوس ، يقول بتلر " وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء وصفه فى الكتب القديمة ، ومما أسفر عنه البحث

¹ د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ عمرو بن العاص ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، 1966 ، ص 169

الأثرى في العصور الحديثة . ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى) وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة"¹. والجدير بالذكر أن الأستاذ آلان ويس تناول هذه المسألة فى مقالة مهمة له بعنوان "ملاحظات سكندرية"² حيث يسجل بعض الاعتراضات على تسمية عمود السوارى باسم (عمود بومبيوس) ويذكر أنها تسمية خاطئة اطلقت إبان الحروب الصليبية حيث كان يعتقد أن رأس بومبيوس مدفونة في هذا الموقع. كذلك يعترض على تسميتها في العصر الإسلامى باسم (عمود السوارى) لأنها تسمية غامضة وليس لها ما يبررها . ويذكر أن العمود قد أقيم في عصر (دقلديانوس) في نفس الموقع القديم لمعبد السرابيوم الذي كان يضم المكتبة الصغرى في الإسكندرية .

3- ما يذكره البغدادى من أن الإسكندر هو الذى بنى دار العلم بالإسكندرية . وهذا خطأ تاريخى واضح ، لأن دار العلم أنشأت فى

¹ بتلر ، المرجع السابق ، ص ، 399

² WACE,Alan J.B., Alexandrian Notes , An Article issued in the Bulletin of Farouk I university, Vol .11 , 1944,pp:1-16

و راجع أيضا : الاسكندرية عبر العصور ، مجلة كلية الآداب ، 2001 ، تقديم د. ماهر عبد القادر محمد ، ج1 من الاصدارة الإنجليزية ص ص 103-122

عهد بطلميوس الأول (سوتر) واستتملت في عهد بطلميوس
فلادلفيوس . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الإنجاز زمن الإسكندر .
وهنا لابد لنا أن نتساءل عن مصدر الخطأ فيما يذكره البغدادى . هل
يرجع الخطأ بشقيه إلى الفكرة التى شاعت لدى الناس عبر الزمن عن
مكتبة أرسطو التى اشتراها ديمتريوس الفاليرى بناء على توجيهات
وتعليمات بطلميوس الأول . ومن المعروف أن هذه المسألة كما أشرنا
فى تحليلاتنا لحياة وأعمال ديمتريوس الفاليرى تكتنفها صعوبات كثيرة ،
وبخاصة مع القول بأن الفاليرى جاء إلى الإسكندرية فارا بعد أن أطيح
به فى انقلاب على السلطة .

أضف إلى هذا ما يذكره البغدادى فى نهاية حديثه من أن خزانة
الكتب حرقها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر وهى مسألة بطبيعة
الحال موضع تحليلنا حيث لم يقدم البغدادى أى دليل على صحة ما
يقول فى روايته . لكن هذه القصة كانت موضع تعليق من جانب بعض
المؤرخين المهمين الذى تناولوا هذه الفترة بالدراسة والبحث . فمن جانب
يذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن رواية البغدادى ظهرت بعد مرور
نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ، وأن هناك مؤرخين
شهيرين معاصرين للفتح الإسلامى وهما أنتيوخوس الذى فصل خبر فتح
الإسكندرية تفصيلا مسهباً ، وكذلك يوحنا أسقف نقيوس وهو مؤرخ
عاش أيضاً فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم

المصادر التى يعتمد عليها ، فإذا كان هذا الخبر صحيحا بأى صورة من الصور لم يكن ليمر عليهما بدون ذكر .

كذلك فإن هناك مصادر عربية ذكرت أخبار فتح الإسكندرية ولا نجد فيها أى ذكر لرواية من هذا القبيل .

أما الدكتور مصطفى العبادى فإنه ينظر لرواية البغدادى على أنها مظهرا من مظاهر " ضعف ثقافة عبد اللطيف عن تاريخ الفكر الاغريقى وأنه لم يعلم من تاريخ الموسيون ومكتبات الإسكندرية شيئا"¹. ومعنى هذا أن ترد القصة برمتها إلى أسباب الجهل ، وفى هذه الحالة يحق لنا أن نتساءل وفقا لرواية البغدادى: أيجوز الرمى بالباطل انطلاقا من الجهل؟ قد يكون فى هذا رأى بعض التبرير ولكن هذا لا يؤسس بيئة عقلية على تهاقت القصة التى قدمها البغدادى أصلا . ومع هذا فإننا نعتقد من جانبنا أن البغدادى لم يقدم القصة فى السياق الذى كان من الواجب أن تقدم فيه ، كما أنه لم يقدم الحجة المنطقية المدعمة بالدليل على ما ذهب إليه من تقارير إن فى الجزئيات أو الكليات ، وهى مسألة لا بد وأن تستوقف المؤرخ لمتل هذا الحدث . ومع الوضع فى الاعتبار أن البغدادى كان من أهم المشتغلين فى عصره بالحركة العلمية ، ويعتبر فى طليعة أولئك الذين تصدروا الحلقات العلمية وقتئذ ، إلا أن

¹ د. مصطفى العبادى ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص 47

الدوافع والأسباب الحقيقية الكامنة وراء ما ذهب إليه البغدادى مجهولة بالنسبة لنا .

-2-

ابن العبري

وكتاب

تاريخ مختصر الدول

يقول ابن العبري فى كتابه تاريخ مختصر الدول عند حديثه عن الدولة التاسعة وهى دولة ملوك العرب المسلمين :

" وفى هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أى النحوى ، وكان إسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبى ويشيد بعقيدة ساوري ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع وصحيح الفكر فلازمه ، وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما إنك احطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع

فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو :
وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية .
فقال له عمرو : لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى . فورد عليه
كتاب عمر يقول فيه ، وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق
كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله
فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها
على حمامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدھا فاستيقدت فى ستة أشهر .
فاسمع ما جرى واعجب¹ .

تحليل

¹ يذهب المؤرخ المعروف محمد على كرد فى كتابه " الإسلام والحضارة العربية " وفى معرض نقده لنص ابن القفطى إلى أن خزانة الإسكندرية حُرقت غير مرة بأمر الإمبراطورين ثيودوسيوس ويوستينيانوس ، وأن آخر حريق لها كان قبل الهجرة بمائتى سنة . ويؤكد أن جيبون فى " تاريخ سقوط دولة الرومان " أن هذه القرية على المسلمين لفقها أبو الفرج بن العبرى فى " تاريخ مختصر الدول " حيث يقول أن عمرو بن العاص هو الذى أحرق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب ، وهو قول لم يقم عليه دليل ، وذلك بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذكرها ، حتى أن امنيكيوس بطريك الإسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر ، لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة . وقد ذكر أرفنج وكريستون وقلين وغيرهم ، أن ما اشيع من مساوئ الإسلام أو المسلمين لهذا الشأن ، لم يكن له ذكر من قبل نقل كتاب " مختصر الدول " إلى اللاتينية ، ومن ذلك الحين ابتدأ الغربيون ييغضون المسلمين ويحتقرونهم . (محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ج 1 ، ص 20-23)

نريد أن نربط تحليل رواية ابن العبري بالقصة التي قدمها لنا ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء ، وما يذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ، ولكن قد يبدو من الضروري أن نشير في هذا الموضع إلى أن العبارة الأخيرة التي يقول فيها " فاسمع ماجرى واعجب " هذه العبارة ذاتها سبق وأن استخدمها صاعد الأندلسي حينما اكتشف مواضع الخلل في الروايات التي ذكرت أن حنين ابن اسحق تعلم العربية على الخليل ابن أحمد ، والتناقض البين الذي اكتشفه صاعد الأندلسي يتمثل في أن حنين ابن اسحق كان طفلا صغيرا حين مات الخليل ابن أحمد . ولذا وجدنا صاحب طبقات الأمم يستخدم صيغة السخرية والتعجب (فاسمع ماجرى واعجب) لكن هذا لا ينطبق على ابن العبري أو ابن القفطي فكلاهما استخدم نفس الصيغة بصورة تقريرية للجانب الإيجابي من القصة. ومثل هذا الأسلوب في الكتابات العربية القديمة يعتمد على ذكاء القارئ.

لكننا نريد أن نتوقف قليلا في هذا الموضع لنفسر ونحلل جزءا مهما مما يلزمنا في معرفة حقيقة موقف ابن العبري .

ابن العبري والمختصر

لماذا نضع العنوان ابن العبري والمختصر ؟ هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى أن بعض الكتابات وضعت بعض الأدلة لنفي صلة ابن العبري بتأليف وإشاعة خبر قصة حريق مكتبة الإسكندرية القديمة ،

وهذه الكتابات نظرت إلى جزء مفرد من القصة ولم تعالج القصة برمتها. لننظر إذن إلى القصة في تكامل جزئياتها.

ذهب الدكتور مصطفى العبادي في تعليقه على رواية ، أو قصة ابن العبري إلى الرأي التالي " ولعل من المناسب - قبل أن اتعرض لنقد نص ابن القفطي- أن أشير إلى ما لاحظته من اختلاف في طبعتين مختلفتين لكتاب أبي الفرج المسمى (تاريخ مختصر الدول). ولعل هذا الاختلاف ذاته يمثل أول نقطة في نقد القصة واسم أبو الفرج هو جريجوريوس بن هارون أبو الفرج الملطى ، وهو ارمنى نصرانى ، وعرف بابن العبري لأن والده كان طبيباً يهودياً قبل أن يتحول إلى المسيحية ، وهو من مؤرخي القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى وقصة كتاب أبي الفرج أنه وضع كتاباً مطولاً باللغة السريانية واسماه (تاريخ الدول) . ونظراً لما عرف به أبو الفرج من العلم وسعة المعرفة ، تقدم إليه عارفى فضله من العرب أن ينقل كتابه إلى اللغة العربية لتعم الفائدة منه ، فقام بنفسه باختصار الكتاب المطول، وسمى الكتاب العربى الذى بين أيدينا (تاريخ مختصر الدول) وقد تم طبع النص العربى حتى الآن ثلاث مرات ، الأولى قام بها بوكوك فى اكسفورد عام 1665 (واعيد طباعتها سنة 1806) ، والثانية فى ليبسك بألمانيا سنة 1785 ، والثالثة فى بيروت سنة 1890 وقام بها الأب انطوان صالحانى . وبعد مقارنة طبعة أوكسفورد

لبوكوك مع طبعة بيروت للأب أنطوان صالحاني ، وجدت أن طبعة بوكوك تردد قصة حريق عمر للمكتبة حرفيا تقريبا كما وردت عند ابن القفطي ، في حين أن طبعة الأب أنطوان صالحاني تسقطها تماما . أريد في واقع الأمر أن اتوقف عند هذه النقطة لأهميتها في التحليل .

1- يذكر الدكتور العبادي أن طبعة الأب أنطوان صالحاني تسقط القصة تماما ولا تذكرها ، وهذا التقرير لا يتفق مع صحيح الوقائع ، لأن طبعة الأب أنطوان صالحاني بين أيدينا ، وهي صادرة عن دار الرائد في بيروت ، وقد كتب على غلاف الطبعة العبارة الآتية (تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس أبي الفرج بن اهرن الطبيب الملطي المعروف بابن العبري . وقف على تصحيحه الأب أنطوان صالحاني اليسوعي) . ويبقى علينا أن نفسر الأمر فيما يقرره الدكتور العبادي في أمر طبعة المختصر .

2- إما أن الدكتور العبادي قد اطلع على طبعة أخرى للأب أنطوان صالحاني ، أو أنه أخذ عبارته عن مصدر آخر أشار إلى أن الأب أنطوان صالحاني لم يذكر القصة في نشرته ، وبطبيعة الحال قد يكون غير طبعة بوكوك . أما الأمر الأول فقد جرينا وراءه وقتا طويلا لعنا نصل إلى نسخة أخرى صادرة عن دور النشر اللبنانية أو أية دور نشر أخرى ، ولم نجد طبعات أخرى غير الطبعة التي بين أيدينا ، والتي تثبت نسب القصة إلى ابن العبري . وأما الفرض الثاني فمن المعروف

أن الكتابات الغربية تفضل أن تنسب القصة إلى ابن القفطى لعدة اعتبارات منها أنه عربى ومسلم ، وأن قصته انطوت على حكايات وأحداث جزئية أكثر مما تتضمنه رواية ابن العبرى. والواضح أن الفرق بين ما قدمه الدكتور العبادى من آراء وما نذكره هنا يتمثل فى أن الدكتور العبادى أشار إلى أن ابن العبرى ذكر القصة . ولكن أية قصة؟

3- إن الدكتور العبادى لم يقدم لنا قصة ابن العبرى ولاندرى لهذا تفسيراً، هل هذا يرجع إلى ما سبق أن قررته من عدم تطابق رواية ابن العبرى حرفياً مع الروايات الأخرى ، التى ترددت فى قصة البغدادى أو ابن القفطى ؟ وحتى فى هذه الحالة لابد من ذكر القصة لأنها من أركان التحليل . أضف إلى هذا أن الدكتور العبادى يذكر أن طبعة بكوك ذكرت القصة (ولكنها بطبيعة الحال قصة ابن القفطى) وأن طبعة صالحانى لم تذكرها ، أو هى تسقطها . ويرتبط بهذا أيضاً مسألة التطابق مع قصة البغدادى أو ابن القفطى ، وهما فى الأصل لا تطابق بينهما إلا فى ذكر رواية احراق المكتبة .

4- أما ما نختلف فيه مع الدكتور العبادى فيرجع إلى أن القصة التى ذكرناها هنا لابن العبرى مأخوذة عن طبعة الأب أنطوان صالحانى الصادرة فى بيروت وقد ذكر ابن العبرى القصة كاملة فى عنايته بدولة ملوك العرب المسلمين وهى الدولة التاسعة . (ص ص 175- 176) .

ولكن يبقى السؤال لماذا ينسب الدكتور العبادى انتقال القصة إلى الغرب

عن طريق ابن القفطى ؟ أهى قصة حقيقية أم أنها خرافة أريد لها أرضا خصبة فى فترة ابن العبرى وابن القفطى التى اتسمت إلى حد كبير بضعف الثقافة التاريخية على وجه الخصوص وقت بدأت النوازل تنهال على العرب والمسلمين ؟ ولماذا لم يقدم لنا الدكتور العبادى قصة ابن العبرى رغم أنه يشير (ص 49-50) إلى أن القصة وردت عند ابن العبرى ؟ وما هى الدوافع الحقيقية لتبرئة ابن العبرى؟ هل التبرئة ناتجة فعلا ، كما يذكر الدكتور العبادى ، عن وجود نص أوفى موجود عند ابن القفطى ، مما جعله يرتب نتيجة لانتساق مع المقدمات الناقصة، وهو ما يمكن أن يؤثر على معرفة القارىء واستنتاجاته ، ويترتب على هذا أن يعتقد الكاتب والقارىء معا أن الإشكالية ليست قائمة ، أو أن الحل قد استكمل، ومن ثم يصبح الحديث عن هذه الإشكالية فى الكتابات العربية أو الغربية على السواء، فى غير موضعه (يقول " وقد تبين الآن أن قصة الحريق قد وردت على نحو أوفى فى نص أكثر قدما ، فقد زالت عن أبى الفرج هذه المسؤولية ، بل لعل من الممكن تبرئته منها نهائيا" ص 50) ؟

5- لكننى فى واقع الأمر أريد أن أتوقف عند مسألة طبعة الأب أنطوان صالحانى وما يذكره الدكتور العبادى . يقول " وجدت أن طبعة بوكوك تردد قصة حريق عمر للمكتبة حرفيا تقريبا كما وردت عند ابن القفطى، فى حين أن طبعة الأب أنطوان صالحانى تسقطها تماما " ،

ومعنى هذا أن القصة ليست موجودة فى طبعة الأب أنطوان صالحانى وهذا يعنى من الناحية المعرفية أن ما اسقط إنما قد يكون لعدم وجوده أصلا ، أو لتعمد اسقاطه مع وجوده لاختفاء شىء ما أو للتأثير على عملية الاستنتاج ، أو للوصول إلى نتيجة مرغوبة عند القارئ . ومن الناحية المنطقية فإن عملية الاسقاط فى هذه الحالة تعنى حذف مقدمة من المقدمات التى قد تؤثر على التحليل والنتيجة معا. يبدو أن هذا التقرير الذى اشار إليه الدكتور العبادى يتعارض من الناحية العقلية مع الاشارة التى قدمها فى صفحة 77 ويقول فيها حرفيا (تاريخ مختصر الدول ، لأبى الفرج الملطى المعروف بابن العبرى ص 180-181 طبعة بوكوك سنة 1650- وأعيد طبعها سنة 1806 ، والنص غير كامل فى طبعة الأب أنطوان صالحانى اليسوعى - بيروت (1890) ص 175). إذا عرف الدكتور العبادى نص ابن العبرى الموجود فى طبعة الأب أنطوان صالحانى ، ومع ذلك قرر مسبقا أن طبعة صالحانى تسقطها (أى القصة) ، ثم يقرر أن النص (غير كامل) ؟ لسنا ندرى أيهما نضع فى الاعتبار عند التحليل التقرير الأول أم التقرير الثانى ، خاصة إذا كنا بصدد التحليل المعرفى ؟ وبطبيعة الحال فإن الدكتور العبادى كمؤرخ يعرف الفوارق الجوهرية بين النص "الكامل" والنص "غير الكامل" و "النص المحذوف" من الناحية المعرفية والتاريخية . ونحن نعرف أيضا فى مجال تاريخ العلم أن عدم التمييز بين هذه

المستويات المعرفية الثلاثة للنص يؤثر على تحليل وتركيب الوقائع إذ في هذه الحالة سيتم اثبات وقائع غير صحيحة لدى القارئ الذى لايعرف طبيعة الحدث التاريخي أصلا .

6- أضف إلى ذلك أن الدكتور العبادى استند إلى أن القصة وردت كاملة عند ابن القفطى ، وعلى هذا الأساس يصبح ابن العبرى بريئا ، ولسنا نعرف المبرر الذى جعل الدكتور العبادى يتخذ مسألة النص الكامل سندا ويسقط النص الناقص تماما من مقومات الدليل ، على الرغم من أن النص الناقص قد يكون أكثر أهمية للمؤرخ ، وأكثر قوة وثراء ، من النص الكامل، لأن المسألة قد تتعلق بقوة البيانات والمعلومات التاريخية التى يحتملها النص وما يترتب عليها من أدلة تاريخية. والدكتور العبادى يعتمد على فكرة أن النص الذى قدمه ابن القفطى أقدم ، وهذه مسألة أخرى لانعرف لها مبررا . لقد عرف كتاب ابن القفطى فى العالم الغربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، على حين أن كتاب ابن العبرى فى طبعته المطولة والمختصرة لابد أن يكون قد عرف فى القرن الثالث عشر الميلادى فى طبعته العبرية والسريانية إذ الغرب اللاتينى عرف اسم ابن العبرى برسمه اللاتينى (بارباريوس) باعتباره يهودى الأصل مسيحى الديانة ، سريانى العبارة. وجاءت طبعة بكوك فى اكسفورد عام 1665 وليس عام 1650. ومن

ثم ليست العبرة بالنص الكامل أو النص الناقص ، ، إنما العبرة بما يرد في النصوص من وقائع .

7- لماذا ركز الدكتور العبادى والكتابات التاريخية من قبله على رواية أو قصة ابن القفطى ولم تتناول بالتحليل الشخصية المفتاحية فى نصي ابن العبرى وابن القفطى وهى شخصية يحيى النحوى ؟ هل هناك من أسباب تقف وراء عدم العناية بشخصية تاريخية مهمة كنا نتوقع أن تكون موضع تحليل الدكتور العبادى ؟

إن التساؤلات التى أثيرتها حول نص الدكتور العبادى باعتباره قراءة للحوادث التاريخية ترفع من قيمة النص فى التحليل الفلسفى والتاريخى والعقلى معا ولا توجه نقدا للنص أو كاتبه وإنما تقرأ النص (الذى هو قراءة بطبيعة الحال لنصوص أخرى) بصورة مختلفة (وهو ما نحتاجه لاثراء الحركة النقدية فى التعامل مع النصوص)، وتوجه المفكرين إلى ضرورة تناول القصة- باعتبارها شكلت ظاهرة - بتحليل أعمق يكشف لنا العديد من المعطيات التاريخية.

لكن ماذا عن القصة الرئيسية فى تلك الفترة ، أقصد القصة التى رواها ابن القفطى ، وإلى أى حد يمكن الوثوق بها ؟ وما عناصرها ومكوناتها ؟ وهل يمكن إجراء التحليل التاريخى عليها ككل؟ يشغلنا هذا الأمر الآن لنستكمل جوانب القصة .

نص ابن القفطى

فى كتاب

تاريخ الحكماء

يقول ابن القفطى فى كتابه "تاريخ الحكماء " :

"(يحيى النحوى { المصرى الإسكندرانى تلميذ شاوارى كان أسقفا فى كنيسة الإسكندرية بمصر ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث لما قرأ كتب الحكمة واستحال عنده جعل الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا . ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه عز عليهم ذلك ، فاجتمعوا إليه وناظروه ، فغلب وزيف طريقه، فعز عليهم جهله ، واستعطفوه وأنسوه وسألوه الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ماتحققه وناظرهم عليه فلم يرجع فأسقطوه عن المنزلة التى هو فيها بعد خطوب جرت .. وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعا ، وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر، ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن

الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لا يكاد يفارقه . ثم قال له يحيى يوما انك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لانفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها ، فقال له : ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ، فقال له يحيى : إن بطلميوس فلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبيب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة وتقدم إليه بالإجتهد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها فى نقلها ، ففعل ذلك . فاجتمع من ذلك فى مدة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها ، قال لزميرة : أترى بقى فى الأرض من كتب العلوم ما لم يكن عندنا؟ فقال له زميرة : قد بقى فى الدنيا شئ كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم . فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك إلى أن مات الملك . وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلى الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا ، فاستكبر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال : لا يمكننى أن أمر فيها بأمر

إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى الذى ذكرناه ، واستأنه ما الذى يصنع فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها ، فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها ، وذكروا أنها استنفذت فى مدة ستة أشهر فإسمع ماجرى وتعجب ¹.

إن نص ابن القفطى ملئ بالأحداث ، وهذا النص يشير إلى تواصل الحوار بين عمرو بن العاص ويحيى النحوى ، وهو يصور هذا الحوار وكأنه على السجية ، ويحدث بين صديقين حميمين . وحسب النص فإن يحيى النحوى لحق أوائل الإسلام ، فهل كان يتحدث العربية أم السريانية أم اليونانية ؟ لقد كانت اللغة العربية لغة جديدة وافدة إلى مصر ، وهى بالضرورة لغة الفاتحين ، وكانت السريانية لغة راسخة بالإضافة إلى اللغة اليونانية . وقد أشار ابن النديم فى الفهرست إلى أن يحيى النحوى شرح كتاب الكون والفساد لأرسطو شرحا تاما² . كما ذكر ابن القفطى أن كتاب الكون والفساد شرحه " يحيى النحوى ووجد

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ص 232-233

² ابن النديم ، الفهرست ، ص ، 311

شرحه بالسرياني فنقل إلى العربى وقال أهل العلم بالسريانى أنه بالسريانى فوق العربى فى الجودة¹. إذن من الطبيعى أن تكون لغة يحيى النحوى هى السريانية لا العربية ، ويصبح ما حدث من حوار بين يحيى النحوى وعمرو بن العاص فى أوائل الإسلام على حد قول ابن النديم وابن القفطى ، إنما حدث باللغة السريانية ؛ ذلك لأن إجابة اللغة العربية فهما وحديثا بالنسبة ليحيى النحوى مسألة تحتاج إلى وقت. فإذا وضعنا فى الاعتبار أن الرواية المذكورة حدثت بعد الفتح مباشرة ، وأن تعلم اللغة يحتاج إلى وقت ، وأن الحديث الذى دار بين الرجلين طويل ، فهل كان الحديث بينهما مباشرا وبدون وسائط أم عبر الترجمة؟ ومن الذى كان يترجم إذا كان الأمر كذلك ؟ هل كان عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يعرف بعض السريانية حسب بعض المصادر²؟ كل هذه مشكلات يثيرها النص من الناحية الفنية التكنيكية ، وسوف نتبين الجوانب الخفية فيما يتعلق بيحيى النحوى ونحن نعرض لشخصيته وحقيقته تفصيلا فى تحليلاتنا اللاحقة .

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 30

² ALI , Maher., *The Alexandrian Library: New Evidence and New Criticism*, The International Conference of the Legacy of Ancient Alexandria, 25-27 March 1986.

الجدير بالذكر أن نص ابن القفطى يتطابق تماما مع نص ابن العبرى، ويمكن للقارىء أن يرى مواضع التطابق فى العبارات بصورة حرفية، وأن يتبين أن مذكره ابن القفطى فى المواضع غير المتطابقة، أو المستقلة، لا يتعلق إلا بالسياق من الظاهر.

التحليل النقدى للعبارات التى وردت

عند ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى

يبدو أنه من الضرورى أن نبين المشترك بين روايات ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى لأهميته فى الوقوف على أبعاد القصة الحقيقية التى تواترت إلينا من كتابات الكتاب فى القرنين السادس والسابع الهجريين. نبحث أولا فى المتشابه ثم نتناول المختلف من العبارات.

أولا: المتشابه بين روايات ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى

1- فى حقيقة يحيى النحوى

ابن النديم : كان يحيى النحوى تلميذ ساوارى ، وكان أسقفا فى بعض الكنائس بمصر

ابن العبرى : يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أى النحوى ، وكان إسكندريا

ابن القفطى : { يحيى النحوى } المصرى الإسكندرانى تلميذ شاوارى كان أسقفا فى كنيسة الإسكندرية بمصر

2- فى حقيقة مذهبه

ابن النديم : ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عما يعتقد
النصارى فى التثليث

ابن العبرى : يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبى ويشيد بعقيدة ساورى
ابن القفطى : ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية

3- فى حقيقة رده عن مذهبه

ابن النديم : ثم رجع عما يعتقد النصارى فى التثليث
ابن العبرى : ثم رجع عما يعتقد النصارى فى التثليث
ابن القفطى : ثم رجع عما يعتقد النصارى فى التثليث
4- فى حقيقة حرمة

ابن النديم : فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واستعطفته وأنسته
وسئله الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فاقام على ماكان عليه
وابى أن يرجع ، فأسقطوه .

ابن العبرى : فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو
عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته

ابن القفطى : ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه عز عليهم ذلك ،
فاجتمعوا إليه وناظروه ، فغلب وزيف طريقه، فعز عليهم جهله ،
واستعطفوه وأنسوه وسألوه الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ماتحققه

وناظرهم عليه فلم يرجع فأسقطوه عن المنزلة التي هو فيها بعد خطوب جرت

5- لقاء يحيى النحوى مع عمرو بن العاص

ابن النديم : وعاش إلى أن فتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، فدخل إليه وأكرمه ، ورأى له موضعا وقد فسر كتب أرسطاليس ابن العبري : وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو ابن القفطى : وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو

ثانيا : المختلف فى روايتى ابن العبري وابن القفطى عن ابن النديم

1-تأثير اللقاء على عمرو بن العاص

ابن العبري : وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به

ابن القفطى: عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعا ، وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر ، ففتن به وشاهد من حجه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله

(نلاحظ هنا أن عبارة ابن القفطى تزيد على عبارة ابن العبرى بأمرين هما: الأول ، دبنى ، حيث أن ابن القفطى ركز فى عبارته ، امعانا للتصديق بما يذكره فى قصته عن يحيى النحوى ، وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه . وابن القفطى حين يبرز هذه الفكرة إنما لتقريب صورة مقبولة ليحيى النحوى لدى المسلمين ، ويصبح هذا الأمر طبيعيا فى إطار الوجدانية فى الدين الاسلامى . الثانى ، فلسفى وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر . لم يتنبه ابن القفطى بطبيعة الحال أن العرب فى أيام عمرو بن العاص ، أى أيام فتح الإسكندرية لم يكن لها ألفه بالفلسفة لأنها لم تكن قد تسربت بعد إلى الأوساط الفكرية ، ولم تكن تشغل الفاتحين الجدد)

ابن العبرى: وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع وصحيح الفكر
فلازمه، وكان لا يفارقه

ابن القفطى : وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه،
وكان لا يكاد يفارقه

2- طلب الكتب

ابن العبرى : ثم قال له يحيى يوما إنك احطت بحواصل الإسكندرية
وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا أعارضك
فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : وما الذى
تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية

ابن القفطى : ثم قال له يحيى يوما انك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لانفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ، قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها

3- رأى أمير المؤمنين

ابن العبري: فقال له عمرو : لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى . فورد عليه كتاب عمر يقول فيه ، وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها

ابن القفطى : وقال : لا يمكننى أن أمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى الذى ذكرناه ، واستأذنه ما الذى يصنع فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها ، فتقدم بإعدامها

4-تصرف عمرو بن العاص

ابن العبري : فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقيدها فاستيقنت في ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب

ابن القفطي : فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقيدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها ، وذكروا أنها استنفذت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى وتعب

ثالثا : ما ورد في قصة ابن القفطي ولم يرد عند ابن العبري

1- وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا في انقضاء الدهر

2- وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها

لابد وأن نلاحظ هنا أن الاختلاف بين ابن العبري وابن القفطي ليس اختلافا حول مصادر أخذت منها النصوص ، وإنما الخلاف يرجع إلى أن أحدهما لابد وأن يكون قد أخذ عن الآخر مباشرة . وقد رجح الدكتور العبادي ضرورة أن يكون ابن العبري قد نقل عن ابن القفطي معتمدا على أن ابن القفطي هو المصدر الأقدم والأوفى الذي يحتوى على النص الكامل. وقد بينا هذه النقطة في التحليلات السابقة .

إن مجموعة العبارات التي ذكرناها توا وردت عند ابن النديم وابن العبري وابن القفطي ، ولما كان ابن النديم هو المصدر الأقدم فإننا نستطيع أن نرجع إليه ، لأنه في هذه الحالة هو الأوفى معرفيا ، وفي هذه الحالة يصبح مصدر ابن النديم هو المرجع الأساسي ومصدر الرواية الصحيحة معرفيا . ومن الطبيعي أن يكون هذا المصدر قد أخذ عن مصادر أخرى أقدم منه ، ربما تكون من الكتابات القديمة المتبقية عن مكتبة الإسكندرية القديمة ، وربما تكون من مصادر عربية لم تصل إلينا . وحتى في هذه الحالة لابد وأن نضع في اعتبارنا أن ابن النديم كان مرآة ثقافية حقيقية لعصره ، فقد حفظ لنا أشياء كثيرة ربما لو لم يكن الفهرست الذي صنفه قد حفظها لنا لضاعت وما علمنا شيئا عنها . وهذا يعني بطبيعة الحال أن العبارات التي وردت عند ابن العبري وابن القفطي قد استمدت أصلا من ابن النديم ، وهو ما يجب الإشارة إليه . ومع هذا فإن روايتي ابن العبري وابن القفطي حدثت بها إضافات وتحريفات تمس الجوهر والمضمون ، وهي إضافات من الناحية المعرفية تعد زيادات على المضمون الأصلي وتأتي بمثابة مضمون جديد يتجاوز المضمون السابق عليه والمتمثل في رواية ابن النديم . ونحن لا نعرف على وجه التحديد هل هي إضافات جاءت بغرض الحشو السلبي ؟ أم أنها استمدت من مصدر آخر لم يعرفه ابن النديم ؟

الواقع أن الدكتور العبادى لمس هذه النقطة ، وأشار إلى أن المصادر القديمة التى يحتمل أن يكون ابن النديم قد أخذ عنها تنحصر فى مصدرين هما : الأول، وهو اسحق الراهب الذى ذكر ابن النديم بعض مقاطع أخذها من نصوص له . والثانى هو الكاتب البيزنطى تزيترىس Tzetzes . ويرى الدكتور العبادى فى هذا الاطار أن الأفكار التى وردت عند اسحق الراهب وتزيترىس تكاد تتفق مع بعضها حتى فى الأخطاء التى وقع فيها . لكن علينا أن نتوقف قليلا لنستوضح معرفيا وتاريخيا بعض الجوانب التى غابت عن التحليل .

تحليل العبادى من جديد

ذكر الدكتور مصطفى العبادى أن ابن العبرى وضع كتابا مطولا باللغة السريانية واسماه (تاريخ الدول) ، وأنه قام بنفسه باختصار الكتاب المطول، وسمى الكتاب العربى الذى بين أيدينا (تاريخ مختصر الدول). ويذكر أيضا أن طبعة بيكوك قامت على أساس المختصر العربى ، ولكنه لم يذكر فى هذا الموضع أن الأصل السريانى كان معروفا فى أوروبا وفى الأوساط الكنسية التى كانت تهتم بمثل هذه الكتابات إبان عصر الترجمة فى أوروبا حيث بدأت بواكير النهضة الأوروبية ، ولسنا نعرف لماذا لم يقدم الدكتور العبادى مثل هذه الإشارة ؟ . وربما كان هذا أيضا هو ما جعل الدكتور العبادى يعتمد فى تحليلاته على "تاريخ الحكماء" لابن القفطى ولا يقدم لنا نص ابن العبرى . إلا أن

الأمر المهم والمرتبط بهذه المسألة كلها والمحير فى الوقت نفسه أن الدكتور العبادى لم يقدم لنا تحليلا لأهم جزء فى القصة وهو شخصية يحيى النحوى التى سلم الدكتور العبادى ، كمؤرخ ، بوجودها . أتسرى هذا الأمر يرجع إلى أنه كان من الضروري أن يكون ثمة يحيى نحوى ما ؟ أم لأن شخصية يحيى النحوى بكل ما تتطوى عليه من دلالات لم تكن تستوجب التحليل التاريخى ؟ كل هذه التساؤلات تتدافع مرة واحدة لتجعلنا نربط هذا السياق بما قدمه لنا ابن أبى أصيبعة فى روايته التى تستحق أن نقف على جوانبها المتعددة.

لقد حاولت من جانبى منذ عام 1986 أن أبين فى بحث قدمته إلى المؤتمر الدولى لتراث الإسكندرية الذى عقد فى مارس 1986 ورأسه ونظمه العالم الكبير الأستاذ الدكتور لطفى دويدار رئيس جامعة الإسكندرية الأسبق ، كيف أن الكتابات القديمة مثل كتابات ابن القفطى وابن العبرى وابن أبى أصيبعة وقعت فى أخطاء تاريخية فادحة ومتعددة ، وقادنى هذا إلى أن أبين كيف أنه لا يمكن الاعتماد على رواية احراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية . لكننى اعترف أيضا أن لم يكن يجول بتفكيرى فى ذلك الوقت ضرورة البحث فى شخصية يحيى النحوى تاريخيا .

لابد لنا من أن نتعرف على الجوانب الأخرى الموجودة فى روايتى ابن العبرى وابن القفطى مما هو غير موجود فى رواية ابن النديم ،

قبل أن نقدم على محاولة معرفة حقيقة شخصية يحيى النحوى التى نعتبرها محورية فى هذا السياق للكشف عن أبعاد الخطأ التاريخى الذى وقع فيه علماء التاريخ بعد التسليم برواية ابن العبرى وابن القفطى ، خاصة وأننا كنا نتوقع أن يكشف لنا علماء التاريخ ورجاله عن الزيف فى مثل هذه الروايات بالدليل التاريخى . أما وأن هذا لم يحدث فنجد أن واجبنا تقديم الدليل التاريخى على كذب الادعاء الذى تناقلته الكتب ، خاصة وأن مثل هذه الادعاءات لازالت أصداؤها تتردد فى الكتابات الغربية ، وليس ببعيد عنا ذلك ما كتبه المؤلف الإيطالى لوتشيانو كامفورا فى عام 1987 بعنوان " التاريخ الحقيقى لمكتبة الإسكندرية " والذى تصدى لنقده وتقنيده الكاتب والأديب الصحفى احمد عبد المعطى حجازى على صفحات جريدة الاهرام الغراء. إن مثل هذه الكتابات تبين فى رأينا أن الغرب يفتقر إلى الدليل التاريخى الذى يؤكد كذب القصة برمتها ، وهذا ما نزع من أننا أقدمنا عليه وقدمناه واضحا للفكر العربى والغربى على السواء .

لم توجه الكتابات التاريخية المختلفة اهتماما فى تحليلاتها المتعددة لشخصية يحيى النحوى التى وردت عند ابن النديم وابن العبرى وابن القفطى وأخيرا عند ابن أبى أصيبعة الذى قدم لنا الدليل والبينة على هراء القول بحرق مكتبة الإسكندرية على يد العرب إبان فترة الفتح الإسلامى لمصر دون أن يدرك أو ينتبه بصورة فاعلة من خلال حديثه

أنه يقدم لنا الدليل ، لكن لا ينبغي أن يدور بخلدنا أن مذكره ابن أبي أصيبعة صحيح تماما ؛ لكن هكذا اعتقد علماء التاريخ وقبلوا مذكره قضية مسلم بها . نريد الآن أن نربط كل هذا معا لنعرف من هو يحيى النحوى وما علاقته بالقصة .

-4-

نص ابن أبي أصيبعة

كتاب "عيون الأنباء"

يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء :

قال المختار بن الحسن بن بطلان : إن الإسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة وهم : اصطفن ، وجاسيوس ، وثاودسيوس ، واكيلوس ، وانقيلوس وفلاذيس ، ويحيى النحوى ، وكانوا على مذهب المسيح"

وقيل إن أنقيلوس الإسكندراني هو كان المقدم على سائر الإسكندرانيين ، وأنه هو الذى رتب الكتب الستة عشر لجالينوس.

واقول : وكان هؤلاء الإسكندرانيون يقتصرون على قراءة الكتب الستة عشر لجالينوس ، فى موضع تعليم الطب بالإسكندرية ، وكانوا يقرؤها على الترتيب ، ويجتمعون فى كل يوم على قراءة شىء منها وتفهمه . ثم صرفوها إلى الجمل والجوامع ، ليسهل حفظهم لها ومعرفتهم إياها . ثم انفرد كل واحد منهم بتفسير الستة عشر . وأجود

ما وجدت من ذلك تفسير جاسيوس للستة عشر ، فإنه أبان فيها عن فضل ودراية .

وعمر من هؤلاء الإسكندرانيين : يحيى النحوى الإسكندراني الاسكلاني حتى لحق أوائل الإسلام . قال محمد بن اسحاق النديم البغدادي في كتاب الفهرست : إن يحيى النحوى كان تلميذ ساواري . قال : " وكان يحيى في أول أمره أسقفا في بعض الكنائس بمصر ، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية . ثم رجع عما يعتقد النصارى من التثليث . واجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، واستعطفته وأنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره ، فأقام على ما كان عليه وأبى أن يرجع ، فأسقطوه . ولما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، دخل إليه فأكرمه ورأى له موضعا .

ونقلت من تعاليق الشيخ أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني قال : كان يحيى النحوى في أيام عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فدخل عليه . وقال إن يحيى النحوى كان نصرانيا بالإسكندرية وأنه قرأ على أميونييس . وقرأ أميونييس على برقلس . قال : وكان يحيى النحوى يقول إنه أدرك برقلس ، وكان شيخا كبيرا لا ينتفع به من الكبر .

وقال عبيد الله بن جبريل في كتاب مناقب الأطباء ، أن يحيى النحوى كان قويا في علم النحو (والمنطق) والفلسفة . وقد فسر كتباً كثيرة من

الطبيبات ، ولقوته في الفلسفة ألحق بالفلاسفة لأن أحد الفلاسفة المذكورين في وقته . قال : وسبب قوته في الفلسفة إنه كان في أول أمره ملاحا يعبر الناس في سفينته ، وكان يحب العلم كثيرا ، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والمدارس الذي كان يدرس العلم بجزيرة الإسكندرية يتحاورون ما مضى لهم من النظر ، ويتفاضون ويسمعه ، فتعش نفسه للعلم.

فلما قويت روايته في العلم، فكر في أمره وقال : قد بلغت نيفا وأربعين سنة من العمر وما ارتضيت بشيء ، وما عرفت غير صناعة الملاحة، فكيف يمكنني أن أتعرض إلى شيء من العلوم ؟!

فبينما هو مفكر ، إذ رأى نملة قد حملت نواة تمر ، وهي تريد أن تصعد بها إلى علو ، وكلما صعدت بها سقطت ، ولم تزل تجاهد نفسها في طلوعها ، وهي في كل مرة تزيد ارتفاعها عن الأولى. فلم تزل نهارها وهو ينظر إليها ، إلى أن بلغت غرضها ، وأطلعتها إلى غايتها. فلما رآها يحيى النحوى قال لنفسه : إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة ، فأنا أولى إلى أن أبلغ غرضي بالمجاهدة . فخرج من وقته وباع سفينته ، ولازم دار العلم، وبدأ بعلم النحو واللغة والمنطق . فبرز في هذه الأمور وبرز، لأنه أول ما ابتدأ بعلم النحو ، فنسب إليه واشتهر به ، ووضع كتباً كثيرة منها تفاسير وغيرها .

ووجدت فى بعض تواريخ النصارى : أن يحيى النحوى كان فى المجمع الرابع الذى اجتمع فى مدينة يقال لها خلكدونية وكان فى هذا المجمع ستمائة وثلاثون أسقفا على أتوشيوس ، وهو يحيى النحوى وأصحابه ، وأوتوشيوس ، وتفسيره بالعربى أبو سعيد .

وهذا أتوشيوس كان طبيبا حكيما ، وأنهم لما أحرموه لم ينفوه كما نفوا المحرومين . وكان ذلك لحاجتهم إلى طبه . وترك مدينة القسطنطينية ، ولم يزل مقيما بها حتى مات مرقيان الملك .

ويحيى النحوى هذا لقب آخر بالرومى ، يقال له فيلوبينوس ، أى المجتهد، وهو من جملة السبعة الحكماء ، المصنفين للجوامع الستة عشر وغيرها فى مدينة الإسكندرية، وله مصنفات كثيرة فى الطب وغيره . وترك مدينة القسطنطينية لعلمه وفضله وطبه.

"وقام بعد مارقيان الملك أسطيريوس الملك ، فاعتل هذا الملك علة شديدة صعبة، وذلك من بعد سنتين من حرم أوتوشيوس المذكور . فدخل على الملك وعالجه وبرأ من علة . فقال له الملك : سلنى كل حاجة لك . فقال أوتوشيوس : حاجتى إليك ياسيدى ، أن أسقف نوراليه وقع بينى وبينه شر شديد ، وبغى على ، وقوى عزم أفلابيانوس بطرك القسطنطينية ، وحمله على أن جمع لى سوندى ، أى مجمع ، وحرمنى ظلما وعدوانا ، فحاجتى إليك ياسيدى ، أن تجمع لى جمعا ينظرون فى أمرى . فقال الملك : أنا أفعل لك هذا إن شاء الله تعالى." فأرسل الملك

إلى ديسقوروس صاحب الإسكندرية ويوانيس بطرك أنطاكية ، فأمرهم أن يحضروا عنده . فحضر ديسقوروس ومعه ثلاثة عشر أسقفا ، وأبطاً صاحب أنطاكية ولم يحضر . وأمر الملك لديسقوروس أن ينظر في أمر أوتوشوريوس وأن يحله من حرمة على أى الجهات كان ، وقال له متوعداً : إنك إن حللته من حرمة بررتك بكل بر وأحسنيت إليك غاية الإحسان ، وإن لم تفعل ذلك قتلتك قتلاً ردياً . فاختر لنفسه البر على القتل . فعمل له مجلساً هو وهؤلاء الثلاثة عشر أسقفاً ، ومن حضر معه أيضاً فحسنوا قصته وحلوه من حرمة . وخرج أسقف زوراليه وأصحابه ، وانصرفوا من القسطنطينية وقد خلطوا رأى الكنيسة . وبهذا السبب كان تعصب ديسقوروس لأوتوشوريوس المذكور ، المعروف ببحيى النحوى . ومات مخالفاً لمذهب الروم المعروفين بالملكية . ومات وهو يعقوبى مخالف للروم المذكورين¹ .

إننا نريد أن نركز تحليلاتنا التالية على ربط تحليل رواية ابن أبى أصيبعة بمعرفتنا بشخصية يحيى النحوى التى وردت فى هذه الكتابات جميعاً لمعرفة مصداقية النص ، ونريد أيضاً أن نحدد ابتداءً من هذا التحليل مدى الثقة فى الكتابات التاريخية التى تواترت إلينا عبر الأجيال وتعامل معها كل من تناولها بالبحث على أنها صادقة ، وتتمتع بدرجة عالية من الثقة . وبعد التحليل يحق لنا أن نقدر درجة الثقة فى تلك المعلومات الواردة فى الكتابات المختلفة .

¹ ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، شرح د. نزال رضا ، ص ص 151-153

الفصل الثامن

يحيى النحوى

كلنا قد سمع عن شخصية يحيى النحوى من الكتابات العربية القديمة، لكن لا واحد منا تساءل ولو لمرة واحدة عن حقيقة هذه الشخصية التى بذرت السموم والعداء بين الغرب والشرق زمنا طويلا، خاصة وأن الكتابات المختلفة لم تشك لحظة واحدة فى الروايات التى تلقتها عن هذه الشخصية .

لم يكن دافعنا من ذ البداية سوى الكشف عن هذه الشخصية بصورة مجردة ، لكن سرعان ما تحول هذا الدافع إلى توجه بحثى بالدرجة الأولى ، خاصة إذا علمنا أن يحيى النحوى هذا يحمل أكثر من قناع ، وينتمى إلى أكثر من عصر .

بدأت التعامل مع الكتابات التاريخية ، كما سبق وذكرت ، على أنها تتعامل مع الكتابات القديمة على أنها تتمتع بمصداقية عالية . وكنت على العكس من هذه الكتابات كلها أشك فيما تضمنته هذه الكتابات من معلومات ، بل امتد الشك إلى الأشخاص أنفسهم . لكننى أعترف أننى كنت بحاجة إلى الدليل على صحة ما أعنقده . وجاءنى الدليل من الكتابات ذاتها ، ومن التاريخ ذاته وما يقرره من وقائع وأحداث . ولم تكن المهمة سهلة ، وإنما احتاجت إلى العديد من التحليلات والمقارنات والنقد المستمر الذى يعتمد على بناء الدليل خطوة خطوة . وقد اعتمدت فى كل هذه المراحل على استخدام الشك منهجا أساسيا فى التحليل .

تعد شخصية يحيى النحوى هى الشخصية المحورية فى النصوص التى لدينا ابتداءً من ابن النديم وما كتبه فى الفهرست حتى كتاب ومؤرخي القرنين السادس والسابع الهجريين وبصفة خاصة عبد اللطيف البغدادي فى الإفادة والاعتبار، وابن القفطي فى تاريخ الحكماء، وابن العبرى فى تاريخ مختصر الدول، وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء. وهذا يعنى أن هذه الكتابات ركزت على يحيى النحوى باعتباره ممثلاً لعلوم الأوائل فى عصره، ومحاولاً الحفاظ عليها، فى مواجهة الفاتحين الجدد. ولكن الكتابات التى لدينا انزلت فى أخطاء ابستمولوجية مهمة، لأنها من جانب أول ركزت على الشكل الروائي الدرامي المؤثر بكل ما يحمله من معان ودلالات، وهو ما يبدو فى استجداء يحيى النحوي أن يأخذ الكتب من الفاتحين الجدد. ومن جانب آخر أن هذه الكتابات لم تدرك ابتداءً تمييز شخصيات أخرى تحمل اسم يحيى النحوى. وهذه مسألة لها قيمتها وتقديرها فى البحث المتعلق بشخصية يحيى النحوي باعتبارها محورية ومفتاحية فى النص.

والواقع أن الجانب المتعلق بشخصية يحيى النحوي وتمييزها كان موضع عناية العلامة الدكتور/ على سامى النشار الذى دون رائعته العلمية "مناهج البحث عند مفكرى الإسلام" الذى كان رسالته للماجستير عام 1942. وربما كان هذا المؤلف بمثابة أهم دراسة علمية فى النصف الأول من القرن العشرين، انطوت على العديد من

النصوص المهمة التي اكتشفها الدكتور النشار اكتشافا وأعاد تركيبها، التي من خلالها أكد قضيته الأساسية أن المسلمين اكتشفوا المنهج العلمي التجريبي كاملا قبل أوروبا، وأن عناصر المنهج نقلت إلى العالم اللاتيني إبان حركة الترجمة ، وأن علماء اللاتين استفادوا بصورة مباشرة من مناهج المسلمين. وقد حرص الدكتور النشار أن يأتي تأكيد هذا في كل جزئياته مدعما بالأدلة والنصوص الجديدة والمكتشفة.

كانت حركة النقل والترجمة لصيغة الصلة بالقضايا التي عرض لها الدكتور النشار التي ظل يعالجها على مدار قرابة النصف قرن في كتاباته المختلفة. كما كان تصوره لأبعاد تلك الحركة يذهب إلى المنابع الأولى، والبدايات الحقيقية لالتقاء الفكر الإسلامي بعلوم الأوائل ، وموقفه منها. وفي خلال تناول الدكتور النشار لأبعاد تلك الحركة، وعناصر الالتقاء، قدم لنا نصا مهما من اكتشافاته يذهب فيه إلى تقرير الآتي : " يقول البيهقي يحيى النحوي الملقب بالطريق - كأن يحيى الديلمي من قدماء الحكماء. وكان فيلسوفا نصرانيا. ويحيى النحوي الطريق هو الذي صنف كتبها رد بها وفيها على أفلاطون وأرسطو حين همت النصارى بقتله.

وقال في شأنه أبو علي : هو يحيى النحوي المسموه على النصارى وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمة الله عليه في تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوي". ويقول الشهرزوري "يحيى النحو

الديلمي وهو غير ت النحوى الإسكندري". لكن النشار بعد هذا مباشرة يذكر لنا بالنص : " ثم لا يخرج كلام الشهرزورى بعد هذا عما ذكره البيهقى. ولكن من المحتمل أن يكون يحيى النحوى هذا استمد نقده من كتاب سكتوس، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى من المؤكد أن كثيرا من آراء الشكاك نقل عن طريق شراح الأورجانون وخلال كتابات جالينوس على الخصوص"¹.

من الواضح من كلام الدكتور النشار هنا أن القضية التى كانت تشغله، ليس يحيى النحوى، وإنما نقد الغزالى للفلاسفة فى كتابه " تهافت الفلاسفة"، حيث يرى على خلاف البيهقى أن أساس النقد لا يرجع لما كتبه يحيى النحوى، وإنما ما استمد من كتابات سكتوس امبريقيوس والشكاك بصفة عامة، وما تسرب من آراء عبر شراح كتب أرسطو المنطقية (الأورجانون) وكتب جالينوس. وهذا يعنى أن نقد يحيى النحوى المعروف على ابروقلس استمد عن هذا الطريق وليس من وضعه. وأهمية هذا التقرير تتمثل فى أن يحيى النحوى هذا لم يكن فيلسوف أصيلا بقدر ما كان مردداً لآراء الأوائل وموقفهم.

إن من هذا النص وضع النشار يده على البعد المعرفى التاريخى فى شخصية يحيى النحوى، وكشف فى الوقت ذاته أن هناك أكثر من شخصية تحمل اسم يحيى النحوى. لكن يجب أن نقرر فى الوقت ذاته

¹ على سامى النشار ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، ص 28

أن الدكتور النشار لم ينشغل بصورة مباشرة بهذه القضية فى سياق تحليل أو كشف الأبعاد المعرفية والتاريخية الموجودة فى بنية نص ابن القفطى وكتاب عصره.

ولكن باحثاً ومفكراً عربياً معاصراً وهو الدكتور سحبان خليفات، استطاع بعد قرابة نصف قرن من اكتشاف نص الدكتور النشار، أن يقدم لنا التمييز الذى ننشده بصورة أكثر تفصيلاً ودقة، واعتماداً على نصوص جديدة تعضد فكرة النشار وتطورها، وهذه مسألة هامة طالما نبهنا عليها وهى فكرة البحث عن النصوص الأصيلة وتحليلها ونقدها ومعارضتها ببعضها إن أمكن ذلك لمعرفة بنية الفكر العربى على امتداد تاريخه.

يذكر الدكتور سحبان خليفات فى كتابه الرائع عن يحيى بن عدى والذى جاء بعنوان "مقالات يحيى بن عدى الفلسفية" والذى أصدره عام 1988، يذكر تعليقا على شخصية يحيى النحوى مانصه¹: "يحيى النحوى : هناك ثلاثة يحملون هذا الاسم عند العرب كما يقول سننيلانا: أولهم يحيى الإسكندراني ، أحرقه مجمع الاساقفة سنة 576م ، لما كان يحجده من اتحاد الأقاليم فى الثالث ... وثانيهم يحيى النحوى وله تصانيف فى النحو ، وعاش فى انطاكيا، ويجهل تاريخه. وثالثهم يحيى النحوى من تلامذه أمونيوس بن هرمياس، عاش بين سنة 500 وسنة

¹ سحبان خليفات ، مقالات يحيى بن عدى الفلسفية ، ص 328

570م وهو صاحب التفاسير لكتب أرسطو طاليس والرد على برمكس (بروكلوس 410 - 485) المولود في القسطنطينية وزعيم مدرسة أثينا الفلسفية، وهو من شراح أفلاطون. ويحتمل أن يكون العرب (ديبادوخش) أى خليفة أفلاطون في رئاسته دار العلم بأثينا. ولعل كتابه المعروف "باسطوخوسيس الصغرى" (ومعناه المبادئ) هو المسمى بكتاب (حدود أوائل الطبيعيات) المذكور في الفهرست (ص 252، والقفطى ص 891). غير أنه لا يذكر له نقل سريانى ولا عربى". (سنتيلانا : ج 2 ، ص 460) ومما اشتهر به (كتاب فى أبدية العالم). ومالبث أمر هؤلاء أن اختلط على العرب" فصار يحيى الأول ويحيى الثالث عندهم شخصا واحدا كما تدل عليه ترجمة يحيى النحوى فى كتاب الفهرست وابن ابى أصيبعة "سنتيلانا ، ج 2 ، 450). ولقب يحيى الثالث هو فيلوبونس وقد بلغ العرب ترجمته للمقولات".

لا بد وأن نتساءل هنا ما الذى يطلعنا عليه تحليل النص الذى ذكره الدكتور سبحان استناداً إلى سنتيلانا ؟

واضح إذن أن سنتيلانا يقرر وجود ثلاث شخصيات تحمل لقب يحيى النحوى، وواضح أيضا أن الدكتور سبحان خليفات يتفق مع رأى الذى يذكره سنتيلانا، ويأخذ به ، وهو من هذه الزاوية يقدم لنا دليلا جديدا على أن كتابات مؤرخى القرنين السادس والسابع الهجريين تعرضت لأخطاء تاريخية أدت بالتالى إلى وجود شخصية يحيى

النحوى المزعومة التى تصورها النصوص وبصفة خاصة نص ابن القفطى على أنها محورية، وعاصرت الفتح الإسلامى لمصر، وهى مسألة عسيرة التصديق فى ضوء النصوص التى لدينا. وهذا يبدو بوضوح من شخصيات يحيى النحوى الثلاثة : يحيى النحوى الإسكندرانى وهو الذى أحرق فى عام 576م ، ويحيى النحوى الذى عاش فى انطاكية وهو مجهول التاريخ، وأخيراً يحيى النحوى تلميذ أمونيوس (500 - 570م) والمعروف باسم فيلوبونس. والأمر الجدير بالذكر فى هذا الصدد هو ما يذكره النص من ارتباط بين الشخصية الأولى والثالثة فى الكتابات العربية " فصار يحيى الأول ويحيى الثالث عندهم شخصاً واحداً ". وهذا ما جعل الدكتور سبحان يقرر بصورة قاطعة أن الأمر " اختلط على العرب".

ويترتب على هذا الإدراك المعرفى لاختلاط مستويات التمييز التاريخى أن ما ذكره ابن القفطى منسوباً إلى يحيى النحوى واختلافه مع النصارى فى عقيدة التثليث ينطبق على يحيى النحوى الأول وليس الثالث ، وهو يحيى الإسكندرانى الذى "أحرقه مجمع الأساقفة سنة 576م لما كان يجنده من اتحاد الأقباط فى الثالوث". ومن ثم تصبح القصة المطولة التى ذكرها القفطى لا أساس لها من الواقع.

ومع أن القيمة المعرفية للنص الذى يقدمه لنا الدكتور سبحان خليفات، تهمنا بالدرجة الأولى، إلا أن هناك بعض الأخطاء التاريخية

التي وقع فيها سانتلانا، وهذه الأخطاء يمكن لنا أن نحصرها في أمرين هما : الأمر الأول أن ابروقلس لم يكن " خليفة افلاطون في رئاسته دار العلم بأثينا". والأمر الثاني أن كتاب المبادئ ليس من وضع ابروقلس. أما فيما يتعلق بالأمر الأول فنحن نعلم أن ابروقلس تتلمذ على بلوتارك وأن " تكوينه العقلي يستند إلى مصدرين: النزعة المدرسية التي تلقاها من فلسفة أفلوطين - ثم التيارات الدينية وهي ترجع إلى يامبليخوس"¹. وقد أدى هذا التكوين الذي تمتع به ابروقلس إلى افادته في النظر الفلسفي بصورة كبيرة أكثر من السابقين، مما يعنى أنه "وقد تجمعت لديه تيارات الفلسفة مع تيارات الدين في عصره كان أقدر على صياغة مذهب يعبر عن النزعة التليفقية المستحكمة التي انتهت إليها العقل اليوناني في العصر الهليني"². فكان أول خطأ وقع فيه سانيلانا أنه اعتبر ابروقلس من اتباع افلاطون وأنه ترأس مدرسته، والواقع يقرر انه كان افلوطيني النزعة ومن أعضاء مدرسة أفلوطين. وأما الأمر الثاني فيتمثل في التقرير الذي يذكر فيه سانتلانا أن كتاب المبادئ أمر العلل من وضع ابروقلس، وهذا أيضا غير صحيح، وفقا لما يقرره الدكتور أبوريان الذي درس هذه الفترة وتعمق فيها بصورة كبيرة حيث لاحظ أن الدين والتصوف معا كانا أساس كل التيارات

¹ محمد على أبوريان ، ارسطو ، ص 345

² المرجع السابق ، ص 345

الفلسفية والعلمية فى مدرسة أثينا كما فى المدرسة السورية على السواء، مع ميل إلى التزام الروح اليونانية الفلسفية والعلمية فى مدرسة أثينا بصفة خاصة. وأن هذه المدرسة أخذت صورتها النهائية عند ابروقلس، "ولم تظهر فى المدرسة بعد ذلك وجوه ذات امتياز فكرى ملحوظ، وكانت المدرسة حينذاك تجمع شمل آخر حلقات المثقفين الوثنيين فى العالم الهلينستى. فنجد على زعامة المدرسة بعد ابروقلس، الرياضى مارينوس تم تلميذه (دمسكيوس حوالى 520 م الذى وضع كتاب (المبادئ)".¹

لا بد لنا إذن من بحث أبعاد الشخصية التى عرضت لها كتابات القرن السادس الهجرى التى عرفت بشخصية يحيى النحوى. ماهى حقيقة جوانب هذه الشخصية ؟ وما التصور الذى يمكن أن نتبينه من خلال تحليل كافة النصوص المتعلقة بهذه الشخصية؟ إن مثل هذه التساؤلات تفتح الباب على مصراعيه لتقديم الأدلة المناسبة بعد تحليل النصوص التى نفتقد أنها لم تخضع للتحليل المعرفى بصورة كبيرة. علينا إذن أن نسأل التاريخ أولاً لنتعرف على وزن البيانات التاريخية المتعلقة بشخصية يحيى النحوى، ولنطبق منهج الحذف والاستبعاد على النصوص، لنعرف زمان يحيى النحوى.

¹ المرجع السابق ، ص 348

يشير ابن ابي أصيبعة في عيون الأبناء إلى يحيى النحوى على أنه
"كان فى المجمع الرابع الذى اجتمع فى مدينة يقال لها خلكدونية، وكان
فى هذا المجمع ستمائة وثلاثون اسقفا على اوتوشىوس وهو يحيى
النحوى وأصحابه، وأنهم لما احرموه لم ينفوا كما نفوا المحرومين
وكان ذلك لحاجتهم إلى طبه"¹. هنا تواجهنا أول بيئة تاريخية مهمة
وهى المتعلقة بمجمع خلكدونية. متى عقد المجمع الرابع ؟

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى
أن مجمع خلكدونية قام سنة 451م فى عهد الإمبراطور مارقيان (450
- 457م)². وقد أكد ابن أبى أصيبعة هذه الحقيقة حين ذكر "أنه ترك
فى مدينة القسطنطينية ولم يزل مقيما بها حتى مات مرفيان الملك مما
يعنى أن يحيى النحوى المذكور كان يعيش فى الفترة (450 - 457) .
وأما النقطة الثانية التى يثيرها نص ابن أبى أصيبعة فتتمثل فى قوله
"وأنهم لما احرموه لم ينفوه" إن هذا القول يرتبط مباشرة بما يذكره ابن
أبى أصيبعة عن هذه الواقعة فى تأكيده "وقام بعد مارقيان الملك
اسطيرىوس الملك فاعتلى هذا الملك علة شديدة صعبة وذلك بعد سنتين
من حرم اوتوشىوس المذكور، فدخل على الملك وعالجه وبرأ من علته.
فقال له الملك سلنى كل حاجة لك، فقال له اوتوشىوس حاجتى اليك

¹ ابن أبى أصيبعة ، عيون الأبناء ، ص 104

² حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى، المكتبة التجارية، هامش ص 313

سیدی أن أسقف زورلین وقع بینی وبينه شر شديد وبغی علی وقوی
عزم افلاسانوس بطریرك القسطنطينية وحمله علی أن جمع لی
سونزس آی مجمع وحرمنى ظلماً وعدواناً، فحاجتی إلیك یاسیدی أن
تجمع لی جمعا ینظرون فی أمری .

فقال له الملك أنا أفعل لك هذا ان شاء الله تعالى. فارسل الملك إلی
ديسقوروس صاحب الإسكندرية ويوانيس بطرك انطاكية فأمرهم أن
یحضروا عنده ، وأمر الملك لديسقوروس أن ینظر فی أمر اوتوشيوس
وأن یحله من حرمة علی آی الجهات كان، وقد قال له متواعدا إنك ان
حللته من حرمة بررتك بكل البر وأحسنیت إلیك غاية الإحسان، وإن لم
تفعل ذلك قتلتك قتلاً رديئاً، فاحتار لنفسه البر"¹.

لقد أردت أن أنقل للقارئ هذه الفقرة المطولة من عیون الأنباء لأبین
مدی الخط الذي وقع فيه ابن أبی اصبيعه فی بعض مواضعها، وما
ترتب علی هذا من معلومات تاريخية غير صحيحة.

یذكر ابن أبی اصبيعه" وقام بعد مارقیان الملك اسطيریوس الملك".
وهذا القول غير صحيح من الناحية التاريخية. ویبدو أن ابن أبی
أصبيعة یقصد الإمبراطور اناستاسیوس، ومن ثم تصبح المعلومة
بأسرها غير صحيحة لأنه بعد حكم الإمبراطور مارقیان جاء حكم
الإمبراطور "لیو الأول" (457 - 474م)، ثم الإمبراطور "زینون"

¹ المرجع السابق ، ص 105

(474 - 491م) ثم يأتي بعدهما اناسطاسيوس (491 - 518م)¹ وهو ما يبدو من قول ابن ابي أصيبعة " وقام اسطيريوس الملك فاعتلى هذا الملك علة شديدة صعبة وذلك بعد سنتين من حرم اوتوشيوش". والمعروف أنه حرم في زمن الإمبراطور مارقيان، وعلى اثر هذا عقد مجمع خلكدونية، على حين أن ولاية أناسطاسيوس كانت سنة 491م، أي بعد 34 سنة من وفاة مارقيان.

وعلى أحسن التقديرات يمكن وفقا لما يذكره ابن أبي أصيبعة، القول أن يحيى النحوى عاش ودرس في الفترة ما بين حكم الإمبراطور مارقيان (450 - 457) وحتى عصر الإمبراطور اناسطاسيوس (491 - 518م)، أي في فترة تمتد إلى خمسة وستين عاما بين (450 - 518م). وهنا يظهر أمامنا سؤال ملح من خلال الربط بين ما يذكره ابن أبي أصيبعة وما سبق أن ذكره ابن القفطى الذى أشار إلى أن يحيى النحوى كان في مبدأ أمره يعمل بالملاحة، ثم تحول إلى الاشتغال بالفلسفة، وهو ما يبدو من قوله " فلما قوى رأيه في طلب العلم فكر في

¹ حسين الشيخ، العصر الهلنستى، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص ص 163-

وراجع أيضا: حسين الشيخ، الرومان، دار المعرفة الجامعية، ص ص 346-350

نفسه وقال قد بلغت نيفا وأربعين سنة وما ارتضيت بشيء ولا عرفت غير صناعة الملاحة فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم¹.

إن هذا النص يكشف لنا بصورة مباشرة أن يحيى النحوى هذا حين اتجه إلى طلب العلم كان قد بلغ الواحد وأربعين من عمره . وهنا لابد وأن نتوقف قليلا . فمن جانب أول نجد أن تحصيل العلم وممارسة الطب فى مثل حالته يحتاج على أقل تقدير إلى عشر سنوات دراسة وفهما ، ويمكن لنا أن نقف على هذا من طريقة تعليم الطب عند الإسكندرانيين . ما هو النظام العلمى الذى وضعه الإسكندرانيون لتعليم الطب ؟ وما أساسياته ؟ وكيف أصبح هذا النظام علامة مميزة لمدرسة الإسكندرية الطبية عبر العصور ؟

لعلنا نستطيع أن نتعرف على طريقة التعليم الطبى عند الإسكندرانيين من خلال بعض النصوص التى قدمها لنا ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، خاصة وإن تقاليد التعليم الطبى الإسكندرى انتقلت بعد ذلك إلى العالم الإسلامى وأخذها أطباء المسلمون وعملوا وفقا لها ، ثم أصبحت هذه التقاليد من أبجديات تعلم الطب فى العالم الإسلامى على مر العصور وانتقلت بعد ذلك إلى أوروبا .

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 234 . وإضا ، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ،

كتب جالينوس الستة عشر:

أثبت ابن أبى أصيبعة¹ الكتب الستة عشر التى لجالينوس وترتيبها على رأى الإسكندرانيين. ومع أن ابن النديم قد أثبت فى فهرست هذه الكتب بدون الإشارة إلى ترتيبها؛ إلا أن ابن أبى أصيبعة قد استحدث ترتيبها نقلاً عن حنين بن إسحق وأبو الحسن على بن رضوان اللذان نقلًا ترتيبهما عن يحيى النحوى. ولذا أثبتنا ابن أبى أصيبعة بعد تناوله بالعرض ليحيى النحوى وكتبه، ومتابعاً تصنيف ابن رضوان، رتبها كما يلى :

أولاً- المرتبة الأولى:

وتشتمل مجموعة الكتب هنا على أربعة اعتبرت بمثابة مدخل تعليمى يؤهل الطالب إلى التحصيل الجزئى للطب، وفى نفس الوقت تعده للانتقال لتحصيل كتب وعلم المرتبة الثانية. ويذكر ابن أبى أصيبعة هذه الكتب على النحو التالى:

1- كتاب الفرق: ويحصل فيه الطالب دراسة الطب على رأى أصحاب التجربة ورأى أصحاب القياس معاً.

2- كتاب الصناعة الصغيرة: ويستفاد منه جمل صناعة الطب كلها

¹ ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء ، ص 154 - ص 159.

النظري والعملى.

3- كتاب النبض الكبير: ويستفاد منه جميع ما يحتاج إليه المتعلم من الاستدلال بالنبض على ما ينتفع به فى الأمراض.

4- اغلوqn: ويستفاد منه كيفية التأنى فى شفاء الأمراض.

ثانياً- المرتبة الثانية :

وتشتمل على أربعة كتب أيضاً:

5- كتاب الاسطقصات: ويستفاد منه أن بدن الإنسان وجميع ما يحتاج إليه سريع التغير قابل للاستحالة. وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم الطب.

6- كتاب المزاج: ويستفاد منه معرفة أصناف المزاج، وبما يقوم كل واحد منها؛ وبماذا يستدل عليه إذا حدث؟

7- كتاب القوى الطبيعية: يستفاد منه معرفة القوى التى تدبر بها طبيعة البدن وأسبابها، والعلامات التى يستدل بها عليها.

8- كتاب التشريح الصغير: يستفاد منه معرفة أعضاء البدن المتشابهة وعددها، وجميع ما يحتاج إليه فيها.

إن كتب المرتبة الثانية يستفاد من جميعها الأمور الطبيعية للبدن، التى قوامه بها. فإذا نظر فيها محب التعليم اشتاقت نفسه إلى النظر فى

كل ما يتعلق بطبيعة البدن.

ثالثاً- المرتبة الثالثة:

وتشتمل على كتاب واحد، وهو كتاب العلل والأعراض. ومع أن جالينوس قد وضع هذا الكتاب في ست مقالات متفرقة؛ إلا أن أهل العلم في الإسكندرية جمعوها وجعلوها في كتاباً واحداً، يستفاد منه معرفة الأمراض وأسبابها والأعراض الحادثة عن الأمراض. ومن رأى ابن رضوان وعلماء الإسكندرية أيضاً، أنه إذا وقف الدارس على ما في هذا الكتاب وفهمه لم يخف عليه شئ من صناعة الطب .

رابعاً- المرتبة الرابعة:

وتشتمل على كتابين:

10- كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة: ويستفاد منه تعريف كل علة من العلل التي تحدث في الأعضاء الباطنة، فإن هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس، فيحتاج إلى أن يستدل عليها بعلامات تقوم كل واحدة منها، فإذا ظهرت العلامات المقومة يتقن أن العضو الفلاني عله كذا.

11- كتاب النبض الكبير: وهو ينقسم إلى أربعة أجزاء، كل جزء منه أربع مقالات، حيث يستفاد من الجزء الأول معرفة أصناف النبض

وجزئيات كل صنف منها. ومن الثانى، تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض. ومن الثالث، تعريف أسباب النبض. ومن الرابع، تعريف منافع أصناف النبض. وهذا الكتاب ذو فائدة جليلة فى الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها إلى قوة البدن.

خامساً - المرتبة الخامسة:

وتشتمل على ثلاثة كتب:

12- كتاب الحميات: ويستفاد منه معرفة طبائع أصناف الحميات وما يستدل به على كل صنف منها .

13- كتاب البحران: ويستفاد منه معرفة أوقات المرض ليعطى فى كل وقت منها ما يوافق فيه، ومعرفة ما يؤول إليه الحال فى كل واحد من الأمراض. هل يؤول أمره إلى السلامة أم لا؟ وكيف يكون؟ وبماذا يكون؟.

14- كتاب أيام البحران: ويستفاد منه معرفة أوقات البحران، ومعرفة الأيام التى يكون فيها، وأسباب ذلك وعلاماته.

سادساً - المرتبة السادسة:

وتشتمل على :

15- كتاب حيلة البرء: ويستفاد منه قوانين العلاج على رأى أصحاب القياس فى كل واحدة من الأمراض، وهذا الكتاب إذا نظر فيه الإنسان اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأدوية المفردة، وفى كتب جالينوس من الأدوية المركبة.

سابعاً- المرتبة السابعة:

وتشتمل على :

16- كتاب تدبير الأصحاء: ويستفاد منه حفظ كل من الأبدان. وهذا الكتاب إذا نظر فيه الدارس اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأغذية، وفى كتاب فى جودة الكيموس ورداءته، وكتاب التدبير الملطف، وشرائط الرياضة. يستنتج من هذا أن الكتب الستة عشر المصنفة على النحو السابق ذكره تدعو الناظر فيها إلى النظر فى جميع كتب جالينوس التى استكمل بها صناعة الطب. ومن ثم يكون الإسكندرانيون قد فلقوا فى هذا التصنيف بترغيب الدارس للطب والتبحر فى صناعته .

ومع أن بعض من نقل عنهم ابن أبى أصيبعة مثل أبو الفرج بن هندو، وأبو الخير بن الخمار وابن رضوان وغيرهم قد يرون آراء متفاوتة فى ترتيب هذه الكتب كأن يرى أبو الخير تقصير الإسكندرانيين فى جمعهم للكتب وترتيبهم لها على هذا النحو ، وأنه

كان يجدر بهم إضافة كتاب الأغذية والأهوية والأدوية، إلا أن ابن هندو لم يرى مثل رأى أستاذه، وإنما ارتضى ترتيب الإسكندرانيين على النحو المذكور واعتبر أن " خرق إجماع الحكماء معدود من الخرق".

انتقل هذا النظام السكندري فى التعليم الطبى إلى الأطباء العرب، ومن ثم اكتسب التعليم الطبى عندهم خصائص وسمات مميزة ، وربما كان أبو بكر الرازى إمام الأطباء فى وقته من أعظم الأطباء الذين حفظوا لنا فى مؤلفاتهم التعاليم التى ينبغى على المتعلم أن يعرفها جيداً، ويجب على المعلم أن يبتها فى نفس المتعلم.

لم تكن تعاليم الرازى أمراً نظرياً مجرداً ، وإنما كانت من واقع الخبرة والممارسة ، حاول من خلالها أن يربط العلم الطبى كعلم نظرى بالعلم العملى أثناء التطبيق . ونحن نعلم أن الرازى "طبيب سريرى لا يبارى فى هذا الميدان ، كما هو أستاذ قدير فى تعليم الطب ، والكتابة فى أصول تعليمه . وكتابه "المرشد أو الفصول" خير دليل على ذلك. وكان يزدحم الطلاب فى حلقة دروسه بحسب تواريخ التحاقهم بتلك الحلقات، ويعرض أمامهم المرضى ليستجوبوهم عن سبب شكواهم، وبالتالي لتشخيص أمراضهم ، فإذا عجزوا عن معرفة أمراضهم

وطريقة علاجها دخل فيما بينهم ليقول فى ذلك كلمته الفصل¹. وهو
تقليد مازال الأطباء يتبعونه حتى الآن توخيا لصقل مهارات الطلاب
الذين يتعلمون الطب .

كذلك فإن هذا النص يشير إلى أشياء كثيرة فى مجال التعليم الطبى
عند هؤلاء الأساتذة وفى مجالسهم سواء أكانت داخل البيمارستان (
المستشفى) أم خارجه . فحلقة التدريس عند الرازى كانت على نوعين:
حلقة للتدريس النظرى وأخرى للتدريس العملى² . أما التدريس النظرى
ف يتم بأسلوب نقاش علمى يجمع الطلبة على ثلاث حلقات أقربهم إليه
أنضجهم علماً وخبرة، ويليه الصنف الثانى ممن هم أقل خبرة ، ثم
الصنف الأخير الذى يضم المستجدين فيقرأ عليهم ويفسر لهم ويناقشهم
ويصغى إلى حوارهم مجيباً على أسئلتهم، وكلما توسم نباهة بأحدهم
قدمه إلى حلقة أقرب، وهذه الحلقة يبقى فيها المتعلم مدة ثلاث سنوات ،
أى أنه يمضى سنة فى كل حلقة . وخلال هذه الفترة يدرس علم
التشريح ، والفيزيولوجيا أو خصائص الأعضاء والباثولوجيا .

وأما الدروس العلمية فكانت مثل الجلسات النظرية تتم على شكل
حلقات من طلابه حول سرير المريض فى المستشفيات شارحاً لهم
الحالات المرضية النادرة واحدة بعد الأخرى ، وهذا يعنى أن المريض

1 كمال السامرائى ، التعريف بأبى بكر الرازى ، ص 15 .
2 خالد ناجى ، الرازى أستاذ الطب السريرى ، ص 30 ، ص 35 .

عند الرازي استخدم ككتاب يقرأ يومياً وباستمرار للوقوف على الأعراض التي تعترية¹. ألا يذكرنا كل هذا بطرق التعليم الطبي الآن ، وأن تقاليد التعليم الطبي انحدرت إلينا جيلاً بعد جيل من خلال الأسس التي وضعها الأسلاف .

الأهم من كل هذا أن الأستاذ العالم الذي يلقي على طلابه الدروس في هذه المجالس كان يشرح لطلابه كل حالة يفحصها ويسجل أسئلته ومشاهداته في صفحة خاصة مبدئاً باستجواب المريض والطلاب من حوله، سائلاً عن اسمه وعمره وبلده ورحلاته وعما ألم به ، واليوم الذي شعر فيه بالمرض، وموضع الألم، والأعراض التي رفقته بالترتيب والتسلسل الزمني لها، مؤكداً أن المريض خير رواية لشرح أبعاد المرض الذي يعانيه شخصياً، كما كان يسأل المريض عن عائلته وأفرادها ، وهل شعروا بالأدوار التي يكابدها هو . إن هذا السجل يبين إلى أي حد صدر الاهتمام بتاريخ المرض لدى الأشخاص ، وهو سجل يمكن الرجوع إليه .

من أجل كل هذا كان الرازي يمتحن الأطباء والطلاب المتخرجين عليه، فيسألهم أولاً عن تشريح الجسم، فإذا فشلوا في الإجابة فيه ، فلا يسألهم في الطب السريري ؛ لأن فشلهم في هذا الموضع لا يشفع لهم في

1 المرجع السابق ، ص 25 .

النجاح حتى لو نجحوا في العلوم السريرية¹ .

إن هذا الوصف يبين لنا إلى أي حد يحتاج التعليم الطبي لوقت طويل ، ومران وخبرة وتدريب في المستشفيات لاعداد طبيب صالح يمكنه أن يفيد الناس بعلمه ، وهذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للذين نذروا أنفسهم لهذه المهنة الإنسانية السامية.

عود إلى يحيى النحوى

إذا يكون يحيى النحوى المشار إليه وقت حرمه قد جاوز الخمسين عاما . ومن ثم فإنه إبان فترة حكم الإمبراطور مارقيان ووقت انعقاد مجمع خلكدونية يكون قد جاوز الخمسين . ويترتب على هذا أنه يصعب أن نتصور عقلا أنه كان على قيد الحياة عام 518 م وقت نهاية حكم الإمبراطور انسطاسيوس ، إذ سيكون قد جاوز المائة عام وأصبح لا ينتفع به ، وهذه العبارة وردت عند ابن أبى أصيبعة ولكن بصورة أخرى . ينقل ابن أبى أصيبعة من تعاليق الشيخ أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني " أن يحيى النحوى كان نصرانيا بالإسكندرية وأنه قرأ على اميونييس ، وقرأ اميونييس على برقلس . قال ، ويحيى النحوى يقول أنه أدرك برقلس وكان شيخا كبيرا لا ينتفع به من

1 كمال السامرائى ، التعريف بأبى بكر الرازى ، ص 19 .

الكبر " ¹. ومن المعروف أن ابرقلس كان يعيش في القرن الخامس ، إذ يذكر الدكتور محمد على أبو ريان أن ابرقلس تولى " زعامة المدرسة بعد سوريانوس وكان تلميذا لبلوتارك . وقد ولد عام 410 م فى القسطنطينية ونشأ فى ليقية ثم ارتحل إلى أثينا فى سن العشرين ومات عام 485 م " ². وأن أمونيوس كان تلميذا لابرقلس وعلم فى الإسكندرية. فإذا كان يحيى النحوى قد " أدرك برقلس وكان شيخا كبيرا لا ينتفع به من الكبر " فإنه فى هذه الحالة يتعين أن يكون قد أدركه بعد أن جاور هو - أى يحيى النحوى - الخمسين من عمره وفقا لقوله هو أنه حين طلب العلم كان قد بلغ " نيفا وأربعين سنة". وتأسيساً على هذا فإذا كان يحيى النحوى قد أدرك ابرقلس فى نهاية عمره - أى ابرقلس - لكان من الضروري أن يكون يحيى ، على أقل تقدير ، قد جاوز الخمسين من عمره فى نهاية القرن الخامس ، ومن ثم لا يعقل أن يكون قد امتد به العمر حتى منتصف القرن السابع الميلادى .

إلا أن الأمر المحير فى هذا الصدد هو ما يذكره ابن القفطى عن برقلس حيث يقول " وهو برقلس القائل بالدهر الذى تجرد للرد عليه يحيى النحوى بكتاب كبير صنفه فى ذلك وهو عندى والله الحمد والمنة على كل خير . وذكر يحيى النحوى فى المقالة الأولى من الرد عليه

¹ ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص 152

² د. محمد على أبو ريان ، أرسطو ، ص 345

أنه كان فى زمان دقلطيانوس القبطى¹. وهنا لنا وقفة ، إذ نلاحظ مجموعة من الأمور المتصلة وهى :

الأول ، أن ابن القفطى يذكر أن لديه كتاب صنفه يحيى النحوى للرد على ابروقلس وهو "كتاب كبير صنفه "ويقول " وهو عندى والله الحمد" ، ولم يذكر لنا اسم الكتاب أو مقالاته . فهل الكتاب الذى كان لديه هو "كتاب الرد على برقلس ، ثمان عشرة مقالة " ، أو كتاب "نقضه للثمان عشرة مسألة لديدوخس برقلس الأفلاطونى " ، على ما يذكر ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء؟² هذه نقطة مهمة لم يقدم لنا ابن القفطى اجابة عليها ، وإنما تركها معلقة بدون تحديد ، مما يجعلنا نشك فيها .

الأمر الثانى ، ما يذكره ابن القفطى من أن برقلس "كان فى زمن دقلطيانوس القبطى " . هذه الفقرة يشوبها خطأ تاريخى واضح ، لأنه من المعروف أن دقلطيانوس القبطى ملك فى الفترة من عام 284م وحتى عام 305 م . فإذا كان ابروقلس قد عاصر دقلطيانوس على أحسن الفروض عام 305 م فإنه من المستحيل أن يكون قد عمر حتى عام 485 م ، لأن معنى هذا أن يكون عمره قد تجاوز مائة وثمانين عاما وهذا ضرب من المحال . ومعنى هذا أن الخلط واضح فى ذهن

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 63

² ابن أبى أصيبعة ، المرجع السابق ، ص 154

ابن القفطى لأن الحديث فى هذه الحالة ينصب على يحيى النحوى الذى عاش فى الفترة 410-485 م . وهذا الأمر يسمح لنا باستنتاج أن ابن القفطى لم يكن محققا جيدا يتحرى أصول التحقيق الداخلى والخارجى للنصوص . وبذا تصبح المسألة برمتها إما محض تأليف وتوليف من ابن القفطى أو عدم نقد وتحري للنصوص . وعند هذا الحد تصبح رواية ابن القفطى بدون سند تاريخى ، لأننا نفتقد البيانات التاريخية الصحيحة التى يمكن أن تؤيد نص ابن القفطى باعتباره وثيقة نقوم بنقدها ، ويبقى مصدر الرواية مجهولا تماما وتبقى أهداف ابن القفطى من روايته التى امتزج فيها الواقع بالخيال مجهولة إلى درجة بعيدة .

الأمر الثالث ، يذكر ابن القفطى متابعا ابن النديم " أن يحيى النحوى ذكر فى المقالة الرابعة عندما فسرهما من كتاب السماع الطبيعى لأرسطو وتكلم فى الزمان فضرب مثلا قال فيه : مثل سنتنا هذه وهى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة لدقلطيانوس القبطى ¹ وقد ذكر ابن النديم النص ذاته وذكر أنه من المحتمل أن يكون فسر هذا الكتاب فى صدر عمره ، لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص . والواقع أن هذا المؤلف ظهر عام 648 م ولا يمكن أن يكون عام 627 م وفقا للرأى الذى يذهب إليه المستشرق ماكس مايرهوف ² ، ومن ثم تكون السنة الثالثة

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 233

² ماكس مايرهوف ، " من الإسكندرية إلى بغداد " ص 50

والأربعين وثلثمائة له هي سنة 648 م . لكن ماكس مايرهوف يذكر أيضا أنه " ورد في الكتاب السادس عشر من شرح يحيى النحوى للسمع الطبيعى ولكن السنة الوارد ذكرها هي سنة 245 لدقلاطيانوس أى ما يعادل سنة 529 ميلادية ¹ وإن كان وفقا لتاريخ زمن امبراطورية دقلاطيانوس (284 - 305 م) فسنة 245 لدقلاطيانوس هي سنة 550 م .

إن ما يهمنا فى هذا التقرير التاريخى الذى نحاول عن طريقه ضبط أخطاء المؤرخين إنما يتمثل فى الخلط التاريخى الواضح الذى ورثه المؤرخون عن ابن النديم ، وهو ما لم ينتبه له كل من تناول هذه الوقائع بالدراسة والبحث والتحليل ، وتلك مسألة غريبة حقا !

مسألة أخرى يمكن أن تكشف لنا عن الأخطاء التاريخية الفادحة التى وقع فيها ابن القفطى تلك المتعلقة بترجمته للإسكندر الإفروديسى وجمعه إياه بالطبيب جالينوس فى فترة زمنية واحدة ، وهى مسألة غير صحيحة. وما جعلنا نختار هذا النموذج الذى لم يلتفت إليه الذين أرخوا لهذه الفترة وحاولوا تحليل جوانبها ، إنما يرجع إلى أمرين أساسيين هما:

الأول : ما تكشف عنه المعطيات التاريخية التى يقدمها ابن القفطى من

¹ المرجع السابق ، نفس الموضع

خلط تاريخى واضح جعله ينتج من بين خياله قصصا لا صحة لها .

الثانى : أن مؤلفات الإسكندر الإفروديسى وشروحه ذات صلة مباشرة بالإسكندرية الإسلامية وقصة الحريق ذاتها .

نشير فى مبدأ الأمر إلى أن ابن القفطى يزودنا بمقدمة مهمة يجمع فيها بين الإسكندر الإفروديسى والطبيب جالينوس ، ويشير إلى أنه كان معاصره وناظره ، وأنه جرت بينهما محاورات ومناقشات أدت بالإسكندر الإفروديسى أن يطلق على جالينوس رأس البغل لقوة رأسه¹ . ولكن علينا أن نتساءل عن حقيقة المعاصرة التاريخية التى يذهب إليها ابن القفطى لنقف على حقيقة المسألة من الناحية التاريخية ، لعل ذلك يقدم لنا أدلة جديدة .

يشير ابن القفطى إلى أن الإسكندر الإفروديسى كان حيا فى زمن ملوك الطوائف ، وهو الزمن الذى يمتد من هزيمة الإسكندر لدارا عام 333 ق . م حتى تغلب ازديشير بن بابك على الأردوانيين سنة 179 م ، أى أن ملوك الطوائف ملكوا 512 سنة² ، وهو التاريخ الذى يمتد إلى العصر الرومانى وبالتحديد حتى ماركوس اوريليوس (161 - 180 م) . وليس لدينا شك أن الطوائف الذين يقصدهم ابن القفطى هم ملوك

¹ ابن القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص 40

² ابن الوردي ، نعمة المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 1 1970 ،

الطوائف فى العصر البطلمى وليس العصر الرومانى ، وفقا لما يذكره ،
لأنه يؤكد أن مؤلفات الإسكندر الإفروديسى كان يرغب فيها فى الأيام
الرومية والملة الإسلامية ، ويترتب على هذا أنه لابد أن يكون قد ألفها
قبل ذلك فى العصر البطلمى ، هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى
يمكن أن يكون الإسكندر الإفروديسى قد دون فى فترة لا تتجاوز سنة
30 ق . م وهى الفترة التى يتحدد بها نهاية العصر البطلمى .

أما فيما يتعلق بجالينوس فإننا نجد فى ترجمته التى يقدمها لنا عدة
تواريخ ، إذ يذكر ابن القفطى ماقاله جالينوس عن نفسه فى المقالة
الأولى من كتابه فى الأخلاق " .. أن ذلك كان فى سنة أربع عشر
 وخمسمائة للإسكندر " وهذ فى رأى ابن القفطى أصح ما ذكر من أمر
جالينوس ¹ . وتأسيسا على هذا يكون جالينوس دون فى سنة 191 م
وهى السنة الرابعة عشر وخمسمائة للإسكندر .

إن ما يذكره ابن القفطى يتفق مع بعض ما يذكره ابن أبى أصيبعة
الذى ذكر أن جالينوس قال فى المقالة الأولى من كتاب (عمل
التشريح) " قال جالينوس قد كنت وضعت فيما تقدم فى علاج التشريح
... وذلك فى أول ملك انطونيوس الملك فى وقتنا هذا ، ومما يؤيد هذا
قول جالينوس فى الكتاب الذى وضعه فى تقييد أسماء كتبه ويعرف

¹ ابن القفطى ، المرجع السابق ، ص 88

بينكس ... فلما ملك انطونيوس من بعد اوريانوس¹، ومن ثم فإنه
تبعاً لهذا يكون جالينوس قد دون في الفترة الواقعة بين الأعوام (138 –
161 م) وهي فترة ولاية انطونيوس .

وتبعاً لرواية اسحق الراهب التي يرويها ابن أبي أصيبعة والتي
يذكر فيها أن جالينوس " ولد بعد زمن المسيح بتسع وخمسين سنة "²،
ومن المعروف أن المسيح رفع سنة 33 م ، ومن ثم تكون ولادة
جالينوس سنة 92 م ، وهذا التاريخ يمكن قبوله عقلاً ، كما أنه من
الناحية المنطقية يمكن أن يمتد تدوين جالينوس حتى عام 161 م أو في
فترة قريبة منها ، وإن كان هذا يبعد عن رواية ابن القفطي التي تمتد
إلى عام 191 م ، رغم أن هذا ليس مستحيلاً ، خاصة وأن ابن أبي
أصيبعة يقوض ما ذكره يحيى النحوى من تقسيم عمر الأطباء
السكندريين إلى وقتي تعليمه وتعلمه . ويضعف من قوله أن جالينوس
عاش سبعا وثمانين سنة منها سبع عشر متعلماً وسبعين سنة عالم
ومعلم.

وتأسيساً على كل ما تقدم فإنه يمكن لنا أن نحصر الفترة التي عاش
فيها جالينوس تبعاً للروايات التي يمكن قبولها عقلاً والتي تتفق فيما
بينها في الفترة التي تقع ما بين 92 م إلى 191 م ، وعلى هذا يكون

¹ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص 74

² المرجع السابق ، ص 71

بين جالينوس والإسكندر الإفروديسي قرنين من الزمان إن لم يكن أكثر. لكن السؤال المحير حقا هو : كيف جمع ابن القفطى بين شخصيتين بينهما هذا الفارق الزمنى الكبير ، بل والأكثر من هذا أن يؤسس حوارا بينهما . وقياسا على هذا فإن حالة يحيى النحوى / عمرو بن العاص ، تشبه تماما حالة الإسكندر الإفروديسي/ جالينوس ، وهى مسألة ترد إلى قوة الخيال. كأن القصة تكررت عند ابن القفطى. ومع أننا لا نأخذ على ابن القفطى أى مطعن شخصى كما يرى الدكتور العبادى ، إلا أننا نختلف معه فيما ذكره من " أن كتابه فى صورته المختصرة بين أيدينا يدل على ثقافة أصيلة فذة إذ أن الأخطاء التاريخية التى وقع فيها ابن القفطى وهو يكتب عن المفكرين والحركات الفكرية أدت فى كثير من الأحيان إلى نتائج تاريخية بعيدة المدى تماما كما حدث فى روايته لقصة مزعومة عن مكتبة الإسكندرية .

الأمر الرابع ، ويتمثل فى أن البيانات التاريخية الحديثة كشفت عن بعض الأمور المهمة وهى :

1- ما أضافه الدكتور على سامى النشار من أفكار تتعلق بوجود أكثر من شخصية تحمل اسم يحيى النحوى .

2- ما أضافه الدكتور سحبان خليفات من تمييز بين شخصيات يحيى النحوى ، وتقريره أن الأمر اختلط على العرب (وربما كان يقصد ابن

القفطى تحديداً) .

3- ما أضفته فى التحليل التاريخى لفك الاشتباك بين شخصيات يحيى النحوى وتواريخ معاصرتها لبعض الحوادث التاريخية أو ملوك الدول ، وهى نقطة لم تكن موضع اهتمام المؤرخين ، أو من تناولوا شخصية يحيى النحوى بالبحث والدراسة والتحليل . وقد أثبت التحليل فى هذا الجانب أن يحيى النحوى عاش فى الفترة 410-485 م ، ومن ثم لم يحضر وقائع الفتح العربى الإسلامى للإسكندرية. ولم تكن هناك شخصية تعرف باسم يحيى النحوى وقت الفتح الإسلامى . وهذه المسألة تكشف عن أخطاء المؤرخين ، فيما يتعلق بنصى ابن القفطى وابن العبرى فهما معا يثبتان بيانات سلبية لاحقية تاريخية لها ، ويستوى فى هذا أيهما أخذ عن الآخر ابن القفطى أم ابن العبرى .

4- ليس من قبيل وقائع التاريخ الصحيح أن نخلط بين شخصيات مختلفة ، فى فترات مختلفة لما يذكره ابن القفطى أو غيره من الكتاب عن يحيى النحوى الذى شكل جوهر القصة فى كتابات المؤرخين العرب ابتداءً من القرن السادس الهجرى . وليس من قبيل وقائع التاريخ الصحيح أن نذكر أن الغرب عرف هذه القصة عن طريق كتابات البغدادى أو ابن القفطى ، وإنما الصحيح أن القصة برمتها انتقلت إلى الغرب عن طريق المؤرخ اليهودى الأصل المسيحى الديانة

ابن العبرى فقد أراد أن ينفي التهمة بطريق السلب عن اليهود الذين قدموا كل العون والمساعدة لقيصر أثناء حرب الإسكندرية مما أدى إلى تدمير واحراق الأسطول المصرى الرابض فى ميناء الإسكندرية بمنطقة القصور الملكية (ونحن نعلم تاريخيا أن كليوباترا حرمت اليهود من الغلال وقت المجاعة عقابا لهم على موقفهم) . ومن جهة أخرى أراد ابن العبرى أن ينفي التهمة عن بنى جلدته من المسيحيين المتشددين فى الإسكندرية الذين أعملوا التدمير والحرائق فى كل ما تبقى من علوم الوثنيين أثناء تدمير السرابيوم باعتباره معقل الوثنية فى آخر موجات الهجوم على كل ماتبقى من علوم القدماء فى نهاية القرن الرابع الميلادى .

5- لقد ترجم كتاب ابن العبرى تاريخ مختصر الدول إلى اللاتينية والسريانية ونقل إلى العالم الأوروبى قبل كتابات البغدادى وابن القفطى، فتلقف الغرب الرواية ونسج على منوالها العديد من الأحداث التى اختلط فيها الواقع بالخيال.

6- ومن الصحيح أيضا فى رأينا أن كتابات البغدادى وابن العبرى وابن القفطى لم تشكل رافداً قوياً لحركة نقد التاريخ اعتباراً من القرن السادس الهجرى وحتى القرن الثامن الهجرى . وإنما امتلأت هذه الكتابات بوقائع وأحداث تاريخية شابها الاختلاط والاضطراب وتحتاج

من الباحثين والمحققين ضرورة دراستها ونقدها تاريخياً . لقد اعتمدت هذه الكتابات بصورة مباشرة على كتاب الفهرست لابن النديم الذى شكل تطوراً مهماً فى اطار الفهم المعرفى فى عصره ، بينما اختلطت الحقيقة بالخيال والواقع بالأسطورة فى الكتابات التى أشرنا إليها ، ومن ثم لم تشكل اضافة حقيقية تتجاوز تاريخ ابن النديم فى معناه أو مبناه.

يتبين لنا من كل ما تقدم أن قصة يحيى النحوى مع عمرو بن العاص مزعومة ولا ظل لها من الحقيقة ، وأن مارواه ابن القفطى وابن العبرى عن لقاء الرجلين أكذوبة ، وأن الحقيقة الثابتة فى هذا الأمر أن مكتبة السرابيوم وهى آخر بقايا مكتبة الإسكندرية القديمة اختفت من الوجود تماماً فى آخر موجات الصراع بين المسيحيين والوثنيين عام 391م ، ومن ثم لا علاقة للفتح الإسلامى بقصة مكتبة الإسكندرية القديمة أصلاً .

المراجع العربية

ابن النديم (+ 385 هـ) ، الفهرست ، المكتبة التجارية ، مصر ،
1348 هـ

ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ، 1970
ابراهيم جمعة ، جامعة الإسكندرية فى العصر الإغريقى الرومانى
والنقل عنها وتأثر العقل العربى بعلومها ، ط 2 1981 ، وقد صدرت
الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى عام 1944

ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج 2 ، ط 4 ،
مكتبة الأنجلو المصرية ، 1976

استرابون فى مصر ، نقله من اليونانية د . وهيب كامل ، مكتبة
الأنجلو المصرية ، 1954

أبو الحسن البلاذرى ، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد
رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1403/1983 هـ

البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر ، مطبعة وادى النيل ، طبعة أولى ، 1286 هـ 28

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر
الاسلامى حتى الفتح العثمانى ، دار المعارف ، مصر ، 1961

السير وليام ثورب تارن ، الحضارة الهلينستية ، ترجمة عبد العزيز
توفيق جاويد ، مراجعة د. زكى على ، مكتبة الأنجلو المصرية ،

القاهرة ، 1966

الفريديج. بتلر ، فتح العرب لمصر ، عربيه محمد فريد أبو حديد
بك، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ط 2 1996

بول غليونجي ، الطب عند قدماء المصريين ، الإسكندرية ، 1974
جريجيينوج ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ،
محاضرات العام 1946 ، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، د.
محمد عواد حسين ، القاهرة ، 1954

جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر
الإسلامي، دار المعارف ، مصر ، 1967

جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ج 4 ، ترجمة د. إبراهيم بيومى
مذكور وآخرين ، دار المعارف ، مصر ، 1970

جوستاف لوبون ، حضارة العرب

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ عمرو بن العاص ، مكتبة مدبولي ،
القاهرة ، 1966

حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المكتبة التجارية،

حسين الشيخ ، العصر الهلينستى ، دار المعرفة الجامعية ، 1993

حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ حضارة اليونان والرومان ، دار
المعرفة الجامعية ، 1987

حسين الشيخ ، مصر تحت حكم اليونان والرومان ، دار المعرفة
الجامعية ، الإسكندرية 1997

حسين الشيخ ، دراسات فى تاريخ الحضارة : مصر اليونانية
الرومانية ، 1985

- سارتون ، العلم القديم والمدنية الحديثة ،
- سحبان خليفات ، مقالات يحيى بن عدى الفلسفية، عمان ،
- منشورات الجامعة الأردنية، 1988
- سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية منذ أقدم العصور ، 1963
- سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، أجزاء متعددة وإصدار جديدة
- شعبان عبد العزيز خليفة ، الكتب والمكتبات فى العصور القديمة ،
- الدار المصرية اللبنانية ، 1997
- على سامى النشار ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام
- لطفى عبدالوهاب ، دراسات فى العصر الهلينستى ، دار المعرفة
- الجامعية ، 1999
- محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ط2 ، مطبعة لجنة
- التأليف والترجمة والنشر ، ج1 ، القاهرة ، 1934 ، 1950
- محمد أحمد حسين ، مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ، مطبعة
- الاعتماد ، القاهرة ط1 ، 1943 . وأعيد طباعته عام 1947 ، 1990
- محمد ثابت الفندى ، فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ،
- 1969
- محمد على أبوريان ، تاريخ الفكر الفلسفى : أرسطو والمدارس
- المتأخرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1972
- مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ،
- مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1985

مصطفى العبادى ، تاريخ الإسكندرية ، مطابع الاهرام التجارية ،
1999

ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد
الرابع،8

نجيب رياض ، الطب المصرى القديم ، مكتبة الكرنك ، القاهرة ،
1970

نبيل راغب ، عصر الإسكندرية الذهبى :رؤية مصرىة علمية ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993

هنرى رياض وآخرين ، دليل آثار الإسكندرية ، مراجعة د. داود عبده
داود

هذا بالاضافة إلى العديد من المراجع العربية الأخرى الموجودة بين
صفحات هذا الكتاب .

المراجع الأجنبية

A. Rosalie David, *The Ancient Egyptians: Religious Beliefs and Practices*, Routledge & Kegan Paul, London and New York, 1986.

Ellis , *Ptolemy of Egypt* , Rutledge , New York, 1994

El- Abbadi , M ., *The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria*,

Matter, *Essai Historique Sur l'Ecole d'Alexandrie*, Tome 1, Paris , 1820

Mason, S. F., *A History of the Sciences*, Collier Books, New York, 1962.

فهرست الموضوعات

11	تقديم
25	القسم الأول: المكتبة ومنظومة التأسيس
27	الفصل الأول: الصلات المصرية اليونانية القديمة
67	الفصل الثاني: حلم البطالمة المشروع الثقافي
87	الفصل الثالث: تأسيس المكتبة ورؤية فيلسوف
141	الفصل الرابع: كاليماخوس والفهرست
177	الفصل الخامس: علماء الإسكندرية
205	القسم الثاني: مكتبة الإسكندرية
	الفصل السادس: الدراسات العربية الكلاسيكية
207	وتتبع فتح الإسكندرية
	الفصل السابع: الدراسات العربية في القرنين
251	السادس والسابع الهجريين
289	الفصل الثامن: يحيى النحوى
	المراجع العربية
	المراجع الأجنبية

